جامعة القاهرة

المؤرخ المصرى



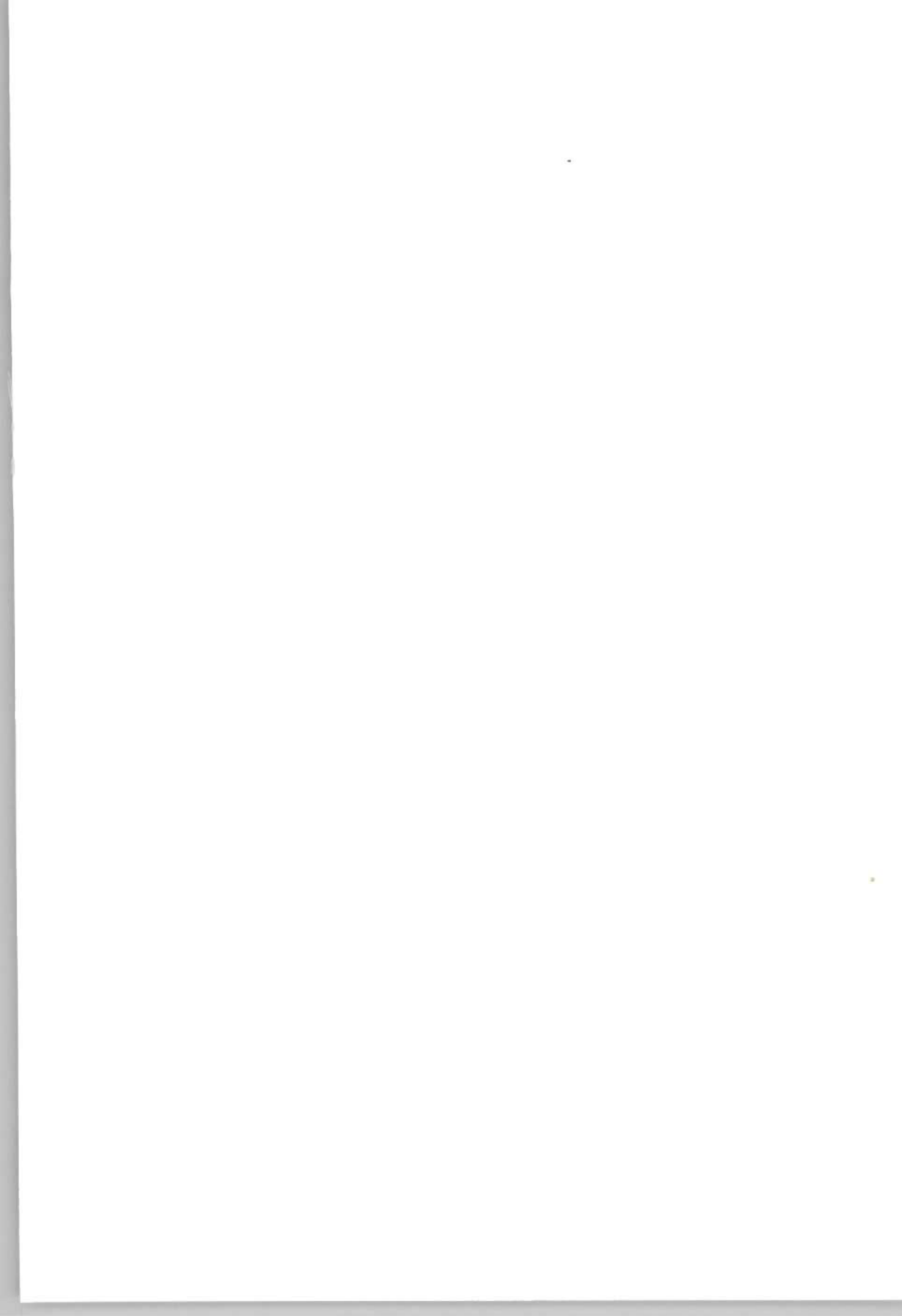
دراسات وبحوث فى التاريخ والحضارة



يصدرها قسم التاريخ

كلية الآداب - جامعة القاهرة

العدد الخامس والثلاثون   يوليو ٢٠٠٩







المؤرخ المصرى

دراسات وبحوث فى التاريخ والحضارة

يصدرها قسم التاريخ
كلية الآداب - جامعة القاهرة

العدد الخامس والثلاثون

يوليو ٢٠٠٩



المراسلات : ترسل البحوث والمقالات باسم أ.د. محمد عفيفي رئيس التحرير على العنوان التالى : (قسم التاريخ) كلية الآداب – جامعة القاهرة – بريد الأورمان – الجيزة.

All correspondence to be directed to : Editor- in chief- Prof. Mohamed Afify, Cairo University, Faculty of Arte, Orman, Giza, A.R.E.



قواعد النشر

- ترحب مجلة المؤرخ المصرى بنشر الأبحاث والدراسات الأصلية ذات المستوى الجاد بعد التحكيم، فضلا عن مراجعات وعرض الكتب الجديدة.
- تقبل المؤرخ المصرى للنشر الأبحاث التاريخية والحضارية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية على ألا يزيد عدد الصفحات عن ٣٠ صفحة مسجلة على ديسك كمبيوتر وفق برنامج (word) مع نسخة مطبوعة على ورق حجم A4 بما فى ذلك الهوامش والجداول وقائمة المراجع، على أن تكتب الهوامش فى نهاية البحث.
- المؤرخ المصرى لا تنشر بحوثا سبق أن نشرت أو معروضة للنشر فى مكان آخر، وتقوم رئاسة التحرير بإخطار المؤلفين بإجازة بحوثهم للنشر بعد عرضها على هيئة التحكيم.
- تحتفظ المؤرخ المصرى لنفسها بحق قبول أو رفض الأبحاث أياً كان قرار هيئة التحكيم.
- النشر فى المؤرخ المصرى متاح لأعضاء هيئة التدريس بالجامعات المصرية والعربية والأجنبية وسائر المهتمين بالدراسات التاريخية.
- الآراء الواردة بالمؤرخ المصرى تعبر عن وجهة نظر أصحابها.



محتويات العدد

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية

يسعدنى أن أقدم للقارئ الكريم العدد رقم ٣٥ من مجلة المؤرخ المصرى، هذه المجلة التى ساهمت فى إثراء الدراسات التاريخية ليس فقط على المستوى المصرى، وإنما امتد تأثيرها أيضا إلى المجال العربى.

ويضم هذا العدد العديد من الدراسات فى مجالات شتى من المجالات التاريخية، كما يساهم فيه العديد من الباحثين من مصر وغيرها.

وحاولنا تقديم بعض عروض الكتب، لإعطاء فكرة للقارئ عن الدراسات الحديثة، كما نطمع فى تزويد الأعداد القادمة بعروض أخرى للكتب، أو أخبار ثقافية وعروض للندوات، كما نتمنى إمدادنا بأخبار الفعاليات التاريخية على مستوى العالم العربى، لتحقيق قدر أكبر من التواصل.

والله ولى التوفيق

رئيس التحرير
محمد عفيفى



بحوث
فى التاريخ الحديث



النشاط التجارى فى ميناء جدة الإسلامى فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى / التاسع عشر الميلادي

د/ لطيفة بنت ناصر المطلق
جامعة الملك فيصل / الدمام

نشأة ميناء جدة :-

ميناء جدة ليس ميناءً حديث النشأة ولكنه موغل فى القدم، وقد تعددت الروايات حول نشأته، فمنها ما أرجع تاريخ نشأته إلى عهد الطوفان [١]، ومنها ما أشار إلى وجوده منذ القرن الرابع قبل الميلاد بدليل مرور الإسكندر المقدونى به عندما جاء إلى مكة المكرمة فى حياة النضر بن كنانة [٢].

ويرى الشيخ عبدالقدوس الأنصارى أن نشأة الميناء الأولى كانت على يد طائفة من الحواتين – وهم عرب مجاورون بهذه المنطقة التى بنى فيها – الذين اتخذوا عرائش متواضعة به مساكن لهم، كانوا يأتونها بعد رحلاتهم الصيدية فى عرض البحر، ثم جاء قضاعة وأبناؤه – وهم من معد بن عدنان – فأقاموا فى هذه المنطقة وعرفوها وعرفت بهم حتى أن أحد أبنائهم سموه بها وهو جُدّة بن جرم بن ربان بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة. ويذهب الأنصارى إلى أن جدة كانت معروفة ومأهوله منذ القرن الثانى قبل الميلاد[٣]، وهناك من ربط نشأة مدينة جدة وميناءها بالفرس، وبالتحديد فى عهد حفيد يزدجرد " حرد بن برويز بن يزدجرد بن شهريار بن بهرام"[٤]. لهذا ذهب بعض الجغرافيين فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) إلى ارتباط جدة بالفرس وسكناهم بها، إذ كانت بها قصور عجيبة، وهناك من قال بأن الفرس كانوا قوام تجارتها [٥]، و أشار إلى العلاقة بين الفرس وجدة من جاء بعدهم من الجغرافيين؛ ففى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ذكر أحدهم أن الفرس بنوا سورها وأتقنوا بناءه، وكذلك بنوا مساكنها ودورها، كما كان ملوكهم ينزلونها [٦]، وظل ارتباطهم بها إلى أن

هجروها بعد إخراجهم منها على يد حاكم مكة داود بن هاشم من طبقة الهواشم الحسنين، والذى تولى إمارة مكة بعد وفاة والده سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م(٧).

وكانت جدة وميناؤها فى عهد قريش ميناء مكة، فقد ورد أن قريشاً لما أرادوا بنيان الكعبة نقلوا أخشاباً من سفينة غرقت فى ميناء جدة للروم، وأن صفوان بن أميه خرج من مكة يريد جدة ليركب منها إلى اليمن بعد فتح مكة(٨). وظل الأمر كذلك إلى أن تحولوا منها إلى الشعيبة واتخذوها ميناءً لهم، ثم عاد ميناء جدة ميناءً لمكة فى عهد الخليفة عثمان بن عفان بناءً على طلب من قريش مكة بأن ينقل مرفأ مكة إلى جدة لقربها من مكة المكرمة، وقد استجاب الخليفة عثمان لذلك، وقام بتحويل مرفأهم من الشعيبة إلى جدة فى سنة ٢٦هـ /٦٤٦م، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت الميناء الرسمى لمكة المكرمة(٩).

وبقى ميناء جدة ميناءً لمكة المكرمة طوال العصر الاسلامي(١٠)، وحظى باهتمام شديد من قبل المماليك الذين أولوا اهتماماً شديداً بموانئ البحر الأحمر بعد أن أصبح من أكثر طرق التجارة العالمية استخداماً، وكانت سياستهم التى إتخذوها لتنشيط تجارة البحر الأحمر من أهم عوامل ازدهار الميناء، خصوصا بعد أن ركزوا اهتمامهم على ذلك الميناء، وحاولوا إضعاف الموانئ الأخرى المنافسة له، إضافة إلى سوء معاملة حكامها للتجار مما جعلهم يتحولون بسفنهم إلى ميناء جدة(١١). وظهرت أهمية ميناء جدة فى العصر العثمانى عندما دخل الحجاز سلمياً تحت السيادة العثمانية بعد سقوط مصر فى يد العثمانيين عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م(١٢).

وبات ميناء جدة مع بعض الموانئ والمناطق الخاضعة للعثمانيين على ساحل البحر الأحمر – كسواكن ومصوع – باشوية جديدة عرفت باسم باشوية جدة وولاية الحبش، وكان مقراً للحاكم العثمانى وفرقته العسكرية، وكان حاكم جدة يتلقى أوامره من العاصمة العثمانية، وكان هذا الميناء هو الميناء الذى تحط فيه السفن التى تحمل الأوقاف السلطانية من مصر وكذلك الحجاج، وكثيراً ما كان يتعرض للأخطار التى يتعرض لها إقليم الحجاز، فقد تعرض للخطر إبان الصراع بين السعوديين والأشراف عام ١٢٢٠هـ / ١٨٠٥م، وتمت محاصرته من قبلهم إلا أنه استعصى عليهم وذلك لمتانة أسواره، فاضطروا إلى الانسحاب ورفع الحصار عنه، وتم لهم

إخضاع الحجاز، وعينوا الشريف غالب بن مساعد أميراً على الحجاز من قبلهم(١٣).

ولم تطل مدة دخول ميناء جدة تحت النفوذ السعودى إذ سرعان ماتحول إلـى نفوذ باشا مصر محمد على الذى أسند إليه العثمانيون أمر القـضاء علـى الدولـة السعودية الأولى، وخلال مهمته هذه برز ميناء جـدة كقاعـدة عـسكرية للقـوات المصرية فقد اتخذه طوسون باشا قاعدة عسكرية ومستودعاً للذخائر مما سهل مهمته العسكرية فى الأراضى الحجازية(١٤).

وظل ميناء جدة يشكل أهمية كبيرة بالنسبة لمحمد على باشـا طـوال مـدة سيطرته على الحجاز وأراضى شبه الجزيرة العربية السعودية، فكان المركز الذى تنطلق منه قواته فى الأراضى الحجازية وغيرها. كما برزت أهميته أيضاً عنـدما جعلة مركزاً لتجميع القوات المصرية المنتشرة فى اليمن والسواحل الحجازية بعـد قرار انسحاب القوات المصرية من شبه الجزيرة العربية (١٥)، وميناء ترسـو فيـه السفن التى تتولى ترحيل هذه القوات ونقلها إلى الموانئ المصرية(١٦) .

وقد أخذت مدينة جدة ومييناؤها فى الازدهـار، واتـسعت رقعتهـا إلـى أن أصبحت من أعظم موانئ الحجاز والبحر الأحمر نظراً للتطورات الدوليـة التـى طرأت على طرق التجارة العالمية والتى أدت إلى ازدهار البحر الأحمر، ومن ثـم ازدهار الموانئ الواقعة على سواحله وبخاصة ميناء جدة.

موقع ميناء جدة وأهميته:

تناولت المصادر التاريخية موقع مدينة جدة وميناءها وأهميته، فقد ذكرت أنها مدينة تقع على البحر، وأنها بلد على ساحل بحر اليمن، وهى فرضة مكة المكرمة بينها وبين مكة ثلاث ليالٍ(١٧).

ووصفها القلقشندى بقولة (فرضة مكة على ساحل بحر القلزم وموقعها فـى أول الاقليم الثانى من الأقاليم السبعة، وهى فى الغرب من مكة المكرمة بميلة إلـى الشمال، وهو ميناء عظيم محل حط وإقلاع إليه تنتهى المراكب من مصر والـيمن وغيرهما ومنه تصدر) (١٨). وقد ذكر الحميرى أن المسافة بين مكة وجدة أربعـون ميلاً(١٩).

وذكرت المراجع الحديثة أن جدة تقع على شاطئ البحر الأحمـر علـى ٣٩ درجة وعشر دقائق من الطول الشرقى وعلى ٢١ درجة و ٢٨ دقيقة من العـرض

الشمالي[٢٠].

وتعود أهمية ميناء جدة إلى توسطه موانئ الحجاز وقربه من الموانئ المهمة على البحر الأحمر فى مصر، واليمن، والحبشة والتى تربطها علاقات جيدة بموانئ الهند والصين مما جعله يتحكم فى البحار الدولية حيث كان محطة عبور لبضائع الشرق الأقصى الذاهبة إلى مصر، والغرب الأوروبي، وكذلك الحال بالنسبة لبضائع مصر والغرب الاوروبى المتجهة إلى الشرق الأقصى[٢١].

وقد اكتسب ميناء جدة أهمية دينية واقتصادية لقربه من مكة المكرمة التى تعتبر من المراكز التجارية المهمة فى العالم الإسلامي، ففى موسم الحج تقصد جدة جماعات الحجاج الغفيرة من مصر، والمغرب، واليمن، وغيرها من البلدان الاسلامية، وما أن يتجمع هؤلاء الحجاج فى جدة حتى تنتعش أسواقها وتكثر أموالها[٢٢].

ومما زاد من أهمية ميناء جدة وقوعه على ملتقى الطرق البرية التى تسهل اتصاله بداخل شبه الجزيرة العربية مثل الطريق البرى الذى يربطه بمكة المكرمة والتى تسلكه القوافل التجارية وقوافل الحجيج القادمة إلى مينائه، وكذلك الطريق البرى الذى يربطه بالأجزاء الشرقية من البلاد الممتدة من الإحساء إلى الرياض، ثم مكة المكرمة ومنها إلى جدة، والذى كانت تسلكه قوافل الحجاج والقوافل التجارية القادمة من بلاد فارس والعراق، وكذلك الطريق الذى يمتد من الشرق من الكويت إلى بريدة فى القصيم ثم مكة المكرمة[٢٣]، إلى جانب الطريق الذى يعرف باسم الدرب السلطانى الذى يمتد من النجف ثم الزبير فالكويت إلى حائل، وهو الطريق الموصل من جدة إلى مكة[٢٤]، وإلى جانب هذه الطرق هناك الطريق الممتد من جدة إلى المدينة المنورة والذى كانت تسلكه أيضاً قوافل الحجاج، والقوافل التجارية، حيث يحمل الحجاج معهم السلع المتنوعة لبيعها فى المدن والقرى التى يمرون بها أثناء رحلتهم إلى مكة المكرمة، وعودتهم منها[٢٥].

وإلى جانب كون جدة وميناءها ملتقى للطرق البرية، فقد كانت أيضاً ملتقى للطرق البحرية سواء الطرق التجارية أو طرق قوافل الحجاج، مثل الطريق البحرى الذى يمتد من السويس إلى جدة والذى تسلكة السفن التى تحمل الحجاج المصريين والمغاربة والأفارقة إلى ميناء جدة، ومنها ينتقلون إلى مكة المكرمة

والمدينة المنورة بواسطة الجمال، وهى الوسيلة المعتادة لسفر الحجاج بـراً، إلـى جانب الطريق البحرى الذى يمر بعيذاب والطرق البحرية الأخـرى الممتـدة مـن شمال البحر الأحمر الذى كان يسلكه حجاج الشام، وكذلك الطريق البحرى الساحلى والداخلى الذى يمتد من اليمن ويسلكه حجاج وتجارة اليمن(٢٦).

وهكذا كانت جدة وميناؤها ملتقى للطرق البرية والبحرية، ومركـزاً لتجمـع التجارة من جميع أنحاء العالم الإسلامي، خصوصا بعد أن قام التجار بترك الطرق البرية التى تسلكها القوافل التجارية، وقوافل الحجاج القادمة إلى الأراضى المقدسة نتيجة لإنعدام الأمن وتعدى القبائل البدوية عليها، حيث آثروا نقل بضائعهم بحـراً واستلامها عن طريق ميناء جدة، وحرمانهم من الاعفاء الجمركى على البـضائع المنقولة براً، ودفع الضرائب التى تفرض على تجارتهم فى ميناء جدة(٢٧).

وصف لمدينة جدة وميناءها:-

تقع مدينة جدة على أرض مرتفعة يبلغ امتدادها على البحر حوالى ١٥٠٠ م، أما عرضها من البحر باتجاه الشرق فلا يزيد على نصف تلك المساحة(٢٨)، ويحيط بالمدينة وميناءها سور أنشئ على أنقاض سورها القديم الذى تم بنـاؤه فـى عـام ٩١٢هـ / ١٥٠٥م على يد الأمير حسين الكردى الذى كلفه الـسلطان المملـوكى قانصوة الغورى ببنائه لتحصين جدة وميناءها من الأخطار المحيطة بها، وصـد أى هجوم متوقع من قبل البرتغاليين(٢٩). وقد حظى سورها باهتمام الشريف غالب بـن مساعد عندما وردت إليه الأوامر السلطانية العثمانية بالاستعداد لمواجهـة الخطـر الفرنسى بعد استيلائهم على مصر، فقام بإصلاح السور وتقويته اسـتعداداً للـدفاع عنها وعن الأراضى الحجازية والاماكن المقدسة فيها، وبنى برجاً علـى سـاحلها ليشرف على شؤون السفن أثناء رسوها فى الميناء(٣٠). وغدت جدة منذ ذلك الوقت ثغراً قوياً محصناً ومركزاً حربياً مهماً ويشكل خط الدفاع الأول عن مصر والبحر الأحمر(٣١) . وزيادة فى تعزيز الدفاع عنها أحيط سورها بخنـدق علـى طـول إمتدادها، وشيدت القلاع المدعومة والمحصنة بقطع المدفعية(٣٢)، ولذات الغـرض أقيمت بالطرف الجنوبى من المدينة قلعة صغيرة بها ثمانية أو عشرة مـدافع إلـى جانب قوة عسكرية لحماية المدخل الجنوبى من جهة البحـر، وهـذه التحـصينات جعلت جدة وميناءها قلعة لا يمكن اقتحامها بسهولة(٣٣).

ومن أجل أغراض المراقبة في الميناء فقد شيدت قلعتان في كل طرف من أطراف الميناء الرئيسية، أما الرصيف الخاص بالميناء فقد شيد عليه سور يمتد نحو الناحية الشمالية للمدينة، ولهذا السور أربع بوابات تطل على البحر، وقد درجت العادة على إغلاقها أثناء أوقات الصلاة لأن أهالى جدة كانوا يعتقدون أن مدينتهم سوف يتم احتلالها يوماً ما، وأثناء اجتماع السكان بداخل المسجد(٣٤).

وقد كان دخول ميناء جدة يتم عبر رصيفين ترسو عليهما السفن الصغيرة، أما السفن الكبيرة فترسو على مسافة ميلين من الساحل حيث تقوم القوارب الصغيرة بتفريغ حمولات تلك السفن ونقلها إلى الساحل، ومع الغروب يتم غلق الرصيفين وبذلك ينقطع الاتصال بين المدينة والسفن القادمة إلى الميناء الذى لم يكن ملائماً لاستقبال السفن الكبيرة التى كانت تجد صعوبة شديدة فى الدخول إليه نظراً لضيقه وكثرة الصخور والنتوءات داخل مياهه(٣٥).

ومن ذلك يتضح مدى الإهمال الذى أصاب هذا الميناء، وعدم قدرته على استقبال السفن الكبيرة، وذلك يعود لعدم قيام الدولة العثمانية بتطوير هذا الميناء التجارى المهم، وظل كذلك حتى وقت متأخر من القرن التاسع عشر الميلادي/ الثالث عشر الهجرى حين إستأذنت الحكومة المصرية الحكومة العثمانية فى عمل عدة إصلاحات وتوسعات فيه وفى بناء مرساة على نفقتها الخاصة(٣٦).

أما من ناحية البر فلمدينة جدة ومينائها ثلاث بوابات إحداهما فى الشرق وتعرف بباب مكة، والأخرى فى الشمال وتسمى بباب المدينة، وثالثة فى الجنوب وتعرف باسم بوابة اليمن والتى كانت تغلق من وقت لآخر بغرض تقليل عدد الناس الذين يعبرونها، ولم توضع أى حامية عسكرية على هذه البوابة شأنها فى ذلك شأن بوابات مكة والمدينة(٣٧). وتعتبر بوابة مكة من أجملها، ويقوم على حراستها برجان، وقد زينت جدرانها بآيات قرآنية(٣٨).

وتنقسم مدينة جدة إلى حيين كبيرين هما حى اليمن، وحى الشام، ويقع حى اليمن فى جنوب المدينة، وسمى بذلك لارتباطه بباب اليمن، أما حى الشام فيقع إلى الجهة الشمالية من المدينة وعرف بذلك أيضاً لارتباطه بباب الشام(٣٩)، وإلى جانب هذين الحيين كانت هناك ضواح متناثرة فى أطراف المدينة ضمت مجموعة من الأكواخ المبنية من عيدان القصب وفروع الأشجار، منها ضاحية أهل سواكن،

والتى أطلق عليها الناس اسم حارة السواكني(٤٠).

وكان لطبيعة نشاط ميناء جدة التجارى أثره فى التركيب الاجتماعى لمدينة جدة ونموها السكانى (٤١). وقد اختلف الرحالة الذين زاروها فى تحديد أعداد السكان، فقد ذكر بوركهارت أن عدد سكانها تراوح مابين اثنى عشر ألفا وخمسة عشر ألفا فى الأشهر السابقة للحج، وفى شهور الصيف وهبوب الرياح الموسمية التى تلعب دوراً كبيراً فى النشاط التجارى يتدافع الأغراب نحو المدينة، حتى أن عدد سكانها كان يصل إلى ما يتراوح ما بين ثمانية عشر ألفاً واثنين وعشرين ألفاً ونصف(٤٢). أما الرحاله تاميزية الذى زارها بعد بوركهات فقد قدر عدد سكانها بعشرة آلاف نسمة(٤٣)، وذكر ديديه الذى زار ميناء جدة فى أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادى - الثالث عشر الهجرى - أن سكان جدة كان يتراوح ما بين خمسة عشر ألف نسمة و ٢٠ ألف نسمة(٤٤).

وسكان جدة خليط من البدو والعرب والأجانب، فأما البدو فهم الذين تركوا قبائلهم بغية التفرغ لمزاولة مهنة التجارة، وجاء العرب من اليمن وعمان ومصر وسوريا وبلاد المغرب، فى حين أن الأجانب كانوا من الأتراك والهنود حتى أن جدة كان بها ما يزيد على مائة عائلة هندية معظمهم من مدينتى سورات وبومباي، كذلك وجدت بجدة جالية من جزر الملايو. وقد امتزجت تلك الشعوب وتزاوجت وعاشت وفقاً لعادات وتقاليد العرب الإسلامية (٤٥). وإلى جانب هذه العناصر السكانية كان يوجد الأحباش الذين يعملون فى تجارة الرقيق والهجن الذين يجلبون عن طريق ميناء جدة(٤٦)، وكذلك الزنوج أو التكارنة الذين يجلبون من المناطق الأفريقية مثل دارفور، ويباعون فى سوق العبيد، أو يأتون لأداء فريضة الحج ولايعودون لبلادهم نظراً لعدم قدرتهم على دفع تكاليف رحلة العودة إلى بلدانهم(٤٧).

كذلك وجدت بجدة أعداد من المسيحيين، وان كانت محدودة، مثل اليونانيين الذين يأتون من الجرز اليونانية بين الحين والآخر إلى ميناء جدة، ويحضرون معهم من مصر بضائعهم التى يبيعونها فى أسواق مدينة جدة، وكانوا زمن حكم الأشراف يجبرون على التخلى عن ملابسهم الأوروبية، ويحرم عليهم الاقتراب من بوابة مكة، لكن بعد أن أصبح الأتراك سادة على الحجاز ألغوا هذه القيود، وأصبح بوسع المسيحى التمتع بالحرية المطلقة فى جدة. وإلى جانب هؤلاء التجار المسيحيين كان

يوجد بعض من قناصل الدول الأوروبية التى تربطها علاقات دبلوماسية بالدولة العثمانية صاحبة النفوذ فى إقليم الحجاز، وكان هؤلاء المسيحيون يعاملون باحترام من قبل أهالى جدة، وكانت لهم مقبرة خاصة يدفنون فيها بعد موتهم حيث لا تسمح لهم السلطات بالدفن فى مقابر المسلمين(٤٨).

النشاط التجاري:-

اكتسب ميناء جدة بسبب موقعه الجغرافى أهمية تجارية كبيرة باعتباره بوابة الحجاز الرئيسية إلى الأماكن المقدسة - مكة المكرمة والمدينة المنورة- فقد كانت تصل إليه معظم منتجات الشرق والغرب، وحوت أسواقه أنواعاً شتى من البضائع التركية والفارسية والهندية والمصرية والسورية، وقد وجه هذا الموقع معظم أهل جدة إلى العمل بالتجارة، وعدم ممارسة أية صناعات أو حرف أخرى إلا ما تقتضية الضرورة، فكان أكثرهم من البحارة أو تجاراً بحريين يعملون بالتجارة(٤٩).

ولم يستمد ميناء جدة أهميته من كونه ميناء مكة فحسب، بل باعتباره ميناء لمصر والهند وشبه الجزيرة العربية كلها، لذا كانت جدة أغنى مدينة بشبه الجزيرة العربية حتى أن اسمها أصبح منطبقاً على وضعها الاقتصادي(٥٠).

ويمكننا تقسيم تجارة جدة إلى نوعين؛ تجارة بحرية وأخرى برية، وكانت التجارة البحرية تتركز فى سلعتين بالأساس هما البن والتوابل، وكانت تجارة البن تروج طوال العام حيث كانت السفن التجارية تأتى محملة بالبن من اليمن، وهذه التجارة كان لا يقدم عليها إلا أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة نظرا لتعرضها لتقلبات السوق، وتأثر أسعارها بأوضاع السوق المصرية، وبخاصة بعد استيلاء محمد على باشا على شبه الجزيرة العربية، فأصبحت الحكومة المصرية هى التى تحدد سعره رغم عدم زراعته فى الأراضى المصرية(٥١)، ويتباين سعر البن مع وصول السفن التى تجيء من السويس، وكانت أسعاره فى السويس تعتمد على طلب بن المخا فى تركيا، وبذلك يكون السوق متقلباً، وتصل أسعار البن إلى خمسة وثلاثين دولاراً للوزنة التى مقدارها مائة ثقل، وتنخفض إلى أربعة وعشرين دولاراً، وكانت تجارته تتركز فى أيدى تجار الحجاز المقيمين فى جدة(٥٢).

وقد عانت تجارة البن اليمنى فى جدة من منافسة البن الذى كان يستورد من غربى الهند إلى الموانيء التركية التى كان يجرى إمدادها ببن اليمن، وأصبح البن

الهندى يتفوق عليه وبخاصة فى تركيا الأوروبية، وآسيا الصغرى وسوريا . ولحماية البن اليمنى من هذا التنافس أصدر محمد على باشا أمراً قضى بمنع استيراد البن من غربى الهند ومنع دخوله إلى الحجاز ومصر مما أدى إلى زيادة تجارة البن اليمنى فى ميناء جدة(٥٣).

وكانت تجارة البن اليمنى تتأثر بالأحداث السياسية مما ينعكس بالتالى على وفرته فى الأسواق وأسعاره، ومثال ذلك ما حدث عندما سيطر السعوديون على إقليم الحجاز عام ١٢٢٠هـ / ١٨٠٥م وإلغائهم الرسوم الجمركية على تجارة البن مما زاد من قيمة وارداتها إلى ميناء جدة(٥٤).

و عندما بدأت الحملات المصرية عام ١٢٢٦هـ / ١٨١١م فى التوجه نحو الأراضى الحجازيه للقضاء على السعوديين، وغاب الامن، انقطع ورود البن اليمنى وأرتفع سعره، وتوقف إرساله إلي الموانيء المصرية، مما دفع الناس إلى صنع القهوة من الحبوب المحمصة كالشعير والقمح والفول وبزر العاقول، وتم القضاء على هذه الأزمة بالتعاون بين حكومة محمد على باشا و الشريف غالب الذى كان من أشهر تجار البن اليمنى فى جدة، وكان يملك عدداً من السفن الصغيرة التى تعمل فى تجارة البن مع اليمن(٥٥).

وعندما توقف وصول البن اليمنى إلى ميناء جدة فى عام ١٢٥٣هـ / ١٨٣٧م بسبب تعسف حكام صنعاء وثوار عدن مزارعى البن أرتفعت أسعاره، وقامت الحكومة المصرية بوصفها المسؤولة عن تجارة البحر الاحمر بالسعى إلى توفيره فى الأسواق، وتذليل كل الصعوبات التى تحول دون توفره (٥٦).

أما التجارة الهندية فقد إهتم التجار بها اهتماماً كبيراً؛ لأنها كانت أكثر أماناً وضماناً، وتحقق أرباحاً وفيرة. ففى شهر مايو من كل عام كانت تصل الى ميناء جدة الأساطيل التجارية من كلكتا وسورات وبومباي، وكان تجار الميناء ينتظرونها لإتمام الصفقات التجارية، هذا إلى جانب إرسال تجار القاهرة بعض مندوبيهم إلى جدة لشراء بعض السلع لحسابهم، إلا أن القسم الأكبر من حمولة هذه السفن كان يشتريه تجار ميناء جدة الذين كانوا يرسلونها بدورهم إلى القاهرة لتباع لحسابهم الخاص، وعندما تعود السفن التجارية الهندية إلى بلادها فى شهر يونيو كانت أسعار السلع تأخذ فى الارتفاع حتى تصل أرباحها عند مغادرة السفن لميناء جدة

حوالي ١٠% . ولما كان التجار لا يبيعون سلعهم مرة واحدة إلا إذا كانوا فى حاجة ماسة للأموال، فقد درجوا على تخزين تلك السلع لمدة تراوحت بين أربعة وخمسة أشهر، حتى أرتفعت أسعارها إلى أن بلغت ما تراوح بين ٣٠% و ٤٠% (٥٧) .

وكانت السفن التجارية الهندية تتردد على جدة مرة واحدة فى العام، كما أن الأسعار كان يقررها العرض والطلب، وتظل الأسعار فى ارتفاع مستمر حتى تصل الأساطيل التجارية فى العام التالي(٥٨).

ومما جعل السلع الهندية تروج فى جدة، وجعل ميناء جدة يحتكرها، هو عدم قدرة القاهرة على منافسة جدة التى تتعامل فى الشراء بالنقد، فى حين أن القاهرة كانت تتعامل بعمليات أئتمانية طويلة الأجل، علاوة على ذلك كانت السفن التى تحمل البضائع الهندية يمتلكها أهالى مدينة جدة، ويعمل عليها تجارها، وفضلاً عن الأمان الذى حظى به الحجاز فى عهد الشريف غالب بن مساعد، الذى كان من أشهر تجار السلع الهندية فى جدة، حيث كان يملك سفينتين تعملان فى تجارة الهند لحسابه الخاص تبلغ حمولة كل منهما أربعمائة طن، كما كان يتمتع بسمعة جيدة بين تجار جدة الذين كان يفوقهم وعيا وحصافة فى كل أنواع تجارة البحر الأحمر(٥٩)، وأشهر تاجرين فى جدة كانا عرابى الجيلاتى والسقات وهما من أصل مغربي(٦٠).

وإلى جانب تجارة البن والتجارة الهندية كانت هناك تجارة الرقيق فى ميناء جدة الذى كانت تصل إليه أعداد من مراكب العبيد الذين كانوا يجلبون من المناطق الأفريقية الواقعة وراء دارفور، والذين عادة ما يأتون ضمن قوافل الحجاج الأفارقة الذين يواصلون مسيرتهم إلى الخرطوم، ثم دنقلة، فميناء مصوع أو سواكن، ومن ثم يتم ترحيلهم على السفن التى تقلهم إلى ميناء جدة تمهيداً لبيعهم فى الأسواق، وكان يطلق على التاجر الذى يتعامل بتجارة الرقيق اسم الجلاب، وعادة ما يستقبل هؤلاء العبيد ذكوراً وأناثاً ومن بينهم أطفال تتراوح أعمارهم مابين أربعة وأربعة عشر عاماً فيقوم برعايتهم وبيعهم حيث يعملون كخدم فى البيوت(٦١).

ولم تكن تجارة مدينة جدة وميناؤها قاصرة على التجارة البحرية فقط، بل كانت هناك التجارة البرية التى يمارسها تجار جدة مع كافة المدن المحيطة بها مثل مكة المكرمة والمدينة المنورة والتى تحظى بعلاقات تجارية مع بقية مدن شبه الجزيرة العربية التجارية، وتعتمد التجارة البرية على طرق القوافل التجارية التى

لابد من توافر الأمن لضمان إنتعاشها وسلامتها.

وكانت تجارة جدة مع المدينة المنورة تتم عن طريق قافلة تجارية تتجه إلى المدينة المنورة مرة واحدة كل أربعين أو خمسين يوماً حاملة معها البضائع والعقاقير الهندية، وغالباً ما تكون هذه القوافل مصحوبة بعدد من الحجاج إلى المدينة المنورة لزيارة قبر الرسول، صلى الله عليه وسلم، وتتكون هذه القوافل من عدد من الإبل يتراوح عددها مابين ستين ومائة يقودها بدو عرب وتغادر مدينة جدة عن طريق بوابة المدينة المنورة، وهناك طريق آخر يتم عن طريقه التواصل التجارى بين جدة والمدينة المنورة عرف بطريق ينبع الاوسط، حيث كان يتم شحن البضائع من ميناء جدة إلى ميناء ينبع، ثم تحملها القوافل التجارية البرية إلى المدينة المنورة[٦٢].

أما التجارة البرية بين جدة ومكة المكرمة فتتم عن طريق القوافل التى تتجه مساء كل يوم من جدة إلى مكة المكرمة، أو على الأقل مرتين أسبوعيا . وكانت تلك القوافل تحمل المؤن والبضائع. وطوال الأشهر الأربعة التى كانت تسبق الحج، والتى كان يتزايد فيها وفود السفن على جدة حاملة معها الحجاج من أجل آداء فريضة الحج، كانت الحركة التجارية البرية بين جدة ومكة المكرمة تزداد . وكانت القوافل تخرج بصورة منتظمة من مكة فى طريقها إلى جدة من باب مكة مساء كل يوم، بعد غروب الشمس مباشرة، وكانت الرحلة بين جدة و مكة تقطعها الإبل المحملة فى ليلتين[٦٣]. وتبلغ أجرة الجمل الواحد للقيام بالرحلة من جدة إلى مكة مابين عشرين وخمسة وعشرين قرشاً، ومع اقتراب موسم الحج يرتفع سعر الجمل إلى ستين أو سبعين قرشاً، أما أجرة الحمار من جدة إلى مكة فكانت تبلغ حوالى عشرين قرشاً، وهذه الاسعار كانت عالية إذا ما قورنت بغيرها من الأسعار فى المناطق الأخرى[٦٤].

واردات وصادرات التجارة البحرية:

يرد إلى ميناء جدة كثير من البضائع التى تصرف فى أسواقه وسائر أسواق إقليم الحجاز وشبه الجزيرة العربية، منها البن اليمنى الذى يصل من المخا، والبن الهندى الذى يصل أيضاً من غرب الهند، وكذلك الزبد الذى يستورد من مصوع ودهلك والقصير، وزيت السمسم الذى يستخدم فى إنارة القناديل، والتمور(بكافة

أنواعها من الرطب والعجوة) والتى كان يتم استيرادها طوال العام من نواحى البصرة على متن السفن الفارسية، والتمر الهندى - الذى يعرف باسم الحُمر - ويجلب من الهند وأفريقيا، والجبن اليوناني، واللحم المجفف المقدد (البسطرمة) والذى يرد من آسيا الصغرى، والفواكه المجففة التى كانت تستورد من جزر اليونان، والمشمش الذى كان يستورد من دمشق، والحبوب بأنواعها كالقمح والشعير والفول والعدس والذرة والأرز التى تستورد من مصر، إلى جانب الأرز الهندى الذى يجلب من الهند بواسطة السفن من الجزيرات وكتش، والقطن المصرى والتبغ بانواعه المصرية والسورية، والتمباك، وخراطيم الشيش الفارسية التى تستورد من اليمن، والصابون الذى يجلب من سوريا عن طريق السويس، والعقاقير التى تجلب من جزر الهند الشرقية كالشموع والورق والسكر والعطور والبخور والهيل والقرنفل والفلفل الأحمر(٦٥). وكانت الجلود التى تستخدم فى صناعة الاحذية والنعل تستورد من مصر والحبشة، إلى جانب بعض الصناعات الهندية التى ترد من الهند، مثل أطقم الخزف، ورؤوس الشيش، والملاعق الخشبية، وحبات السبح المصنوعة من الزجاج، والمسابح المصنوعة من مادة الكالمباك التى تتميز برائحتها الطيبة، أو من خشب الصندل، والسكاكين والمرايا وأوراق اللعب والإبر التى تستخدم فى الخياطة والتطريز والمقصات والشقال (الخيوط) التى تستخدم فى الخياطة والمبارد والأوانى الفخارية المصنوعة من الخزف الصينى والتى تجلب عادة من الصين وحبات السبح التى ترد من البندقية، وكذلك العقيق الذى يستورد من بومباى فى الهند(٦٦).

كذلك كانت ترد إلى جدة كافة أنواع الملابس والسجاد التى تجلب من تركيا، إلى جانب العباءات الصوفية والملايات والمفارش المصنوعة من القطن أو الكتان، والقمصان المصبوغة باللون الأزرق والنعل والطواقى الحمراء والتى كانت ترد إلى ميناء جدة من مصر، كذلك الشيلان الكشميرية التى ترد من الهند، والأقمشة الفرنسية التى ترد من فرنسا(٦٧). كذلك كانت ترد الى جدة الأوانى النحاسية التى تستخدم فى الطبخ، وأوانى الوضوء والتى عادة ما كانت تجلب من مصر، إلى جانب بعض الأوانى الصينية التى يجلبها تجار الملايو (٦٨).

ومن الواردات البحرية التى كانت تصل إلى ميناء جدة أيضاً قرب الماء التى

كانت تستخدم لحفظ المياه، وعادة ما كانت تجلب من سواكن ومصر، وأفضل أنواعها كان يصل من سواكن إلى جانب العطور المركزة مثل العود وماء الورد الذى يأتى من مصر، والزّباد الذى يجلبه التجار الأحباش فى قرون الأبقار ويباع بأسعار غالية، حيث تبلغ قيمة الجرام الواحد منه أربعة قروش، إلى جانب العنبر الذى يقبل على شرائه الحجاج الهنود والفرس . وترد إلى ميناء جدة أيضاً غلايين التبغ التركية والفارسية والتى تستورد من بغداد والنارجيلات التى تستورد من اليمن والهند والعراق، إلى جانب الساعات التى تجلب من الهند واسطنبول[٦٩].

أما صادرات ميناء جدة فهى قليلة إذا ما قورنت بوارداته، وعادة ما كانت تصدر إلى سائر الموانئ التجارية التى كانت تأتى سفنها إلى جدة، ومن هذه الصادرات التمور بأنواعها، والتى تنتجها المناطق المحيطة بجدّة مثل وادى فاطمة وخليص وحدّة حيث تعبأ فى قفف صغيرة تزن حوالى عشرة أرطال وتحملها السفن الهندية عند عودتها إلى الهند بعد تفريغها لحمولتها فى ميناء جدة، إلى جانب الصابون الذى يستورد من سوريا ثم يعاد تصديره إلى موانئ البحر الأحمر، كذلك ما تنتجه المدن الحجازية من اللوز والزبيب وتصدره إلى جزر الهند الشرقية [٧٠]، ومن الصادرات أيضاً مسابح اليسر التى تشتهر مدينة جدة بصناعتها من المرجان الذى كان يستخرج من البحر ويتم تصنيعه بدقة، وهذا النوع من المسابح كان يصدر إلى الملايو[٧١].

والملاحظ أن صادرات جدة كانت من منتجات شبه الجزيرة العربية، وبخاصة الحجاز ومنها التمور التى تصل إليها من المزارع المحيطة بها، مثل مزارع وادى فاطمه وخليص وحدّة وتربة والمدينة المنورة، والتى عادة ما يستهلك قسم كبير منها بالأسواق نظراً لأن التمور تشكل أهمية كبيرة لأهالى جدة فى طعامهم[٧٢]، إلى جانب الجبن البلدى الذى يرد إليها من بعض المدن الحجازية حيث يقوم الأهالى بصناعته[٧٣]، كذلك ملح البحر الذى يجرى جمعه من الملاحات قرب مدينة جدة، وعادة ما تكون تجارته مقصورة على شريف مكة وحده[٧٤]، واللوز والزبيب الذى يرد من مدينة الطائف التى تشتهر بزراعته، ومن جبال الحجاز، والذى كان يجرى تصديره إلى الخارج، إلى جانب زر الورد الذى يجرى جلبه من بساتين الطائف ويستهلك فى أسواق جدة حيث يصنع منه شراب الورد[٧٥]، كذلك العسل بأنواعه

والذى يجلب من جبال الحجاز وأفضله ما كان يصل من جنوب الطائف[٧٦]. إلى جانب ذلك كان يرد إلى جدة الكثير من الخضراوات والفواكه التى تجلب إليها من المناطق الزراعية المحيطة بها، ومن الفواكه العنب والرمان والفرجل والخوخ والنارنج وهى من منتجات الطائف، والموز الذى يرد من المدينة المنورة، والجديدة، وخليص ،كذلك البطيخ الذى يرد من وادى فاطمة، إلى جانب الخضراوات مثل الملوخية والباميا والباذنجان الرومى والباذنجان العروس والخيار واللفت والبنجر والكرات[٧٧].

الأسواق والمنشآت التجارية:-

أرتبط بازدهار تجارة مدينة جدة وميناءها، انتشار وتنوع الأسواق التى تعد من أقدم أشكال النظم التجارية، والتى نشأت ونمت فى إطار احتياجات المجتمع، واجتذبت طلاب الرزق، وأصحاب رؤوس الأموال، ومن هذه الأسواق السوق الكبير الذى يقع على أحد الشوارع الرئيسية لمدينة جدة، ويعج بمستودعات البضائع والدكاكين الكبيرة والصغيرة التى تباع فيهاأفخر أنواع الأقمشة الصوفية والقطنية والنايلون والحريرية، المذهبة والمفضضة، هذا فضلا عن المكسرات والخبز والكماليات[٧٨].

ومن أشهر اسواق جدة كذلك سوق الجامع نسبة إلى المسجد الجامع المعروف بمسجد الشافعي، وسمى بهذا الاسم لقربه منه، وهو ملئ بشتى أنواع البضائع من ملابس وأوانٍ وكماليات وعطور، إلى جانب سوق الندى الذى يعد من أقدم أسواق جدة، وهو سوق مستطيل به بعض أحواش التجار وأنواع الأقمشة والأطعمة، وبه مصلحو الأحذية وصانعو السروج، إلى جانب سوق الخاسكية الذى كان مقراً لصيارفة جدة، ويوجد به باعة السمك المجفف والمسابح المصنوعة من الكهرمان واليسر . وإلى جانب هذه الأسواق كان يوجد سوق النبط الذى تباع فيه مسابح اليسر والسمك الطرى والتمر الصفرى والنقل وغيرها من المواد الغذائية، وبجواره سوق آخر يسمى سوق الحراج وهذا السوق يقام فى موسم الحج، ولذلك كان شديد الإزدحام لكثرة الحجاج الذى يفدون إليه لبيع البضائع التى يجلبونها معهم، ويوجد كذلك السوق الذى يعرف بسوق البدو الذى يقع بالقرب من باب مكة والذى يباع فيه الحطب والمواشى والأقمشة الخاصة بأبناء البادية وأبازيرهم ومصوغاتهم

ولوازمهم، إلى جانب سوق البرادعية والذى كانت تصنع وتباع فيه برادع الحمير والبغال وسروج الخيل والشقادف[٧٩]. ومن الأسواق المشهورة فى جدة أيضاً سوق العبيد(الرقيق) الذى كانت تتم فيه عملية شراء وبيع الرقيق الذين يجلبون إلى مدينة جدة من الموانئ الأفريقية ويعرضون فيه على المشترين الذين يقومون بفحصهم للتعرف على مقدرتهم الصحية والجسمانية وصلاحيتهم للعمل حيث إن مهمتهم الأساسية هى الخدمة فى منازل الأغنياء[٨٠].

وقد امتازت أسواق جدة بكثرة دكاكينها المرتبة والمنظمة التى تعرض فيها البضائع على شكل مجموعات وهذه الدكاكين مغطاة ومظللة بحصائر من القش لحفظ البضائع من الشمس، ويقوم التجار بتخصيص مساحة محدودة لأنفسهم مغطاة بالبساط أو السجادة لاتخاذها مكاناً لجلوسهم، وتدخين النارجيلات (الشيش) ومضغ اللوز[٨١].

وترتفع الدكاكين قليلاً عن سطح الأرض لبضعة أقدام، ولها مصطبة من الحجر بارزة فى الشارع، ومحمية من أشعة الشمس بواسطة مظلة مصنوعة من الحصر، ليقف تحتها المشترون. ويتراوح عرض الدكان مابين ستة أقدام وسبعة أقدام، أما طوله فكان يتراوح مابين عشرة أقدام واثنى عشر قدماً، وكان يلحق بكل دكان غرفة خلفية تستخدم عادة كمخزن للبضائع والراحة[٨٢].

وتتنوع هذه الدكاكين من حيث أعدادها وبضائعها، فقد وجد فى جدة أحد عشر دكاناً لبيع الزبد والعسل والزيت والخل، وهى من السلع الرئيسية لأهل جدة وبخاصة الزبد(السمن) بعد أن درجوا على تناول فنجان من السمن كل صباح قبل تناول القهوة، ويقوم أبناء الطبقة الدنيا منهم بدهن أجسامهم به من أجل ترطيبها وحمايتها من أشعة الشمس الحارقة، أما العسل فهو من النوع الحجازى الذى يجلب من المدن الحجازية القريبة من جدة، ويعتبر غذاءً رئيسياً لأهل جدة وبخاصة فى وجبة الأفطار حيث يتناول مع الخبز الطازج، أما الزيوت فيقبل الأهالى على شرائها لاستخدامها فى إضاءة القناديل وقلى السمك ومن أهمها زيت السمسم[٨٣].

كما يوجد أحد عشر دكاناً لبيع الملابس الجاهزة، والتى كانت تأتى فى معظمها من تركيا، وكان يزداد الإقبال على هذه المحلات فى مواسم الحج لشراء ملابس الإحرام، وفى هذه الدكاكين كان يجرى بيع جميع أنواع المنتوجات المصرية

مثل الملاءات وأقمشة القطن والكتان التى تصنع منها القمصان،كذلك يبــاع فيهــا النعال الصفراء (البلغ) التى يلبسها التجار والسيدات، إلى جانب الطواقى الحمــراء والشيلان الكشميريه وشيلان الموسيلين(٨٤).

وهناك أيضا أحد عشر دكانا لبيع الحبوب مثل القمح والذرة والفول والعــدس والأرز المصري، والأرز الهندي، والبسكويت، والدقيق، وكــان ســعر الحبــوب يتراوح مابين مائة وثلاثين قرشاً ومائة وستين قرشاً للإردب الواحد، وكان التجار يبيعون فى هذه الدكاكين إلى جانب الحبوب الملح(٨٥).

كذلك وجد بجدة ثمانية عشر دكاناً لبيع العقاقير التى كانت تــستورد مــن الهند وجزر الهند الشرقية، كالشموع والورق والسكر والعطور والبخور والتوابل، والتى كان يزداد إقبال أهالى جدة على شرائها ظناً منهم، أنها الأجود على الإطلاق. ويباع أيضاً فى هذه الدكاكين زر الورد الذى يجلب من الطائف. (٨٦)

كذلك كان هناك اثنا عشر دكاناً لبيع بعض السلع المصنوعة فى الهند مثــل أطقم الخزف ورؤوس الشيش والملاعق الخشبية وحبات السبح الزجاجية والسكاكين والمرايا وأوراق اللعب وأدوات الخياطة والأوانى الفخارية، وهذه الدكاكين كانــت مملوكة لهنود انحدروا فى غالبيهم من بومباي(٨٧).

كما يوجد ست دكاكين هندية لبيع الأقمشة الفرنسية والشيلان الكشميرية، وهى مملوكة لكبار التجار الهنود ويبيع فيها وكلاؤهم(٨٨).

أيضاً يوجد واحد وثلاثون دكاناً لبيع التبغ بشتى أنواعه المصرى والسوري، والتمباك الذى يستخدم فى الغلايين الفارسية، وتباع فى هذه المحلات أيضاً رؤوس الشيش (النارجيلات) وخراطيمها والتى يزداد الإقبال على شرائها بــشكل كبيــر؛ وذلك لاستخدامها فى المقاهى من قبل مرتاديها، أو فى المنازل حيث عــرف عــن أهل جدة ولعهم بتدخين النارجيلة (الشيشة) الفارسية التى تباع فى هذه المحــلات بأنواعها المختلفة (القدرة : وهى أكبر الأنواع وتستخدم فى المنــازل والبيوتــات الخاصه، والشيشة : وهى أصغر حجماً من القدرة، ثم البورى : وهى الغليون الذى يستخدمه أفراد الطبقة الدنيا والبحارة). وإلى جانب هذه السلع كان يباع قشر الــبن والصابون واللوز والزبيب وبعض سلع البقالة الأخرى(٨٩).

كما توجد فى أسواق مدينة جدة خمسة دكاكين لبيع النعل وإصــلاحها، إلــى

جانب ثلاثة دكاكين لبيع قرب الماء وإصلاحها، وثلاثة دكاكين متخصصة فى بيع العطور المركزة كالزباد والعنبر والعود والبلسم وماء الورد(٩٠).

وهناك أربعة محلات للخياطة يعمل فيها أجانب فى الغالب، يقومون بخياطة الملابس وتطريزها، وكانوا يعملون تحت سلطة ترزى البلاد الذى يعمل عند طوسون باشا، وهو مسيحي. وكثيراً ما كان هؤلاء الخياطون يشتكون من استبداده(٩١). وإلى جانبهم توجد أربعة دكاكين للحلاقين الذين يمارسون الجراحة والطبابة وتركيب الأدوية، إلى جانب مهنتهم الأصلية وهى قص الشعر وتهذيب اللحى والشوارب، وعادة ما تكون هذه الدكاكين مكانا يلجأ إليه بعض الناس لتسلية أنفسهم بالحوارات والمناقشات وتصيد الأخبار(٩٢).

كذلك انتشرت فى أسواق جدة دكاكين الصيارفة، حيث تم رصد سبعة دكاكين تخصصت فى العمل بالصيرفة، وكان يجلس أصحابها فوق مقاعد بعرض الشارع وأمامهم صندوق يحتوى على النقود، ومعظمهم من أهل جدة الذين عملوا فى هذه المهنة المربحة بعد أن طرد الشريف سرور الصيارفة اليهود من الحجاز نظراً لسوء معاملاتهم المالية . وإلى جانب ذلك توجد دكاكين لخراطة الأنابيب وصنع الخرز، ودكان واحد لبيع الساعات كان يمتلكه شخص تركى الأصل، ودكان واحد لبيع غلايين التبغ التركية والفارسية(٩٣).

وإلى جانب هذه الدكاكين التى تقوم ببيع كافة البضائع التى ترد إلى ميناء جدة كانت توجد محلات لبيع الخضراوات والفواكه والأطعمة، حيث وجد ثمانية عشر محلاً لبيع الفواكة والخضراوات الطازجة، زاد عددها مع قدوم الجيوش المصرية إلى الحجاز بسبب إقبال الجنود على شراء الفاكهة، بالإضافة إلى ثمانية دكاكين لبيع التمور وهى من السلع المربحة التى يقبل عليها أهل جدة بمختلف فئاتهم الاجتماعية(٩٤). ومن محلات الأطعمة خمسة دكاكين لبيع الفول فى الصباح والذى يعد وجبة الإفطار لأهل جدة، وأربعة دكاكين لبيع الحلويات والفواكه المسكرة والبقلاوة والكنافة والغريبة، ومحلان لبيع الكباب واللحم المشوي، إلى جانب دكانين لبيع الحساء، ومن أشهره حساء لحم الرأس والمقادم، وهناك محلان لبيع السمك المقلي، ومن عشر طاولات إلى اثنتى عشرة طاولة لبيع الخبز الذى كان يباع بواسطة النساء، ومحلان لبيع الحليب واللبن الرائب، إلى جانب دكانين لبيع الجبن

اليونانى واللحم المقدد والتفاح المجفف والتين والزبيب والمشمش المجفف الذى يسمى قمر الدين، واللحم المملح (البسطرمة) الذى يقبل عليه الأجانب دون أهل جدة، ويعود هذان الدكانان إلى تاجرين تركيين[٩٥].

وإلى جانب هذه الدكاكين كان يوجد بعض المنشآت التجارية الأخرى مثل الخانات والوكالات التى يسكنها التجار، ويجدون فيها مستودعاً لأمتعتهم وبضائعهم، وتتميز هذه الخانات بكونها واسعة ومؤثثة بالاثاث الجيد، وكان فى جدة عشر وكالات مليئة بالتجار الغرباء ومختلف أنواع البضائع والسلع، وكانت تلك الوكالات ملكا للشريف غالب، الذى كان يقوم بتأجيرها، ثم انتقلت ملكيتها إلى محمد على باشا بعد سيطرته على الحجاز[٩٦].

الأسطول التجاري:-

ارتبط النشاط التجارى وازدهاره فى ميناء جدة بوجود أسطول تجارى ضخم، تنوعت سفنه ما بين سفن كبيرة واخرى صغيرة، فمنها سفن اقتصرت حركتها على موانئ البحر الأحمر، ومنها سفن امتد نشاطها إلى الموانئ الواقعة خارجه، وكان يوجد مايقرب من مائتين وخمسين سفينة تجارية حملت أسماء أصحابها، وقامت برحلات تجارية طويلة إلى الهند، أما ملاحوها فكانوا من أبناء جدة واليمن وساحل الصومال، وبعضهم من الرقيق ممن كانوا يتقنون فن الملاحة والبحر .وكان يوجد على ظهر كل سفينة ثلاثة أو أربعة ملاحين، ويحصل طاقم السفينة على مبلغ معين مقابل كل رحلة إلى الهند، وفى نفس الوقت كان كل بحار بدوره تاجراً يعمل لحسابه الخاص[٩٧]. وهناك أنواع متعددة من السفن التجارية منها مايعرف باسم السّاي، والسيوم، والمركب، والسمبوك، والدهو وهو أكبر أنواع هذه السفن وهو الذى يقوم بالرحلات إلى الهند[٩٨]. ولم تكن بمدينة جدة فى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى / التاسع عشر الميلادى ترسانة لبناء السفن التجارية وترميمها، ويرجع ذلك إلى ندرة الأخشاب الصالحة لصناعة السفن، وعدم وجود العمال المهرة، ولذلك كان ميناء السويس هو الميناء الوحيد على البحر الأحمر الذى تتم فيه صناعة السفن وترميمها وإصلاحها، وكانت تجلب إليه الأخشاب برا من القاهرة بعد وصولها من آسيا الصغرى، وكان يجرى أيضاً شراء السفن من بومباى ومسقط[٩٩].

ونتيجة لازدهار التجارة فى ميناء جدة ورواجها وخصوصاً بعد الاهتمام الذى

أولاه إياه محمد على باشا بعد سيطرته على الحجاز، فقد بدأت فى جدة صناعة السفن التجارية ومتطلباتها من الصوارى والعوارض الشراعية وحبال الأشرعة والبراميل الخشبية التى تستخدم لتخزين مياه الشرب النقية على أسطح المراكب التجارية، وبناء القوارب الشرعية، ومراكب الصيد، وطلاء السفن بالزفت وتلوينها(١٠٠). رغم تراجع عدد السفن التجارية فى ميناء جدة بسبب استيلاء محمد على باشا على جدة، وإجبار أصحابها على نقل المؤن والذخيرة من مصر إلى الموانئ الحجازية إبان حملاته العسكرية على شبه الجزيرة العربية(١٠١).

وقد كانت السفن التجارية ترد لميناء جدة محملة بالبضائع المختلفة من كلكتا فى الهند، والبصرة فى العراق، وأندونيسيا والملايو، وموانئ البحر الأحمر كالسويس وسواكن ومصوع واليمن، وكان تجار جدة يقومون بتوزيع تجارتهم على المراكب توزيعاً يجنبهم الخسائر الفادحة إذا ما قدر لبعض هذه المراكب الغرق فى عرض المحيط الهندى أو البحر الأحمر، وبشكل يبرهن على براعة وحذق تجار جدة(١٠٢). وكانت السفن التجارية التى ترسو فى ميناء جدة تدفع رسوماً إلى السلطة الحاكمة، حيث كان يتولى تحصيلها ضابط يلقب بأمير البحر، ويعمل رئيساً للميناء، ومن مهامه أيضاً مراقبة الحركة التجارية فى الميناء، والعمل على ضبط الأمن وسط البحارة والحمالين الذين يعملون فى الميناء؛ ومن هؤلاء السيد على أوجغلى الذى عينه محمد على باشا رئيساً للميناء(١٠٣).

وكانت الرسوم الجمركية التى يتم تحصيلها من ميناء جدة تقسم بالتساوى بين الباشا حاكم جدة وشريف مكة، وكثيراً ماكان يحدث صراع بين الولاة العثمانيين والأشراف على هذه الرسوم، وظل الأمر كذلك إلى عهد الشريف غالب بن مساعد الذى لم يكتف بضم جدة إليه، بل سيطر على متحصلات الرسوم الجمركية لحسابه الخاص حيث كانت تشكل الدخل الرئيسى له، وبعد أن بسط محمد على باشا سيطرته على الحجاز حدث نزاع بين الباشا والشريف غالب حول هذه الرسوم التى كان قد تقرر تقسيمها بينهما، إلا أن محمد على باشا تمكن من الإستحواذ على إيرادات الجمارك كلها لحسابه الخاص بعد أن القى القبض على الشريف غالب ونفاه إلى القاهرة، وأوكل إلى قائد جدة العسكرى أمر تحصيل هذه الرسوم وتنظيمها رسمياً والإشراف عليها، وكذلك مسؤولية خزانة الباشا(١٠٤).

ويطلق على هذه الرسوم الجمركية اسم (العشور) وهى تعادل عشرة فى المائة من قيمة البضائع المستوردة بكل أنواعها، وكانت هذه النسبة تزاد فى بعض الأحيان على بعض السلع وتقل على سلع أخرى؛ ففى أواخر حكم الشريف غالب كان مقدار الرسوم الجمركية على قنطار البن خمس دولارات، وهذا يعادل ما بين ١٥% و ٢٠ % من ثمن القنطار، أما التوابل فكانت تدفع رسوماً تقل عن ١٠%، والبضائع الهندية كانت تدفع رسوماً أكثر من ذلك، وهذا يعنى أن هناك تباينا كبيرا فى الرسوم الجمركية حسب نوعية البضائع ومصدرها، ويلعب مسؤول الجمارك دوراً كبيراً فى هذا التباين عند محاباة أصدقائه ومعارفه من التجار فى تحصيل الرسوم(١٠٥).

وعن حركة السفن فى الميناء فإنه نتيجة لمياهه الضحلة، وكثرة صخوره فإن السفن كانت تلقى بمراسيها بعيداً عن الرصيف، ويتم تفريغ حمولتها من قبل الحمالين على مراكب صغيرة تعرف باسم السنبوك لنقلها إلى الميناء، وعادة ما كانت السفن الكبيرة ترسو على بعد ثلاثة أميال من الميناء، أما السفن الصغيرة التى يكون نشاطها مقصوراً على موانئ البحر الأحمر فترسو على بعد ميل واحد من الميناء(١٠٦).

المعاملات التجارية:-

كانت المعاملات التجارية فى ميناء جدة أبسط بكثير من مثيلاتها فى الموانئ الأوروبية وغيرها نظراً لأن تجار جدة يستخدمون رأسمالهم الخاص، كما أن مسألة العمولات قليلة جداً، ولم تكن المعاملات البنكية والحوالات المالية معروفة لدى تجار جدة، كما أنهم لم يهتموا بتدوين معاملاتهم المالية فى سجلات مالية، ويرون أن هذا أمر غير ضرورى . ويقوم التاجر بتقدير ثروته تقديراً تقريبياً، ويندر أن يدخل تجار جدة فى مضاربات مالية خطيرة، وتقتصر تعاملاتهم على حدود رأسمالهم، ولا يمكنهم الحصول على إئتمانات كبيرة إلا بصعوبة، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن أمور التجار المالية واضحة، وتكاد تكون معروفة بين الناس، وكانت العلاقة بين تجار جدة علاقة ودية يسودها طابع التعاون والألفة فيما بينهم، فعندما يصاب التاجر بخسارة مالية نتيجة لصفقة غير مربحة أو خسائر مادية فإن دائنيه يخففون من الضغط عليه ومطالبته بالسداد، ويجرى سداد ديونه بعد سنوات بما

يحول بينه وبين النتائج المترتبة على الإفلاس(١٠٧).

وتتم العمليات التجارية بواسطة الاستخدام النقدى الذى كان شائعاً فى الحجاز، وينقسم النقد المستعمل فى ميناء جدة إلى قسمين : القسم الأول ويشمل النقود العثمانية الرسمية بحكم السيطرة العثمانية على إقليم الحجاز، والثاني: ويشمل النقود غير العثمانية أى تلك النقود التى تستعمل على نطاق شعبى من قبل سكان جدة، وقد اكتسبت هذه النقود غير الرسمية صفة شبه الرسمية حين اعترفت ببعضها الدولة العثمانية، فتعاملت بها وعادلت قيمتها بالنسبة لقيمة النقد العثمانى الرسمى المستخدم فى الحجاز.

ومن النقود العثمانية المستخدمة الليرة العثمانية الذهبية وتتألف من مائة قرش ذهبى عثمانى وهى تساوى ثمانية عشر شلناً إنجليزياً، وتختلف قيمتها من فترة إلى أخرى، ويعود هذا إلى عدم استقرار النقد العالمى، فقد بلغت فى بعض الأوقات مائة وعشرة قروش، ومائة وتسعة وأربعين قرشاً(١٠٨).

ومن العملات العثمانية أيضاً القرش العثمانى الذهبى ويساوى واحداً من مائة من الليرة العثمانية الذهبية و(٠,١٨) من الشلن الإنجليزى إذا ما عودلت الليرة الذهبية العثمانية بالجنية الانجليزى الذهبى فى ذلك الوقت(١٠٩). وقد استخدمت أيضاً البارة(١١٠) العثمانية وهى أصغر وحدات الليرة وتساوى (٠,١) من القرش و(٠,٠٠١) من الليرة، وهى ضرورية فى المعاملات النقدية الرسمية لأنها تشكل وحدة نقد أصغر من القرش(١١١) ويسميها الناس فى جدة بالديواني(١١٢)، إلى جانب المشخص(١١٣).

أما النقود غير العثمانية فهى متعددة مثل النقود المصرية التى ظهرت بعد مجئ محمد على باشا إلى الأراضى الحجازية حيث فرض التداول بالعملة المصرية حتى أصبحت عملة القاهرة الفضية فى المرتبة الثانية بعد الدولار الأسبانى الذى كان مستخدما، ولعل هذا ما يفسرانتشار تداول الجنيه المصري(١١٤). كذلك ازداد تداول ريال مارياتريزا بأسواق جدة، والذى كان يسمى بدولار ماريا تريزا أو مايسمى بالريال الفرنساوى، وهو مسكوك من الفضة ويساوى ٣ قروش عثمانية(١١٥). ومن العملات الأجنبية أيضاً السكوين البندقى وهو نقد إيطالى ذهبى قديم، والروبية الهندية التى لم تكن رائجة فى أسواق جدة بدرجة كبيرة(١١٦)، إلى

جانب الجنيه الإنجليزى وهو عملة ذهبية ذات قيمة نقدية رسمية معترف بها، ومن بين النقود التى كانت تحافظ على قيمتها خاصة فى معادلتها بأسعار النقود الأخرى الليرة العثمانية(١١٧). ومن العملات المعروفة أيضاً بين تجار جدة الدولار الإسبانى الذى كانت تتراوح قيمته مابين ثمانية قروش واثنى عشر قرشاً(١١٨).

ومن أشكال التعاملات التجارية أيضاً استخدام الموازين والمكاييل فى عمليات البيع والشراء فى أسواق جدة، وقد اختلفت وحدة هذه المكاييل والموازين من سلعة إلى أخرى باختلاف نوعية السلعة من حيث الصلابة والسيولة، فمن وحدات الوزن الرطل والذى كان يساوى ١٢ أوقية، والأوقية تساوي٥,١كجم(١١٩) ، وكانت تستخدم لزنة البن واللحوم والزبدة والحليب والزبيب والتمر والسكر والتبغ والتنبـاك(١٢٠)، وكذلك الأقة ووزنها ١٢٥جم(١٢١) ، وكانت تستخدم أيضاً فى وزن السلع الـصلبة والسائلة وكذلك الملح، إلى جانب الإردب الذى كان يـستخدم فـى وزن الغـلال والحبوب، ومن الموازين أيضاً الجرام والمثقال الذى توزن به العطور(١٢٢).

أما المكاييل المستخدمة فهى مثل الكيلة التـى تـستخدم فـى كيـل الغـلال والحبوب، والكيلة الجداوية وتساوى ٣ أوقيات(١٢٣)، إلى جانب الوزنـة ومقـدارها مائة ثقل وتقاس بها أنواع السلع المختلفة من سائلة وصلبة(١٢٤).

الخاتمة:-

من هذا العرض نخلص إلى القول بأن ميناء جدة تمتع بنشاط تجارى زاهـر خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادى سـاعد على ذلك ماحظى به من موقع جغرافى متميز على ساحل البحر الأحمـر جعلـه يتفوق على سائر موانئ البحر الأحمر المنتشرة على ساحله الشرقى والغربي، إلى جانب الأهمية الدينية التى كان يتمتع بها فهو بوابة الحـرمين الـشريفين – مكـة المكرمة والمدينة المنورة– وعن طريقه يصل الحجاج المسلمون من شتى أقطـار العالم الإسلامى وينزلون به مما يزيده أهمية تجارية طوال موسم الحج .

وقد توافرت عدة عوامل ساعدت على قيام نشاط تجارى متعدد الأنواع بجدة، منها توافر طرق المواصلات البرية والبحرية التى تربط الميناء بالأقاليم الداخليـة فى شبة الجزيرة العربية ومراكز التجارة فى آسيا والمحيط الهندي، كذلك التنـوع السكانى بعد أن سكنه الكثير من العرب من اليمن وحضرموت ومـصر وسـوريا

وبلاد المغرب، وكذلك الأجانب مثل الأتراك والهنود والأحباش، وهـؤلاء جميعـاً تربطهم علاقات تجارية ببلدانهم الاصلية بشكل انعكس على واقع التجارة فى ميناء جدة، وأدى إلى تنوع التجارة مابين خارجية وداخلية، وإلى تعدد الأسواق، وكثـرة الدكاكين الزاخرة بحركة البيع والشراء لكثير من السلع المحلية وغيـر المحليـة، والتى كان تجار جدة يهتمون بالحصول عليها من المناطق والبلدان القريبة كمصر واليمن، والبعيدة كالهند والملايو وأندونيسيا وأوروبا وتحملها أسـاطيلهم وسـفنهم التجارية.

ومما ساعد ايضاً على ازدهار تجارة ميناء جدة سهولة المعاملات التجاريـة وبساطتها والعلاقات الجيدة بين التجار .

الهوامش :

(١) الكلبى " أبو المنذر هشام بن محمد السائب " : كتاب الأصنام، تحقيق أحمد زكى باشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٣هـ / ١٩٢٤م، ص٥٢.

(٢) أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري، الأخبار الطوال، تحقيق عبدالمنعم عامر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة (د.ت) ص٢٤.

(٣) عبدالقدوس الانصاري، موسوعة تاريخ مدينة جدة، جـ١، دار مصر للطباعة، القاهرة،ط٢، ١٤٠١هـ / ١٩٨٠م، ص ٦٩.

(٤) عبدالقادر بن أحمد بن فرج الشافعي، السلاح والعدة فى تاريخ بندر جدة- تحقيق: محمد عيسى صوالحة، بيروت، ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م، ص٤٤؛ وابن المجاور، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، المسماة تاريخ المستبصر، صححه وضبطه أوسكر لونفرين ، مطبعه بريل ، ليدين ، ١٣٧١هـ / ١٩٥١م .ص٤٢.

(٥) الاصطخري، مسالك الممالك، دار صادر، بيروت ،د.ت،ص١٩.

(٦) الحميري، الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق د.إحسان عباس، سكنية لتبان، بيروت، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، ص ١٥٧؛ وابن بطوطة، تحفة الأنظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار صادر، بيروت، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م، ص ٢٤٣.

(٧) عبد القادر بن أحمد فرج الشافعي، المصدر السابق، ص ٤٥.

(٨) ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري، عبدالحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابى الحلبى القاهرة، ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م، جـ١، ص٢٠٥.

(٩) أحمد بن محمد بن أحمد الحضراوي، الجواهر المعدة فى فضائل جدة ، مخطوط بمكتبة الحرم المكى الشريف، رقم ٣٧ دهلوي، ورقة٣٦.

(١٠) الطوسي، رسالة المرام فى أحوال بيت الله الحرام، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ١٢٣٨م، تاريخ تيمور، ورقة ٥٢.

(١١) جميل حرب محمود، الحجاز واليمن فى العصر الأموي، جدة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ص ١٥٦.

(١٢) إبراهيم بك حليم، تاريخ الدولة العثمانية العلية، جـ١، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م، ص١١٦؛ عبدالقدوس الأنصارى، المرجع السابق،جـ١، ص ٣٠٠.

(١٣) عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، الدولة السعودية الأولى، ط٢، القاهرة ، معهد البحوث والدراسات العربية،١٩٧٦م،ص١٤٧.

(١٤) دار الوثائق القومية المصرية ، القاهرة، وثيقة رقم ٨١ ، محفظة ٣، بحر برا، من طوسون إلى محمد على باشا ، ١٢ محرم سنة١٢٢٨هـ/١٥ يناير١٨١٣م..

(١٥) نفس المصدر ، الوثيقة رقم ١٢ أصلية، ٢١ حمراء ، المحفظة ٢٦٩ عابدين ، من أحمد شكرى إلى صاحب الدولة ٥ ربيع الأول ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م.

(١٦) نفس المصدر ، وثيقة ٣٥ حمراء ، محفظة ٢٦٩ عابدين ، من أحمد شكرى عسكر الحجاز إلى الجناب العالي، تاريخ ٧محرم سنة ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م ؛ نفس المصدر ،

وثيقة٧٠أصلية، ٤٥حمراء، محفظة ٢٦٩عابدين ، من الشريف محمد بن عون إلى باشمعاون الخديوى ، ١١ رمضان، ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م.

(١٧) المقدسي، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، القاهرة، مكتبة مدبولي،١٤١١هـ / ١٩٩١م، ص٧٩.

(١٨) القلقشندي، صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ، وزارة الثقافة والارشاد القومى ، القاهرة، المؤسسة المصرية للكتاب والترجمة والطباعة والنشر،د.ت، جـ٤، ص٢٥٨.

(١٩) الحميري، المرجع السابق، ص١٥٧.

(٢٠) محمد لبيب البتنونى ، الرحلة الحجازية ، الطائف، مكتبة المعارف، ط٣،د.ت، ص ٥٠.

(٢١) عبدالقدوس الأنصاري، المرجع السابق، ص١٤.

(٢٢) على حسين السلمان، النشاط التجارى فى شبه الجزيرة العربية، القاهرة، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م، ص١١٠.

(٢٣) عبد الفتاح أبو علية، تاريخ الدولة السعودية الثانية، الرياض، دار المريخ للنشر، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ص٢٩٤.

(٢٤) شرف بن عبدالمحسن البركاتي، الرحلة اليمانية، دمشق ، المكتب الاسلامى للطباعة والنشر، د.:ت،ص١٣٥.

(٢٥) فاروق عثمان أباظة، أثر تحول التجارة إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن التاسع عشر، كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية مطبعة الأنصار، ١٩٨٨م، ص٢١ ؛ وسمير عطا الله ، قافلة الخير، ط٢، بيروت، دار الساقي، ١٩٩٨،ص١٦٣.

(٢٦) محمد لبيب البتنونى ، المرجع السابق، ص٣٢؛ وجون بوركهارت، ترحال فى الجزيرة العربية ، جـ٢ ، ترجمة ، صبرى محمد حسن ، ط١، القاهرة المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٧، ص٢٥٢-٢٥٣.

(٢٧) جون بور كهارت، المرجع السابق،جـ١، ص٢٣٥.

(٢٨) نفسه، ص٣١.

(٢٩) أحمد محمد الحضراوي، المرجع السابق، ورقة ٤٨.

(٣٠) أحمد السباعي، تاريخ مكة،جـ١،ط٦، مكة المكرمة، نادى مكة الثقافي، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، ص،ص٤٩٠، ٥٠٣ .

(٣١) سعد زغلول عبد ربه، البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م،ص٢١٠.

(٣٢) موريس تاميزيه، رحلة فى بلاد العرب(الحجاز) ترجمة الدكتور محمد بن عبدالله آل زلفه، الرياض، دار بلاد العرب، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م، ص٨١.

(٣٣) جون بوركهارت، المرجع السابق،جـ١،ص٣١.

(٣٤) موريس تاميزيه ، المرجع السابق، ص ص٨١-٨٢.

(٣٥) جون بوركهارت، المرجع السابق،جـ١،ص٣١.

(٣٦) دار الوثائق القومية المصرية ، القاهرة، وثيقة٣٤٩، دفتر رقم٢٢، عابدين ، من الحكومة المصرية إلى والى الحجاز، بتاريخ ١٥ من رمضان ١٢٨٢هـ.

(٣٧) جون بوركهارت، المرجع السابق، جـ١، ص٣٢ ؛ وموريس تاميزية ، المرجع السابق،ص٨٠.
(٣٨) شارل ديديه ، رحلة إلى رحاب الشريف الاكبر شريف مكة المكرمة ، ترجمة وتعليق محمد خير البقاعي، بيروت، دارالفيصل الثقافية، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م، الطبعة الأولى، ص١٣٨.
(٣٩) نفسه، ص١٣٨.
(٤٠) جون بوركهارت، المرجع السابق، جـ١،ص٣٢.
(٤١) فاطمة الحمدان ، دراسة أيكولوجية على متغيرات النمو السكانى بمدينة جدة ، جدة ، دار القمع للنشر والتوزيع ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م، ص٦١.
(٤٢) جون يوركهارت، المرجع السابق، جـ١، ص٣٧.
(٤٣) موريس تاميزيه، المرجع السابق ، ص٩٦.
(٤٤) شارل ديديه ، المرجع السابق، ص١٣٨.
(٤٥) جون بوركهارت، المرجع السابق، جـ١،ص٣٨-٣٩.
(٤٦) نفسه، ص٢٦٩.
(٤٧) موريس تاميزيه، المرجع السابق، ص-ص١٣٨-١٤١؛ وجون بوركهارت،جـ٢،ص-ص٢٢-٢٣.
(٤٨) جون بوركهات، المرجع السابق، جـ١، ص٣٨، موريس تاميزيه، المرجع السابق، ص١١٣، وشارل ديديه، المرجع السابق،ص-ص١٤١-١٤٢.
(٤٩) جون بوركهات، المرجع السابق، جـ١، ص٣٩.
(٥٠) نفسه.
(٥١) جون بوركهارت، المرجع السابق، ص٤٠ ؛ دار الوثائق القومية المصرية ، القاهرة محفظة رقم (١) ذرات وبقية رقم ٧٧ . رسالة من محمد على باشا إلى مأمور أمور التجارة حول نظام الجمارك ، بتاريخ٢٣صفر ١٢٣٣هـ / ٢ يناير ١٨١٨م.
(٥٢) جون بوركهات، المرجع السابق، جـ١،ص٤١.
(٥٣) نفسه .
(٥٤) نفسه، ص٧٧.
(٥٥) عبدالرحمن الجبرتي، تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، جـ٣، ط٢، بيروت، دار الجبيل، ١٩٧٨م، ص٣٣١؛ وجون بوركهارت، المرجع السابق، جـ١، ص٤٦.
(٥٦) دار الوثائق القومية المصرية ، القاهرة، وثيقة حمراء رقم٣١٥، محفظة رقم ٢٦٢ عابدين، من إبراهيم توفيق باشا بالحديدة إلى الجناب العالي، بتاريخ ٥ ذى الحجة ١٢٥٣هـ ؛ ووثيقة رقم٧٧ محفظة رقم(١) ذوات، من الجناب العالى إلى رستم أفندى مأمور أمور التجارة، فى ٢٣صفر١٢٣٣هـ / ٢ يناير١٨١٨م.
(٥٧) جون بوركهارت، المرجع السابق،جـ١، ص-ص ٤١-٤٢.
(٥٨) نفسه، ص٤٢.
(٥٩) نفسه، ص ٤٣-٤٦.
(٦٠) نفسه، ص٣٩.

(٦١) لويس تاميزيه ، المرجع السابق، ص-ص١٣٨-١٣٩.
(٦٢) جون بوركهارت، المرجع السابق ،جـ١، ص-ص ٤٨-٤٩.
(٦٣) نفسه ،جـ١، ص ٤٩.
وحدّة: بفتح الحاء وتشديد الدال، ممدود قرية تقع بين الحديبية وبحرة على الطريق بين مكة وجدة،
أنظر، عائق بين غيث البلادي، معالم مكة التاريخية والأثرية، ط١، مكة، دار مكة للنشر،١٤٠٠هـ ، ١٩٨٠م، ص٨١.
(٦٤) جون بوركهارت، المرجع السابق، جـ١، ص ٤٩.
(٦٥) نفسه ،جـ١، ص-ص ٥٢-٥٨.
(٦٦) نفسه، ص-ص ٥٨-٦٣.
(٦٧) جون بوركهارت، المرجع السابق، جـ١،ص٦٤.
(٦٨) نفسه، ص٦٧.
(٦٩) نفسه، ص-ص ٦٨-٦٩.
(٧٠) نفسه، ص،ص٥٥ ، ٦١.
(٧١) جون بوركهارت، المرجع السابق، جـ١،ص٦٣.
(٧٢) نفسه، ص ٥٥.
(٧٣) نفسه، ص٥٧.
(٧٤) لويس تاميزيه، المرجع السابق ، ص ٨١؛ وجون بوركهارت، المرجع السابق،جـ١، ص ٦٠.
(٧٥) جون بوركهارت، المرجع السابق،جـ١، ص-ص ٦١ - ٦٢.
(٧٦) نفسه، ص٥٣.
(٧٧) جون بوركهارت، المرجع السابق،جـ١، ص ٥٤؛ ولويس تاميزيه ، المرجع السابق، ص ١٣٦.
(٧٨) لويس تاميزيه، المرجع السابق، ص٨٥؛ وعبدالقدوس الأنصاري، المرجع السابق،جـ١، ص٥٧٨.
(٧٩) أحمد الحضراوي، المرجع السابق، ورقة٢٤ - ٢٦ ؛ عبدالقدوس الأنصاري، المرجع السابق،جـ١، ص - ص ٥٧٧ -٥٧٩ ؛ محمد على مغربي، ملامح الحياة الاجتماعية فى الحجاز من القرن الرابع عشر للهجرة، جـ٣، جدة، دار تهامة ، د.ت، ص١٧٢.
(٨٠) لويس تاميزيه، المرجع السابق، ص٨٧.
(٨١) نفسه، ص-ص ٨٥ - ٨٦.
(٨٢) جون بوركهارت، المرجع السابق،جـ١، ص٥٠.
(٨٣) نفسه، ص ٥٢ - ٥٣.
(٨٤) نفسه، ص ٦٤.
(٨٥) جون بوركهارت، المرجع السابق ، جـ١، ص، ص ٥٨ ، ٦٠ .
(٨٦) نفسه، ص ٦١ - ٦٢.
(٨٧) نفسه، ص ٦٢ - ٦٣ .

(٨٨) نفسه، ص ٦٤ .
(٨٩) جون بوركهارت، المرجع السابق،جـ١، ص، ص ٥١ ، ٦٠.
(٩٠) نفسه، ص ٦٨ - ٦٩ .
(٩١) نفسه، ص ٦٨.
(٩٢) نفسه، ص ٦٧ .
(٩٣) جون بوركهارت، المرجع السابق، جـ١، ص ٦٩ .
(٩٤) نفسه، ص ٥٥.
(٩٥) نفسه، ص - ص ٥٦ - ٥٧.
(٩٦) جون بوركهارت، المرجع السابق، جـ١، ص، ص ٣٥ ، ٧١؛ وشارل ديديه، المراجع السابق، ص ١٤٩.
(٩٧) جون بوركهارت، المرجع السابق،جـ١، ص ٤٧؛ وعبدالقدوس الأنصاري، المرجع السابق،جـ١، ص - ص ٤٦ - ٤٦١.
(٩٨) جون بوركهارت، المرجع السابق، جـ١، ص ٤٧.
(٩٩) جون بوركهارت، المرجع السابق ، جـ١،ص ٤٨.
(١٠٠) لويس تاميزيه، المرجع السابق، ص ١٢٨ - ١٢٩.
(١٠١) دار الوثائق القومية المصرية ، القاهرة، وثيقة رقم ٥٧ محفظة، دفتر (١) معية تركى، رساله من محمد على باشا إلى الباب العالى بتاريخ غرة محرم ١٢٢٦هـ / ٢٦ يناير ١٨١١م؛ ووثيقة رقم (٤٨) دفتر(١) معية تركي، من محمد على باشا إلى الجناب العالى بشأن جلب السفن من ميناء جدة، بتاريخ٥ شوال ١٢٢٥هـ / ٣ نوفمبر ١٨١٠ م ، ووثيقة رقم (٥٥) دفتر (١) معية تركي، من محمد على إلى الجناب العالي، بشأن استخدام سفن ميناء جدة، بتاريخ ٥ ذى الحجة ١٢٢٥هـ / ا يناير ١٨١١م.
(١٠٢) عبد القدوس الانصارى ، المرجع السابق، جـ١ ، ص-ص ٤٦٠ - ٤٦١.
(١٠٣) جون بوركهارت، المرجع السابق، جـ١، ص٤٨ ، ٧٦؛ ولويس تامزية، المرجع السابق، ص ١١٦ - ١١٧؛ وشارل ديديه، المرجع السابق، ص ١٣٦.
(١٠٤) جون بوركهارت، المرجع السابق، جـ١ ، ص-ص ٧٥ - ٧٦؛ ودار الوثائق القومية، القاهرة ، محفظة(١) وثيقة رقم ٧٨ رسالة من الجناب العالى إلى مأمور تجارة جدة حول نظام الشحن والجمارك بتاريخ ٢٤ صفر ١٢٣٣هـ / ٣ يناير سنة ١٨١٨م، ووثيقة رقم (٥) محفظة (١) ذوات رسالة، من الجناب العالى إلى مأمور جدة خاصة بضبط الحسابات، بتاريخ ٢٩ رجب ١٢٢٩هـ / ١٧ يولية ١٨١٤م.
(١٠٥) جون بوركهارت، المرجع السابق، جـ١ ، ص-ص ٧٦ - ٧٧ .
(١٠٦) لويس تاميزيه، المرجع السابق، ص-ص ١٢٦ - ١٢٧.
(١٠٧) جون بوركهارت، المرجع السابق ، جـ١ ، ص - ص ٦٥ - ٦٦.
(١٠٨) عبدالفتاح أبو علية، دراسات فى تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر،د.ط، الرياض، دار المريخ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ص٣٧٣؛ وعبدالعزيز دولتشين، الرحلة السرية للعقيد الروسى عبدالعزيز دولتشين إلى الحجاز سنة ١٨٩٨م-١٨٩٩م، ط١، بيروت، الدار العربية ٢٠٠٨-١٤٢٨هـ ، ص١٩١.

(١٠٩) جون بوركهارت، جـ١ ، ص٧٠؛ عبدالفتاح أبو علية، المرجع السابق، ص٣٧٤.
(١١٠) البارة: اقتبس الترك هذا اللفظ من الفرس وأطلقوها على قطعة صغيرة من العملة الفضيه تساوى ٤ أقجة أصدرت لأول مرة فى أوائل القرن ١٧م وسرعان ماحلت محل الأقجة باعتبارها الوحدة النقدية وكان وزنها فى أول الأمر يساوى ١٦ قمحة أى تساوى ١,١ جرام تم إنخفض وزنها إلى ربع هذه القيمة فى أوائل القرن التاسع الميلادى وقلت الفضة التى تحتويها . أنظر، دائرة المعارف الاسلامية ، نقلها إلى العربية عباس محمود وعبدالمحسن يونس، وأحمد الشقاوي، مراجعة محمد أحمد جاد، مجلد ٣، د. ت، ص٢٧٢.
(١١١) عبد الفتاح أبو علية، المرجع السابق، ص ٣٧.
(١١٢) جون بوركهارت، المرجع السابق، جـ١ ، ص٧١؛ وأحمد السباعى ، المرجع السابق، ص ٤٦٣.
(١١٣) أحمد السباعى ، المرجع السابق، ص ٥٠١؛ وعبدالقدوس الأنصاري، المرجع السابق، جـ١ ،ص٢٤٨.
(١١٤) جون بوركهارت، المرجع السابق، جـ١ ، ص ٧٠؛ ومحمد لبيب البتنونى ، المرجع السابق، ص٢١٤.
(١١٥) جون بوركهارت، المرجع السابق، جـ١ ، ص ٧٠؛ وعبدالفتاح أبو علية، المرجع السابق، ص ٣٧٥.
(١١٦) جون بوركهارت، المرجع السابق، جـ١ ، ص ٧٠- ٧١ ؛ وشارل ديديه، ، المرجع السابق، ص ١٤٤.
(١١٧) عبدالفتاح أبو عليه، ، المرجع السابق، ص ٣٨٠.
(١١٨) (١) جون بوركهارت، المرجع السابق، جـ١، ص ٢٩٩.
(١١٩) (١) فالتر هنتس: المكاييل والأوزان ومايعادلها فى النظام المتري، ترجمة كامل العسلي،عمان، منشورات الجامعة الأردنية،١٩٧٠،ص٣٠.
(١٢٠) جون بوركهارت، المرجع السابق، جـ١ ، ص-ص ٢٩٧-٢٩٨.
(١٢١) فالتر هنتس، المرجع السابق،جـ١،ص ١٩.
(١٢٢) جون بوركهارت، المرجع السابق، جـ١ ، ص-ص ٥٥-٦٥.
(١٢٣) محمد لبيب البتنوني، المرجع السابق، ص٩.
(١٢٤) جون بوركهارت، المرجع السابق، جـ١ ، ص٤٠.

المصـــــادر والمراجــــع:-

أولاً : الوثائق المنشورة:-

١- دار الوثائق القومية المصرية، القاهرة، وثيقة رقم٨١، محفظة ٣ بحر برا من طوسون إلى محمد على باشا ١٢ محرم سنة ١٢٨٨هـ / ١٥ يناير ١٨١٣م.

٢- دار الوثائق القومية المصرية، القاهرة، وثيقة رقم ١٢ أصلية،١، حمراء، المحفظة ٢٦٩ ، عابدين وأحمد شكرى إلى صاحب الدولة، ٥ربيع الأول ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م.

٣- دار الوثائق القومية، القاهرة، وثيقة ٣٥ حمراء، محفظة ٢٦٩ عابدين، من أحمد شكرى سر عسكر الحجاز إلى الباب العالى تاريخ ٧ محرم ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م.

٤- دار الوثائق القومية، القاهرة، وثيقة ٧٠ أصلية، ٤٥ حمراء، محفظة ٢٦٩ عابدين من الشريف محمد بن عون إلى باشمعاون الخديوى، ١١ رمضان ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م.

٥- دار الوثائق القومية، القاهرة، وثيقة رقم ٢٤٩، دفتر رقم ٢٢ عابدين من الحكومة المصرية إلى والى الحجاز بتاريخ ١٥ رمضان ١٢٨٢هـ.

٦- دار الوثائق القومية، القاهرة، محفظة رقم (١) ذوات، وثيقة رقم ٧٧، رسالة من محمد على باشا إلى مأمور أمور التجارة حول نظام الجمارك، بتاريخ ٢٣ صفر ١٢٣٣هـ ٢ يناير ١٨١٨م.

٧- دار الوثائق القومية، القاهرة، وثيقة حمراء رقم ٣١٥ ، محفظة رقم ٢٦٢ عابدين، من إبراهيم توفيق باشا بالحديدة إلى الجناب العالي، بتاريخ ٥ ذى الحجة ١٢٥٣هـ.

٨- دار الوثائق القومية، القاهرة، وثيقة رقم ٥٧ محفظة دفتر رقم (١) معية تركي، رسالة من محمد على باشا إلى الباب العالي، بتاريخ غرة محرم ١٢٢٦هـ /٢٦ يناير ١٨١١م.

٩- دار الوثائق القومية، القاهرة، وثيقة رقم(٤٨) دفتر(١) معية تركي، من محمد على باشا إلى الجناب العالى بشأن جلب السفن من ميناء جدة، بتاريخ ٥

شوال ١٢٢٥م.

١٠- دار الوثائق القومية، القاهرة، وثيقة رقم (٥٥) دفتر (١) معية تركي، من محمد علي باشا إلى الجناب العالي بشأن استخدام سفن ميناء جدة، بتاريخ ٥ ذي الحجة ١٢٢٥هـ / ١ يناير ١٨١١م.

١١- دار الوثائق القومية، القاهرة، وثيقة رقم ٧٨ ، محفظة (١) رسالة من الجناب العالي إلى مأمور تجارة جدة حول نظام الشحن والجمارك بتاريخ ٢٤ صفر ١٢٣٣هـ / ٣ يناير ١٨١٨م.

١٢- دار الوثائق القومية، القاهرة، وثيقة رقم(٥) محفظة (١) ذوات،رسالة من الجناب العالي إلى مأمور جدة خاصة بضبط الحسابات، تاريخ ٢٩ رجب ١٢٢٩هـ / ١٧ يولية ١٨١٤م.

ثانياً : المخطوطات:-

١- أحمد بن محمد الحضراوي: الجواهر المعدة في فضائل جدة، مخطوط، بمكتبة الحرم المكي الشريف رقم ٣٧ دهلوي.

٢- الطوسي: رسالة المرام في أصوال بيت الله الحرام، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٢٣٨ تاريخ تيمور.

ثالثاً : المراجع :-

١- أبو حذيفة " أحمد بن داود الدينوري" الأخبار الطوال، تحقيق عبدالمنعم عامر، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، د.ت.

٢- أحمد السباعي: تاريخ مكة، الجزء الأول، الطبعة السادسة، مكة المكرمة، نادى مكة الثقافي، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

٣- إبراهيم بك حليم: تاريخ الدولة العثمانية العلية، الطبعة الأولى، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.

٤- ابن بطوطة: تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت، دار صادر، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.

٥- ابن المجاور: صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، المسماة تاريخ المستبصر، صححه وضبطه أو سكر لونفرين، لندن، مطبعة بريل،

١٣٧١هـ / ١٩٥١م.

٦- ابن هشام: السيرة النبوية، الجزء الأول، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبيارى، عبدالحفيظ شلبي، القاهرة، مطبعة مصطفى البابى الحلبي، ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م.

٧- جميل حرب محمود: الحجاز واليمن فى العصر الأيوبي، جدة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

٨- جون بوركهارت: ترحال فى الجزيرة العربية، الجزء الأول، الجزء الثاني، ترجمة: صبرى محمد حسن، الطبعة الأولى، القاهرة، المركز القومى للترجمة،٢٠٠٧م.

٩- الحميري: الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

١٠- سعد زغلول عبدربه: البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، القاهرة، جامعة عين شمس، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

١١- سمير عطا الله، قافلة الحبر، الطبعة الثانية، بيروت، دار الساقي،١٩٩٨م.

١٢- شارل ديديه: رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر شريف مكة المكرمة، ترجمة وتعليق، د.محمد خير البقاعي، بيروت، دار الفيصل الثقافية، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.

١٣- شرف عبدالمحسن البركاني: الرحلة اليمانية،دمشق، المكتب الإسلامى للطباعة والنشر، د.ت.

١٤- الاصطخري: مسالك الممالك، بيروت، دار صادر،د.ت.

١٥- عاتق بن غيث البلادي: معالم مكة التاريخية والأثرية، الطبعة الأولى، مكة المكرمة، دار مكة للنشر، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

١٦- عباس محمد، وعبدالحميد يونس، وأحمد الشناوي: دائرة المعارف الإسلامية مراجعة، محمد أحمد جاد، المجلد(٣)، د.ت.

١٧- عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم: الدولة السعودية الأولى، الطبعة الثانية، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية،١٩٧٦م.

١٨- عبدالرحمن الجبرتي: تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، الجزء الثالث، الطبعة الثانية، بيروت، دار الجيل، ١٩٧٨م.
١٩- عبدالعزيز دولتشن، الرحلة السرية للعقيد الروسى دولتشين إلى الحجاز سنة ١٨٩٨ - ١٨٩٩م، الطبعة الأولى، بيروت، الدار العربية، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٨م.
٢٠- عبدالفتاح أبو علية: دراسات فى تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر، الطبعة الأولى، الرياض، دار المريخ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
٢١- ـــــــــــ: تاريخ الدولة السعودية الثانية، الرياض، دار المريخ للنشر، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
٢٢- عبدالقادر بن أحمد بن فرج الشافعي: السلاح والعدة فى تاريخ بندر جدة، تحقيق أحمد عيسى صوالحة، د.ط، بيروت، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
٢٣- عبدالقدوس الأنصاري: موسوعة تاريخ مدينة جدة، الجزء الأول، الطبعة الثانية، القاهرة، دار مصر للطباعة، ١٤٠١هـ / ١٩٨٠م.
٢٤- على حسين السليمان: النشاط التجارى فى شبة الجزيرة العربية، د.ط، القاهرة، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.
٢٥- فاروق عثمان أباظة: أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن التاسع عشر، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مطبعة الأنصار، ١٩٨٨م.
٢٦- فاطمة الحمدان: دراسة أيكولوجية على متغيرات النمو السكانى بمدينة جدة، جدة، دار المجتمع للنشر والتوزيع، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م.
٢٧- فالتر هنتس: المكاييل والأوزان ومايعادلها فى النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، عمان، منشورات الجامعة الأردنية، ١٩٧٠م.
٢٨- القلقشندي: صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، الجزء الرابع، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، د.ت.
٢٩- الكلبي" أبو المنذر هشام بن محمد السائب": كتاب الأصنام، تحقيق أحمد زكى

باشا، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٣٤٣هـ / ١٩٢٤م.

٣٠- محمد لبيب البتنوني: الرحلة الحجازية، الطبعة الثالثة، الطائف، مكتبة المعارف، د.ت.

٣١- المقدسي: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

٣٢- موريس تاميزيه: رحلة فى بلاد العرب (الحجاز)، ترجمة د.محمد بن عبدالله آل زلفه، الرياض، بلاد العرب، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.

بحوث

فى تاريخ العصور الوسطى



فترة الاستقرار والازدهار والرخاء
التى عاشتها مصر والشام
فى عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون
(٦٩٣ - ٧٤١ هـ/ ١٢٩٣ - ١٣٤٠ م)

د. إلهام محمد هاشم الدجانى
الأستاذ المشارك بقسم التاريخ
بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجدة
جامعة الملك عبدالعزيز ـ المملكة العربية السعودية
(الأقسام الأدبية)

مشكلة الدراسة وأهميتها:

دراسة تاريخ سلاطين المماليك فى مصر والشام دراسة صعبة؛ نظرًا لكثرة الأحداث التى وقعت فى عهد هؤلاء السلاطين فى كل من مصر والشام، فضلاً عن كثرة الأحداث والتغيرات نتيجة للصراع الذى وقع بين هؤلاء السلاطين. وبحكم أن دولتىْ المماليك اللتين حكمتا مصر والشام وهما: المماليك البحرية والمماليك البرجية دولتان عسكريتان قام حكمهما للبلاد على أساس القوة العسكرية؛ فالسلطان القوى يستطيع بزيادة عدد عساكره وغلمانه المماليك أن ينتصر على السلطان الطفل الصغير الوارث للعرش، فضلاً عن حاجة البلاد آنذاك للسلاطين الأقوياء الشجعان الذين يستطيعون أن يواجهوا الخطريْن الكبيريْن اللذيْن تعرضت لهما البلاد آنذاك، وهما الخطر الصليبى والخطر المغولى. وقد ورث سلاطين المماليك، ضمن ما ورثوا من أمور حكم البلاد، ضرورة دفع الخطر الصليبى والمغولى عن البلاد بعد الهجمة التى تعرضت لها فى أواخر حكم الفاطميين لمصر والشام، وذلك بعد حالة الضعف التى أصابت البلاد فى أواخر أيام حكم الفاطميين، تلك الحالة التى أغرت جحافل المغول والصليبيين بانتهاز الفرصة لتحطيم مصر، القوة السياسية

والعسكرية والاقتصادية الكبرى آنذاك في العالم الإسلامى، والتى أنيط بها الدفاع عن الإسلام بعدما ضعفت الخلافة العباسية أيضًا فى بغداد، ولم تعد تستطيع دفع تلك الأخطار التى استهدفت الدين الإسلامى آنذاك.

ولقد كان قيام دولة المماليك البحرية إنقاذًا للإسلام وللمسلمين، حيث نجح سلاطين هذه الدولة وفى مقدمتهم «سيف الدين قطز»، و«الظاهر بيبرس البندقدارى» فى هزيمة المغول فى معركة «عين جالوت»، التى كانت من أهم المعارك فى التاريخ بالنسبة للعالم الإسلامى وللعالم كله على وجه العموم؛ لأنَّ هؤلاء المغول، بعد أن اجتاحوا بغداد، وأسقطوا الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٤م، لو كان قد تحقق لهم الانتصار فى هذه المعركة لاجتاح هؤلاء المتبربرون العالم كله بما فيه بلاد الغرب الأوروبى، ولدمروا تحت أقدامهم كل المنجزات الحضارية فى تلك البلاد كما فعلوا فى بلدان المشرق الإسلامى، وبلاد فارس وما وراء النهر.

ولقد كانت معركة عين جالوت المعركة الفاصلة فى صد هذا الهجوم المغولى الغاشم، وكانت الإنذار الخطير لدول أوروبا الصليبية. فبعد النصر على المغول تفرغ المماليك لقتال الصليبيين، وحالوا دون اتفاق الطرفين فى معسكر واحد ضد المسلمين، كما أنهم تفرغوا لاستئصال شأفة الصليبيين من بلاد العالم الإسلامى، واستعادة الأراضى التى كانوا قد نجحوا فى الاستيلاء عليها فى بلاد الشام، وإزالة الممالك الصليبية التى كانوا قد أقاموها هناك، وهى إمارات: أنطاكية والرها وطرابلس وبيت المقدس.

وعلى هذا تكون دراسة تاريخ سلاطين المماليك، الذين قاموا بالدفاع عن الإسلام فى عصور الظلام الأوروبية والآسيوية، دراسة مهمة تحتاج إلى إبراز دور هؤلاء السلاطين، ومدى إسهام كل منهم فى ذلك، ومدى تفانيهم فى الدفاع عن الإسلام.

كذلك دراسة أهم ما خلفه هؤلاء السلاطين العظام من منشآت معمارية هائلة؛ من حصون وقلاع ومساجد ومدارس لاتزال قائمة شامخة حتى اليوم تشهد برقى الحياة وازدهارها فى أيامهم فى كل من مصر والشام.

وتظهر أهمية العصر المملوكى فى الدعم الذى قدمه سلاطين هذا العصر لدولة

الإسلام بالأندلس فى تصديها للهجمة الصليبية على بلاد المسلمين هناك ، وإمدادها بالمقاتلين وبالسلاح، الأمر الذى ساعد حكام المسلمين هناك على الصمود لوقت طويل، واستمرار حكم المسلمين للأندلس مدة ثمانية قرون زاهرة.

التعريف ببعض المصطلحات التى وردت فى الدراسة:

الطبلخاناه: هى طبول متعددة معها أبواق وزمامير تُدق فى كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب.

الكوسات: هى صنوج من نحاس يُدق بأحدهما على الآخر بإيقاع مخصوص.

سرير المُلك: وهو تخت المُلك، يجلس عليه السلطان.

المظلة (الجتر): وهى قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب، وهى تُحمل على رأس السلطان فى العيدين.

الشرابخاناه: ومعناه بيت الشراب، وهى تشتمل على أنواع الأشربة المرصدة للسلطان، والمشروب الخاص من السكر وغيره.

السلاح خاناه: ومعناها بيت السلاح، وهى تشتمل على شتى أنواع السلاح.

أمراء المئين مقدمو الألوف: فرسان من الأمراء وعدتهم مائة فارس.

المماليك السلطانية: وهم أعظم الأجناد شأنًا، وأرفعهم قدرًا، وأشدهم إلى السلطان قربًا.

الأتابك أو الأطابك: معناه أميرأب، أو أبو الأمراء، وأول من لُقب بذلك نظام الملك وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقى حين فوَّض إليه ملكشاه تدبير المملكة سنة ٤٦٥ هـ.

الدوادار: حامل الدواة للسلطان.

الأستادار: هو الذى له التحدث فى أمر بيوت السلطان كلها من المطابخ والشرابخاناه والحاشية والغلمان.

المهمندار: هو من يتلقى الرسل الواردين وأمراء العربان وغيرهم للسلطان.

كاتب السر: هو المسئول عن قراءة الكتب الواردة على السلطان، وكتابة أجوبتها، وأخذ خط السلطان عليها، وتسفيرها، وتصريف المراسيم ورودًا وصدورًا.

ناظر الخاص: وهى وظيفة أحدثها السلطان الناصر محمد بن قلاوون حين

أبطل الوزارة، وأصلها التحدث فيما هو خاص بمال السلطان.

ناظر البهار والكارمي: وهو المتحدث عن واصل التجار الكارمية من اليمن من أصناف البهار وأنواع المتجر السلطانى.

الأهراء: هى شونة الغلال السلطانية.

الأجناد: جمع جُند، وقد قسَّم المتقدمون الشام مثلاً إلى خمسة أجناد: جند فلسطين، جُند دمشق، جُند قنسرين، جند حمص، جند الأردن.

بلاد الخِطا: وهم جنس من التُرك بلادهم متاخمة لبلاد الصين، وقاعدة هذه المملكة بلدة جالق بالق.

أمراء العشرات: وعدة كل منهم عشرة أمراء من الفرسان، ومن هذه الطبقة يكون صغار الولاة ونحوهم من أرباب الوظائف.

أمير آخور: وهو المتحدث على اصطبل السلطان وخيوله، وهو يسكن باصطبل السلطان ودونه ثلاثة من أمراء الطبلخاناه.

أمير جاندار: وهو الذى يستأذن على دخول الأمراء للخدمة، ويدخل أمامهم إلى الديوان، وهو يقدم البريد للسلطان مع الدوادار وكاتب السر.

شاد العمائر: وصاحبها هو المتكلم فى العمائر السلطانية مما يختار السلطان إحداثه أو تجديده من القصور والمنازل والأسوار.

المصادر والمراجع التى قام على مادتها البحث:

هنالك بدون شك الكثير من المصادر والمراجع التى كتبت عن عصرىْ دولة المماليك، وعن حكام وسلاطين دولتهم البحرية والبرجية، ومن أهم تلك المصادر المعاصرة لأحداث ذلك العصر المملوكي ورجع إليها الباحث:

«موسوعة نهاية الأرب فى فنون الأدب» لشهاب الدين النويرى، المتوفى سنة ٧٣٢ هـ، وكان النويرى معاصرًا للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، موضوع البحث، فى سلطنته الثانية (٦٩٣ - ٧٠٨ هـ)، ثم الثالثة (٧٠٩ - ٧٤١هـ)، وقد نال عطف السلطان وحظوته، وتقلب فى عدة وظائف إدارية ومالية ظهرت فيها جميعًا كفاءته وتفوقه. ويقول لنا ابن حجر العسقلانى فى كتابه «الدرر الكامنة فى أعيان المئة الثامنة» أن الملك الناصر وكلَّ النويرى فى بعض أموره، وأنه باشر نظر الجيش بطرابلس، وهى وظيفة عسكرية مهمة.

وكذلك اعتمد البحث على موسوعة «ابن فضل الله العمرى» المعنونة بـ: «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار»، فقد تقلد العمرى مناصب مهمة أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى ولايته الثالثة (٧٠٩ هـ - ٧٤١هـ)، وانتهى إلى تقلد ديوان الإنشاء والرسائل فى عهده، وكان من أهم الدواوين فى الدولة المصرية يمكننا أن نقارنه فى أعماله واختصاصاته بوزارة الخارجية الحديثة، ذلك أنه كان إلى جانب عنايته بأمر المراسيم السلطانية مجمع العلائق والمخاطبات السلطانية، ومرجع العلاقات والمكاتبات الدبلوماسية. وبناءً عليه فقد أمدنا العمرى فى موسوعته هذه بالكثير عن الأمور السياسية والدبلوماسية فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون.

ثم تأتى موسوعة أبى العباس القلقشندى، المتوفى سنة ٨٢١ هـ، ضمن أهم المصادر التى رجع إليها البحث فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون والمعنونة بـ: «صبح الأعشى فى صناعة الإنشا»، وكان القلقشندى قد التحق بالعمل فى ديوان الإنشاء بمصر، حسبما يقول لنا فى مقدمة كتابه، سنة ٧٩١ هـ فى عهد السلطان برقوق. ومن خلال هذا الكتاب استطاع الباحث أن يتعرف على وظائف العصر المملوكى، وألقاب أصحاب هذه الوظائف، ومراتب الأمراء والحكام داخل مصر وخارجها.

وتأتى مؤلفات المؤرخ المصرى الشهير تقى الدين المقريزى، المتوفى سنة ٨٤٥ هـ، فى مقدمة المصادر التى استند إليها البحث، ومن هذه المؤلفات كتب: «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، وكتاب «السلوك فى معرفة دول الملوك»، وكتاب «المقفى الكبير». ويعتبر كتاب السلوك هو تاريخ دول المماليك فى مصر دون منازع، ولا يمكن لأى باحث فى تاريخ تلك الدول أن يغفل الرجوع إليه، وقد نهل الباحث من هذا الكتاب الكثير الذى أثرى مادة بحثه وموضوعه.

ومن المصادر التى رجع إليها البحث كتاب «الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة» لابن حجر العسقلانى، وكتاب «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» لأبى المحاسن، ابن تغرى بردى، المتوفى سنة ٨٧٤ هـ، والذى يُعتبر كتابه «النجوم الزاهرة» هو الأصل الذى نقل عنه المقريزى، وكتابه «المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى». ويعد كتاب النجوم الزاهرة، المصدر الأساسى لتاريخ

دولة المماليك، فضلاً عن موسوعة كبيرة فى تاريخ مصر الإسلامية وتقلبات نيلها منذ الفتح الإسلامى (سنة ٢٠ هـ) إلى سنة ٨٧٤ هـ، أى قبل وفاته بعامين فقط، وهو أتم وأطول تاريخ لمصر الإسلامية.

ومن المصادر المهمة التى رجع الباحث إليها كتاب «الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع» لشمس الدين السخاوى، الذى ترجم فيه لأعيان هذا القرن ولحياة سلاطين المماليك. كذلك هنالك كتاب «حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة» للعلامة جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ/ ١٥٠٥م.

هذا عن المصادر، أما عن المراجع فقد رجع الباحث لكتب الدكاترة: جمال الدين سرور، حسن إبراهيم حسن، حسنين ربيع، سعيد عاشور، عبدالمنعم ماجد، عطية القوصى، مع عدد من المراجع الأجنبية الواردة أسماؤها فى آخر البحث.

مقدمة:

التعريف بالسلاطين المماليك:

المماليك هم الرقيق الأبيض الذين توافدوا على بلاد العالم الإسلامى منذ العصر العباسى الأول، وكان معظمهم يُجلب من منطقة بلاد التركستان الروسية فى البلاد التى عرفها المسلمون الأوائل باسم بلاد ما وراء النهر، أى ما وراء نهر سيحون، وكانت هذه البلاد سوقًا لتجارة الرقيق الأبيض، وكانت مدينة (سمرقند) عاصمة أزبكستان الآن أهم مراكزها.

وقد كثُر استخدام هؤلاء المماليك فى جيوش الدولة الإسلامية، ووصلوا إلى أعلى المناصب حتى صاروا أرباب النفوذ والسلطان فيها وفى الدول التى كانت تابعة لهم.

وكان حكام الأيوبيين وسلاطينهم، الذين حكموا مصر والشام، بعد حكم الفاطميين لهما، قد أكثروا من شراء هؤلاء المماليك واتخذوهم عساكر لهم يحاربون بهم أعداءهم فى الداخل والخارج، وكانت كل مجموعة من هؤلاء المماليك تنتسب إلى صاحبها الذى اشتراها من تجار الرقيق وتتسمى باسمه؛ فالأسدية مثلاً تنتسب إلى صاحبها أسد الدين شيركوه، عم صلاح الدين، والصلاحية تنتسب إلى صلاح الدين نفسه، والعادلية إلى أخى صلاح الدين الملك العادل، وهكذا(١).

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب، ابن الملك الكامل قد استكثر من استخدام

هؤلاء المماليك فى جيشه وحرسه الخاص بعد أن تعرض لمؤامرات كثيرة من أقاربه قبل توليه الحكم، وقد وصل إلى السلطنة بمساعدة هؤلاء المماليك. وقد اشترى الصالح أعدادًا كبيرة من هؤلاء المماليك الأتراك من منطقة (خوارزم) تُقدر بنحو ألف مملوك، وسماهم المماليك الصالحية، وأسكنهم جزيرة الروضة، وعُرفوا بالمماليك البحرية تمييزًا لهم عن مماليك آخر جاءوا بعدهم وسكنوا أبراج قلعة الجبل وعُرفوا بالمماليك البرجية، وكانوا أصلاً من جنس الأتراك الجراكسة(٢).

ولقد انتقل الحكم فى مصر من الأيوبيين إلى المماليك بعد قتل توران شاه آخر سلاطين الأيوبيين فى شهر المحرم سنة ٦٤٨ هـ/ مايو ١٢٥٠م، وتنازل شجرة الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب عن السلطنة للأمير عز الدين أيبك التركمانى مقدم العسكر بعد أن تولت أمر السلطنة مدة ثمانين يومًا(٣).

وقد حكمت دولة المماليك مصر والشام مدة ٢٧٤ عامًا حتى الفتح العثمانى لهما، حكَم النصف الأول من هذه المدة المماليك البحرية (٦٤٨ – ٧٨٤ هـ/ ١٢٥٠ – ١٣٨٢م) وحكم النصف الثانى منها المماليك البرجية (٧٨٤ – ٩٢٢ هـ/ ١٣٨٢ – ١٥١٧م).

وقد تألف حكم المماليك البحرية من ٢٥ سلطانًا، كانت شجرة الدر وعز الدين أيبك أول حكامهم، وكان آخرهم الملك الصالح زين العابدين حاجى شعبان(٤).

أسرة قلاوون:

لم يأخذ حكم دولة المماليك بنظام الوراثة فى الحكم باستثناء ما حدث فى أسرة قلاوون التى ورثت الحكم عن عاهلها قلاوون حتى نهاية عهد دولة المماليك البحرية سنة ٧٨٤ هـ، ولمدة قرن كامل من الزمان.

ويمثل العصر الذى حكمت فيه أسرة قلاوون مصر والشام عصر الازدهار السياسى فى حكم دولة المماليك البحرية بعد أن انتهت مرحلة التأسيس للدولة التى تمت على يد الظاهر بيبرس، وبعد أن أثبت سلاطين المماليك قدرتهم السياسية والعسكرية فى حكم البلاد وفى مواجهة الأخطار الكبرى التى هددتها على يد المغول والصليبيين.

وليس هنالك من شك فى أنَّ الفضل فى استمرار هذا البيت فى حكم البلاد قرابة قرنٍ متصلٍ من الزمان يرجع إلى شخص (السلطان المنصور قلاوون) نفسه الذى

استطاع بقوة شخصيته وتمرسه السياسى والإدارى فى أن يُرسى هيبة بيته فى النفوس، وإحاطة هذا البيت بالمجد والعظمة، وجعله رمزًا للقوة والتقدم والاستقرار والأمن فى الداخل والخارج(٥).

عصر حكم الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون

تمتعت مصر والشام بفترة رخاء واستقرار غداة تولى الناصر محمد بن قلاوون عرش البلاد، وهو السلطان الذى يُعتبر عصر حكمه العصر الذهبى لدولة المماليك البحرية(٦).

- **التعريف بالسلطان الناصر محمد:**

هو السلطان الملك الناصر أبو الفتوح ناصر الدين محمد بن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى الألفى، وُلد بالقاهرة سنة ٦٨٤ هـ بقلعة الجبل، وجلس على تخت المُلك بعد قتل أخيه الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون يوم الاثنين ١٤ المحرم سنة ٦٩٣ هـ.

والملك الناصر هو السلطان التاسع من سلاطين المماليك، تولى الحكم ثلاث مرات، وكان فى المرتين الأوليين لايزال طفلاً صغيرًا لم يتجاوز عمره فى المرة الأولى العاشرة، وقد اختاره أمراء المماليك سلطانًا مؤقتًا بعد قتل أخيه لحين ظهور شخصية قوية من بين هؤلاء الأمراء تستطيع الاستحواذ على هذا الطفل الصغير، ثم عزله وتولى الحكم مكانه.

وقد تم ذلك بالفعل حين نجح لاجين بعد عامين من توليه الحكم فى خلعه، وتولى السلطنة مكانه سنة ٦٩٦ هـ، لكن الأمراء خلعوا لاجين بعد سنتين من حكمه وأعادوا الناصر محمد من منفاه (بالكرك) اليرموك ليتولى السلطنة للمرة الثانية، وليستمر فى السلطنة مدة عشر سنوات من سنة ٦٩٨ هـ حتى سنة ٧٠٨ هـ(٧).

- **موقعة مرج الصُفر(٨):**

وكان من أهم ما وقع من أحداث سياسية وعسكرية فى الفترة الثانية من حكم الناصر محمد هو تجدد هجمات المغول على بلاد الشام سنة ٦٩٨ هـ، وتوغل جيوش (غازان) ملك المغول فى تلك البلاد وهزيمتها للقوات المملوكية بالشام فى معركة (مجمع المروج) بين حمص وحماه، ودخول غازان دمشق والإفساد فيها. ولم تقف قوات الناصر مكتوفة الأيدى إزاء هذا الهجوم المغولى المخرب، فخرج

بنفسه على رأس جيش كبير قاصدًا الشام فى العام التالى، ودخل دمشق، الأمر الذى استدعى غازان للعودة من بلاده إلى الشام، والتى كان قد غادرها بعد نصره الأول، ودارت معركة حاسمة بين قوات غازان المغولية وقوات المسلمين عند مرج الصفر، قرب دمشق، هُزمت فيها القوات المغولية هزيمة كبيرة لا تقل فى حجمها وخسائرها عن هزيمتهم فى معركة عين جالوت(٩).

غير أن السلطان الناصر لم يستطع مواجهة مؤامرات كبار أمراء المماليك وهو لايزال شابًا صغير السن، ولم يتحمل أن تكون سلطته اسمية وشكلية، وأن تكون السلطة الفعلية بيد كبار أمراء المماليك البحرية أمثال: الأمير سلار، والأمير بيبرس الجاشنكير اللذين ضيقا عليه الخناق، وحالا بينه وبين الحكم الفعلى للبلاد.

ولذلك قام الناصر بالخروج من مصر مظهرًا رغبته فى أداء فريضة الحج والذهاب إلى الحجاز عن طـريق الكرك، وعندما وصـل إلى الكرك سنة ٧٨٠ هـ استقر بها، وأرسل منها كتابًا إلى أمراء المماليك يخبرهم بقراره ترك مصر والاستقرار بالكرك، فبايع الأمراء بيبرس الجاشنكير بالسلطنة بعد أن اعتذر الأمير سلار عن قبولها(١٠).

ولم تستمر سلطنة الجاشنكير إلا لعام واحد؛ وذلك لكراهية الناس له، ولحبهم للناصر محمد ورغبتهم فى عودته للحكم، ولترك كثير من المماليك جانب الجاشنكير وهروبهم إلى الناصر محمد فى الكرك(١١).

الناصر محمد سلطانًا للمرة الثالثة(١٢):

وقد قام على إثر ذلك الناصر محمد بتنظيم صفوف أتباعه لاسترداد سلطنته، وأعد العدة للعودة إلى مصر، ولم يجد الجاشنكير أمامه بُدًا إلا الفرار إلى إطفيح، ودخل الناصر قلعة الجبل فى أول أيام عيد الفطر سنة ٧٠٩ هـ، واسترد ملكه، وصار سلطانًا على مصر والشام للمرة الثالثة وهو فى الخامسة والعشرين من عمره، واستمر هذه المرة فى السلطنة حتى وفاته سنة ٧٤١ هـ، ولمدة ٣٢ سنة، وكان فى هذه المرة قد صُلب عودُه واشتد، ونجح فى دعم حكمه والتخلص من أعدائه، وإقامة الحكم المستقر الدائم الذى لم تعرفه مصر والشام فى عهد سابقيه(١٣).

- **حالة الاستقرار والازدهار المعمارى فى عهد الناصر محمد:**

أدى الاستقرار فى مصر والشام فى عهد السلطنة الثالثة للناصر محمد إلى

رخاء الحال وإصلاح مسار الاقتصاد فى البلاد، وتقدم العلوم وازدهار الفنون والمعمار، حتى أن المؤرخين يعتبرون عصر حكم الناصر محمد عمومًا أزهى عصور الفن فى تاريخ مصر الإسلامية عامة، ويشهد على ذلك مقدار ما خلّفه من مبانٍ وعمائر ومساجد وآثار قيمة لازالت قائمة تتحدى الزمن حتى الآن(١٤).

ولقد وصف المقريزى(١٥) الملك الناصر فى حبه وشغفه بالعمارة بقوله «أنه كان يُصرف فى كل يوم من أيامه على العمارة سبعة آلاف درهم فضة». ومن منشآته الشهيرة: المدرسة الناصرية ببين القصرين، ومسجده الشهير بالقلعة، والخانقاه التى أنشأها للصوفية فى سرياقوس، والمنشآت التى قام بعمارتها وتجديدها مثل المارستان المنصورى الذى كان والده قد بدأ فى تشييده سنة ٦٨٨ هـ، والقصر الأبلق بالقلعة، والإسطبل السلطانى بالقلعة، وجامع راشدة الذى قام بتجديده وكان قد تهدم غالب جدرانه. كما حفر خليج الإسكندرية، وأنشأ الميدان تحت القلعة، وكان يلعب فيه الكرة فى كل يوم ثلاثاء مع الأمراء.

وقد أورد ابن تغرى بردى(١٦) أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون شرع فى العشر الأخر من شهر شعبان سنة ٧١٥ هـ. فى عمل الروك بأرض مصر، وهو ما عُرف بالروك الناصرى(١٧).

ويستفاد مما ذكره المقريزى فى خططه عن الروك الناصرى أنَّ الملك الناصر محمد بن قلاوون لمَّا ولى حكم مصر للمرة الثالثة رأى أن الأراضى الزراعية بمصر ليست موزعة على الأمراء والجند والمقطعين بطريقة عادلة تُنظِمُ وضع يد كل واحد منهم على نصيبه الذى يتناسب مع درجته ويكفى لمصاريفه العادية، وبعد أن تشاور فى هذا الموضوع مع القاضى فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش أمره أن يروك الديار المصرية، ويقرر إقطاعات بما يختار، ويكتب بها مثالات سلطانية، أى قوائم مساحة رسمية بما يخص كل واضع يد، وما عليه من الخراج. وبناءً على ذلك أصدر الملك الناصر مرسومًا فى سنة ٧١٥ هـ/ ١٣١٥م للقيام بإجراء هذه العملية.

وقد أخرج السلطان الأمراء إلى الأعمال لإجراء الروك، فتعين الأمير بدر الدين جنكلى إلى الغربية ومعه آقول الحاجب والكاتب مكين الدين إبراهيم، وتعين للشرقية الأمير أيدمر الخطيرى ومعه أيتمش المحمدى والكاتب أمين الدين قرموط،

وتعين للمنوفية والبحيرة الأمير بلبان الصرخدى وبيبرس الجمدار، وتعيين جماعة آخر للصعيد، وتوجه كل أمير إلى عمله، فلمَّا نزلوا بالبلاد استدعى كل أمير مشايخ البلاد وأدلائها وقياسيها وعدولها، وسجلات كل بلد، وعرف متحصلها، ومقدار أفدنتها، ومبلغ عبرتها، وما يتحصل منه للجندى من العين والغلة والدجاج والإوز والكشك والعدس والكعك، ثم قاس الأمير تلك الناحية وكتب بذلك عدة نسخ، ولازال يعمل ذلك فى كل بلد حتى انتهى أمر عمله، وعادوا بعد خمسة وسبعين يومًا بالأوراق فتسلمها فخر الدين ناظر الجيش.

كما أبطل الناصر مكوسًا ورسومًا كثيرة كانت مفروضة على الناس وكانوا يعانون من وطأتها[١٨]، من هذه الرسوم رسوم الجوالى التى كان السلطان يختص بها.

وكان للجوالى[١٩] قبل ذلك إلى وقت الروك ديوان مفرد يختص بالسلطان، فأضيف جوالى كل بلد إلى متحصل خراجها، وأبطلت جهات المكوس التى كانت أرزاق الجند عليها، ومنها (ساحل الغلة) [٢٠]، وكانت هذه الجهة مُقطعة لأربعمائة جندى من أجناد الحلقة سوى الأمراء، وكان متحصلها فى السنة ٤ ملايين وستمائة ألف درهم.

وكان إقطاع الجندى من عشرة آلاف إلى ثلاثة آلاف درهم، وللأمراء من أربعين ألفًا إلى عشرة آلاف درهم، فاقتنى المباشرون منها أموالاً عظيمة، إذ إنها كانت أعظم الجهات الديوانية وأجلَّ معاملات مصر، وكان الناس منها فى أنواع من الشدائد لكثرة المغارم والعسف والظلم، إذ إن أمرها كان يدور على نواتية المراكب والكيالين والمشدِّين والكُتاب، وكان المقرر على كل إردب درهمين، ويلحقه نصف درهم آخر سوى ما كان يُنهب.

وكان له ديوان فى بولاق خارج المقس، وقبله كان له خُص يُعرف بخص الكيالة[٢١]، وكان فى هذه الجهة نحو ستين رجلاً ما بين نظار ومستوفين وكُتاب وثلاثين جنديًا للشد، وكانت غلال الأقاليم لاتباع إلا فيه، فأزال الملك الناصر هذا الظلم جميعه عن الرعية، ورخص سعر القمح من ذلك اليوم، فانتعش الفقير، وزالت هذه الظلامة عن أهل مصر.

كذلك أبطل الملك الناصر نصف السمسرة الذى كان قد أحدثه ابن الشيخى[٢٢]

فى وزارته، وهو أنه من باع شيئًا فإن على كل مائة درهما دلالة درهمين، يؤخذ منها درهم للسلطان، فصار الدلال يحسب حسابه ويُخلص درهما له قبل درهم السلطان، فأبطل الملك الناصر ذلك أيضًا، وكان يتحصل منه جملة كثيرة، وعليها جند مستقطعة[٢٣].

أيضاً أبطل السلطان الملك الناصر رسوم الولايات والمقدمين والنواب والشرطية، وكانت تجبى من عُرفاء الأسواق وبيوت الفواحش، وكان عليها أيضًا جند مستقطعة وأمراء، وكان فيها من الظلم وهتك الحُرم وتهجم على البيوت وإظهار الفواحش ما لا يوصف، فأبطل ذلك كله.

وأبطل ما كان مقررًا للحوائص والبغال، وكان يُجبى من المدينة ومن الوجهين القبلى والبحرى، ويُحمل فى كل قسط من أقساط السنة إلى بيت المال عن ثمن الحياصة ثلثمائة درهم، وعن ثمن البغل خمسمائة درهم، وكان على هذه الجهة أيضًا مقطعون، سوى ما كان يُحمل إلى الخزانة، فكان فيها من الظلم بلاء عظيم، فأبطل الملك الناصر ذلك كله[٢٤].

وأبطل ما كان مقررًا على السجون، وهو على كل مَنْ سُجن ولو للحظة واحدة مائة درهم سوى ما يغرمه. وكان أيضًا على هذه الجهة عدة مقطعين، ولها ضامن يجبى ذلك من سائر السجون، فأبطل ذلك كله.

وأبطل ما كان مقررًا على طرح الفراريج، وكان عليه عدة مقطعين، ولكل إقليم ضامن مقرر، ولا يقدر أحد أن يشترى فروجًا إلا من الضامن، فأبطل الناصر ذلك.

وأبطل ما كان مقررًا على الأقصاب والمعاصر، وكان يجبى من مزارعى الأقصاب وأرباب المعاصر ورجال المعصرة فيحصل من ذلك شىء كثير.

وأبطل ما كان يؤخذ من رسوم الأفراح، وكانت تجبى من سائر البلاد، وهى جهة لا يُعرف لها أصل، فبطل ذلك ونُسى[٢٥].

وأبطل جباية المراكب، وكانت تجبى من سائر المراكب التى فى بحر النيل بتقرير معين على كل مركب يقال له مقرر الحماية، وكان يجبى ذلك من مسافرى المراكب سواء كانوا أغنياء أم فقراء، فبطل ذلك أيضًا.

وأبطل ما كان يأخذه (مهتار خِشتخانة) [٢٦] للسلطان من البغايا والمنكرات والفواحش، وكانت جملة مستكثرة.

وأبطل ضُمان تُجيب بمصر، وحقوق السودان، وكشف مراكب النوبة، إذ كان يؤخذ عن كل عبد وجارية مبلغ مقرر عند نزولهم فى الخانات، وكانت جهة قبيحة شنيعة للغاية فأراح الله المسلمين منها على يد الناصر.

قال أبو المحاسن فى مدح ما أبطله السلطان الناصر محمد من مظالم: «وكل ما فعله الملك الناصر من إبطال هذه المظالم والمكوس دليل على حسن اعتقاده وغزير عقله وجودة تدبيره وتصرفه، حيث أبطل هذه الجهات القبيحة التى كانت من أقبح الأمور وأشقها، وعوضها من جهات لا يظلم فيها الرجل الواحد، ومثله فى ذلك كمثل الرجل الشجاع الذى لا يبالى بالقوم كثروا أو قلوا، فهو يكثر فيهم، فإن أوغل فيهم خلص، وإن كر راجعًا لا يبالى بمن هو فى أثره لما يعلم ما فى يده من نفسه، فأبطل لذلك ما قُبح، وأحدث ما صلح من غير تكلف وعدم تخوف، فلله دره من تلك، عمر البلاد وعمر أجساد العباد»(٢٧).

ونودى فى الناس بالقاهرة ومصر وسائر الأعمال بإبطال ما أُبطل من جهات المكس غيره، وكُتبت المراسيم بذلك إلى سائر النواحى بهذا الإحسان العظيم، فُسر الناس بذلك قاطبةً سرورًا عظيمًا، وضج العالم بالدعاء للسلطان بسائر الأقطار حتى شكر ذلك ملوك الفرنج وهابته من حسن تدبيره، ووقع ذلك لملوك التتار وأرسلوا فى طلب الصلح(٢٨).

وكل ما فعله الملك الناصر من إبطال هذه المظالم والمكوس دليل على حسن اعتقاده وغزير عقله وجودة تدبيره وتصرفه، حيث أبطل هذه الجهات القبيحة التى كانت من أقبح الأمور وأشنعها، وعوَّضها من جهات لا يُظلم فيها الرجل الواحد، فأبطل لذلك ما قبح، وأحدث ما صلح من غير تكلف وعدم تخوُّف، فلله دَرُه من ملك عمَر البلاد وغمر بالإحسان العباد».

وواظب السلطان الناصر على إرسال المحمل فى كل عام من أول ذى القعدة، وحمل الكسوة إلى الكعبة المشرفة... وقد أدى السلطان فريضة الحج مرتين، وقام فى حجته الثانية بغسل الكعبة بيده، وأنفق مالاً كثيرًا على فقراء الحرمين، وأصدر أمره بإلغاء سائر المكوس من الحرمين الشريفين التى كان يدفعها الحجيج، وعوَّض أمير مكة والمدينة عنها إقطاعات بمصر والشام، وأكثر من الصدقات(٢٩).

- **وفاة الملك الناصر:**

ابتدأ توعك السلطان ومرض مرض موته، فلمَّا كان يوم الأربعاء سادس ذى الحجة سنة ٧٤١ هـ. قوى عليه (الزرب) الإسهال، ومنع الأمراء من الدخول عليه، وفارق الدنيا أول ليلة الخميس ٢١ ذى الحجة سنة ٧٤١ هـ، وله من العمر ٥٧ سنة و١١ شهراً و٥ أيام، ودُفن فى المدرسة المنصورية ببين القصرين.

وخلّف الملك الناصر من الأولاد الذكور ١٤ ولدًا هم: أبو بكر، ومحمد، وإبراهيم، وعلى، وأحمد، وكجك، ويوسف، وشعبان، وإسماعيل، ورمضان، وحاجى، وحسين، وحسن، وصالح.

وتسلطن من ولدِه لصلبه ثمانية: أبو بكر، وكجك، وأحمد، وإسماعيل، وشعبان، وحاجى، وحسن، وصالح.

وخلّف من البنات ١١ بنتًا[٣٠].

- **تقييم شخص الملك الناصر:**

ذكر المؤرخون عنه أنه كان أطول الملوك زمانًا، وأعظمهم مهابة، وأغزرهم عقلاً، وأحسنهم سياسة، وأكثرهم دهاءً، وأجودهم تدبيرًا، وأقواهم بطشًا وشجاعة، وأحزمهم تنفيذًا. مرت به التجارب، وقاسى الخطوب، وباشر الحروب، وتقلب مع الدهر ألوانًا، نشأ فى الملك والسعادة وله فى ذلك الفخر والسيادة، خليقًا للمُلك والسلطنة فهو سلطان ابن سلطان وأخو سلطان، ووالد ثمانية سلاطين من صلبه، والمُلك فى ذريته وأحفاده وعقبه ومماليكه ومماليك مماليكه إلى أن تنقرض الدولة التركية، فهو أجَلّ الملوك الترك وأعظمها بلا مدافعة، ومنْ ولىَّ السلطنة من بعده بالنسبة إليه كأحد أعيان أمرائه[٣١].

وكان متجملاً يقتنى من كل شيء أحسنه، أكثر فى سلطنته من شراء المماليك والجوارى، وطلب التجار وبذل لهم الأموال، وكان يدفع للتاجر فى المملوك الواحد مائة ألف درهم.

وكان شغوفًا أيضًا بالخيل فجُلبت له من البلاد لا سيما خيول العرب آل مهنا وآل فضل التى كان يقدمها على غيرها، وكانت له معرفة تامة بالخيل وأنسابها. واشترى فرسة عُرفت ببنت الكرماء بمائتى ألف درهم.

وهو أول من اتخذ من ملوك مصر ديوانًا للإسطبل السلطانى، وعمل له ناظرًا

وشهودًا وكُتابًا لضبط أسماء الخيول وأوقات ورودها وأسماء أربابها وموضع أثمانها ومعرفة سُواسُها وغير ذلك من أحوالها. وكان فى إسطبله ثلاثة آلاف فرس(٣٢).

وكان الملك الناصر شغوفًا بالصيد، وقد ترك من الصقور والنسور ونحوها عددًا كبيرًا، فضلاً عن ٨٠ كلب صيد. وعُنى بتربية الأغنام والإوز، ولمَّا مات ترك ٣٠ ألف رأساً من الغنم سوى أتباعها.

وكان –رحمه الله –غاية فى الحِشمة والرياسة وسياسة الأمور، فلم يضبط عليه أحدٌ أنه أطلق لسانه بكلام فاحش فى شدة غضبه(٣٣)، ولا فى انبساطه مع عظيم ملكه، وطول مدته فى السلطنة، وكثرة حواشيه وخدمه. وكان إذا غضب على أحد لا يُظهر ذلك، ويدعو الأمراء والأعيان وأرباب الوظائف بأحسن أسمائهم وأجلّ ألقابهم. وكان مقتصدًا فى ملبسه وفى ركوبه.

وكان مفرط الذكاء يعرف جميع مماليك أبيه وأولادهم وأسمائهم، وكذلك مماليكه لا يغيب عنه اسم واحد منهم، ولا وظيفته عنده، هذا مع كثرتهم. وكان يعرف غلمانه وحاشيته أيضاً على كثرة عددهم، ولا يفوته معرفة أحد من الكُتاب.

وكان يكره شرب الخمر ويعاقب عليه، ويُبعد مَنْ يشربه من الأمراء عنه، وكان فى الجود والكرم غاية لا تُدرك خارجة عن الحد؛ وهب فى يوم واحد ما يزيد على مائة ألف دينار ذهبًا، وأعطى فى يوم واحد لأربعة من مماليكه مائتى ألف دينار، ولم يزل مستمر العطاء لخاصكيته ومماليكه ما بين عشرة آلاف دينار وأكثر منها وأقل ونحوها من الجوهر واللآلئ(٣٤).

وكان الناصر يرغب فى أصناف الجوهر، فجلبها إليه التجار من الأقطار، وشغف بالجوارى السرارى فحاز منهن كل بديعة الجمال، وبلغ عددهن ١٢٠٠ وصيفة. وجهز له إحدى عشرة ابنة بالجهاز العظيم، فكانت أقلهن جهازًا بـــ٨٠٠ ألف دينار، وزوجهن لمماليكه، كلك جهَّز جماعة من سراريه وجواريه وكل من تحسن بخاطره بقريب ذلك وبمثله وأكثر منه.

واستجد النساء فى زمانه الطرَّحة، كل طرحة بعشرة آلاف دينار وما دون ذلك إلى خمسة آلاف دينار، والفرَجيات بمثل ذلك، واستجد النساء فى زمانه الخلاخيل الذهب والأطواق المرصعة بالجواهر الثمينة والقباقيب الذهب المرصعة والأزر

الحرير وغير ذلك[٣٥].

- **علاقة الملك الناصر بالمغول:**

أما عن علاقة الناصر بالمغول، فإنَّ الملك أولجاتيو ملك مغول فارس الذى خلف غازان بعد وفاته بادر إلى مصالحة الملك الناصر، وخطب وده لإقامة علاقات طيبة بين دولته ودولة المماليك، لكن هذه المبادرة لم تأت بما أراده الملك المغولى.

ولكن ما لم يتحقق لأولجاتيو تحقق لابنه بوسعيد سنة ٧١٦ هـ/ ١٣١٦م، فقد قام بوسعيد بتوقيع معاهدة صلح مع الناصر، واستمر هذا الصلح قائمًا بينهما حتى وفاة بوسعيد[٣٦].

ولمَّا مات بوسعيد ضعفت دولة مغول فارس والعراق، ورغم هذا الضعف فإن حكومة الملك الناصر احترمت تعهدها معها ولم تقم بشن حرب عليها، وانصرف الناصر وقتها عن الحرب إلى إصلاح أحوال البلاد[٣٧].

وفى ذات الوقت استمرت علاقة الناصر الطيبة مع مغول القبجاق (القبيلة الذهبية) استمرارًا للعلاقة الطيبة التقليدية القديمة بين هذه الدولة ودولة المماليك البحرية. وقد تواصل تبادل الهدايا بين حكام الدولتين، كما استمرت المصاهرة قائمة بينهما، فكما تزوج الظاهر بيبرس من ابنة الملك المغولى القبجاقى بركة خان، تزوج السلطان الناصر من أميرة مغولية تمت بصلة القرابة للملك المغولى أزبك خان[٣٨].

واستمرت الصداقة والعلاقة الطيبة قائمة بين الطرفين حتى لقيت دولة مغول القبجاق نهايتها على يد «تيمورلنك» فى أواخر القرن الثامن الهجرى/ ١٤م، وتبعًا لذلك تلاشى أمر هذه الدولة من الوجود فى القرن التالى[٣٩].

* * *

والواقع فقد جاءت وفاة السلطان الملك الناصر سنة ٧٤١ هـ/ ١٣٤٠م إيذانًا بانتهاء فترة الاستقرار والازدهار والرخاء التى عاشتها مصر والشام فى عهد هذا السلطان. وإذا كان أبناء الناصر وأحفاده قد لبثوا فى الحكم قرابة نصف القرن بعد وفاة الناصر فإنَّ ذلك يرجع إلى حب الناس لبيت قلاوون عمومًا وللناصر على وجه الخصوص، وللسمعة الطيبة والمكانة الرفيعة والشهرة الواسعة التى تركها

الناصر محمد بن قلاوون فى قلوب معاصريه[٤٠].

ولقد تسلطن على مصر والشام ثمانية من أبناء الناصر محمد بن قلاوون في العشرين سنة الأولى التى أعقبت وفاتهُ، أى من سنة ٧٤١ - ٧٦٢هـ/ ١٣٤١ - ١٣٦١م، وفى العشرين سنة التالية تولى السلطنة أربعة من أحفاده حتى انتهت على أيديهم دولة المماليك البحرية لتحل محلها دولة أخرى للمماليك هى دولة المماليك البرجية. وكفانا لنعرف مقدار ما عانته البلاد من فوضى واضطراب وعدم استقرار بعد وفاة الناصر أنَّ بعض هؤلاء السلاطين تولى الحكم وعمره عام واحد، كما أنَّ بعضهم لم يستمر فى الحكم إلا بضعة أيام[٤١] مما كان له أثره على دولاب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى البلاد. كذلك فإنَّ صغر سن هؤلاء السلاطين وقلة خبرتهم ونقص درايتهم بالحكم أطمعت كبار أمراء المماليك وجعلتهم يتحكمون فيهم، وصار هؤلاء الأمراء الحكام الفعليين للبلاد من أمثال (قوصون) والأمير (يلبغا اليحياوى) والأمير (آقسنقر السلارى) والأمير (أرغون العلائى)، وغيرهم.

ومن هؤلاء من ينتسب إلى المماليك الجراكسة؛ الأمر الذى يدل على ازدياد نفوذ هؤلاء الشركس فى البلاد، وإلى تمكنهم آخر الأمر من انتزاع الحكم من المماليك البحرية وإسقاط دولتهم، وتوليهم سلطنة مصر والشام سنة ٧٨٤ هـ/ ١٣٨٢م على يد الأمير الظاهر سيف الدين برقوق.

هذه نظرة سريعة على حالة الاضطراب التى سادت مصر بعد وفاة الملك الناصر محمد بن قلاوون، تظهر الخسائر التى خسرتها مصر والشام بوفاة هذا الحاكم العظيم. ونقول: أنه بعد وفاة الناصر تولى السلطنة ابنه «الملك المنصور سيف الدين أبو بكر» بعهد من أبيه يوم الخميس حادى عشر ذى الحجة سنة ٧٤١ هـ، وقام الأمير (قوصون) بالوصاية عليه، ثم خلعه بعد ٥٩ يومًا من سلطنته، وأقام مكانه أخاه «علاء الدين كجك»، وكان علاء الدين طفلا فى الثامنة من عمره، وهو الثانى فى الترتيب من أولاد الناصر[٤٢]، وصار الأمير قوصون وصيًا عليه، وصار صاحب السلطان الفعلى فى البلاد دون السلطان، وكان الأمير قوصون قد اتصل بالملك الناصر محمد بن قلاوون وأحرز المكانة عنده، ولم يكن قوصون مملوكًا لكنه وفد إلى مصر من بلاد الترك بصحبة (خوند) ابنة (أزبك خان) التى تزوجت من الناصر محمد، وقد أعجب الناصر به وقربه إليه حتى صار ساقيه

الخاص، وأعظم مماليكه مع بكتمر الساقى.

وقد ترقى قوصون فى عهد الناصر فصار أمير مائة ومقدم ألف، وقام الناصر بتزويج إبنته له من فرط محبته له، وهى ثانى ابنة يزوجها الناصر لمماليكه، ثم تزايد أمر قوصون بعد وفاة الناصر، وتحكم فى أبنائه من بعده، فتنكرت قلوب أمراء المماليك له، وانقلبوا عليه وحاربوه وقبضوا عليه، ونهب العامة دوره وأمواله. وقام أمراء المماليك بخلع السلطان الأشرف علاء الدين يوم الخميس أول شعبان ٧٤٢ هـ/ ١٣٤١م، فكانت مدة حكمه خمسة أشهر وعشرة أيام[٤٣]، وقام الأمير (أيدغمش) بأمر الدولة، وبعث يستدعى من الكرك السطان «الملك الناصر شهاب الدين أحمد» بن الناصر محمد بن قلاوون، وكان مقيمًا بقلعة الكرك من أيام أبيه، وهو الثالث فى الترتيب من أولاد الناصر محمد[٤٤].

وكان العامة قد تجمعوا يوم الاثنين الخامس من شعبان بسوق الخيل وهم يحملون رايات صفراء وصاحوا على الأمير أيدغمش مطالبين بإمدادهم بالزاد والركاب ليذهبوا إلى الكرك لإحضار الملك الناصر أحمد إلى مصر، فوافقهم على ذلك، وزودهم بما يريدون، وسافروا من غدهم لإحضار السلطان[٤٥]. وقد كان ذلك أول تعبير شعبى عن رغبة شعب مصر فى اختيار حاكمه، وكان أكبر دليل على حب الشعب المصرى لبيت قلاوون ولأبناء الناصر محمد بن قلاوون.

ولم تطل مدة إقامة السلطان أحمد بالقاهرة، فقد اشتاق للعودة إلى الكرك بعد وقت قصير، وتنازل عن الحكم لأخيه السلطان «الملك الصالح عماد الدين إسماعيل» يوم الخميس ثانى عشر المحرم ٧٤٣ هـ/ ١٣٤٣م.

اتفاق العوادة وأبناء الملك الناصر محمد بن قلاوون:

توفى الناصر محمد وقد أنجب ١٤ ولدًا ذكرًا تولى الحكم من بعده ثمانية منهم، هم: أبو بكر، وكجك، وأحمد، وإسماعيل، وشعبان، وحاجى، وحسن، وصالح.

وتحدثت المصادر التاريخية عن شخصية لعبت دورًا مهمًا فى حياة ثلاثة إخوة أشقاء من أبناء الملك الناصر، وهم: إسماعيل وشعبان وحاجى، وهذه الشخصية هى امرأة جارية سوداء تُدعى «اتفاق العوادة»؛ وذلك لشهرتها بإتقان الضرب على العود[٤٦].

ويذكر أبو المحاسن اتفاق العوادة بقوله: «أنها كانت جارية سوداء، حالكة

السواد، اشترتها ضامنة المغانى بدون الأربعمائة درهم من ضامنة المغانى بمدينة بلبيس (بمحافظة الشرقية)، وعلمتها الضرب بالعود على الأستاذ «على العجمى العواد» فمهرت فيه، وكانت حسنة الصوت، جيدة الغناء، فقدمتها لبيت السلطان، فاشتهرت فيه حتى شغف بها الملك الصالح إسماعيل بن الملك الناصر محمد بن قلاوون، فإنه كان يهوى الجوارى السودان، وتزوج بها، ونالت عنده من الحظ والسعادة ما لا عُرف فى زمانها لامرأة[٤٧].

وكان الملك الصالح إسماعيل مغرمًا بالجلوس بقاعة الدهيشة، لاسيما لمّا ولدت منه اتفاق العوادة ولدًا ذكرًا، عمل لها فيه مُهمًا بلغ الغاية التى لا توصف[٤٨]. وقد توفى الملك الصالح يوم الخميس خامس شهر ربيع الآخر سنة ٧٤٣ هـ بسبب مرض القولنج[٤٩].

وتسلطن بعد الصالح إسماعيل أخوه وشقيقه سيف الدين شعبان ولُقب بالكامل[٥٠]. وقد أخذ السلطان الملك الكامل فى تدبير مملكته والنظر فى أمور الدولة، ثم بدا له أن يخطب بنت الأمير بكتمر الساقى، فامتنعت أمها من إجابته واحتجت عليه بأنه متزوج من شقيقتها، وأنه ليس له أن يجمع بين أختين إلا أن يطلق أختها. وكان أول من أعرس بابنة الأمير الساقى أخوه آنوك، ومات آنوك عنها وهى بكر، فتزوجها من بعده أخوه أبو بكر، ولمّا قتل أبو بكر تزوجها من بعده أخوه الصالح إسماعيل، ومات عنها أيضًا، فحصل لها حزن شديد من كون تغير عليها ثلاثة أزواج إخوة فى هذه المدة اليسيرة، فلم يلتفت الملك الكامل إلى كلامها وطلق أختها، ثم عقد عليها ودخل بها. وفى نفس الوقت كان الملك الكامل قد شغف باتفاق العوادة جارية أخيه الملك الصالح شغفًا زائدًا، وتم له الزواج منها[٥١].

وفى أول شهر ربيع الآخر سنة ٧٤٦ هـ، مات ابن السلطان من بنت بكتمر الساقى، ووُلد له من اتفاق العوادة محظية أخيه ولد سماه «شاهنشاه»، وسُر به سرورًا عظيمًا زائدًا، وعمل مهمًا عظيمًا مدة سبعة أيام[٥٢].

وجاءت نهاية الملك الكامل شعبان على يد مماليكه، بعد مدة قصيرة من حكمه، فقد توفى وهو فى الحبس يوم الأربعاء ثالث جمادى الآخرة سنة ٧٤٧ هـ، ودفن مع والده الملك الناصر محمد فى قبة المنصور قلاوون ببين القصرين، وكان من أشد الملوك ظلمًا وعسفًا وفسقًا.

ثم تولى السلطنة بعد الملك الكامل شعبان أخوه الملك المظفر حاجى بن السلطان محمد بن قلاوون، وهو السلطان الثامن عشر من سلاطين المماليك البحرية والسادس من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون[٥٣].

ولقد قام السلطان حاجى بإنزال جوارى أخيه من القلعة، وبلغت عدتهن خمسمائة جارية، وقام بتفريقهن على الأمراء، واحتفظ لنفسه باتفاق العوادة محظية الملك الكامل التى كانت أولا محظية أخيه الملك الصالح إسماعيل. وقد كان الملك الكامل يعشقها أيام أخيه فلما مات باتت عنده من ليلته. وقد نالت اتفاق العوادة من الحظ والسعادة عندهما ما لا عُرف فى زمانها لامرأة «حتى أنَّ الكامل قد عمل لها دائر بيت طوله اثنان وأربعون ذراعًا، وعرضه ستة أذرع، دخل فيه خمسة وتسعون ألف دينار مصرية، وذلك خارج عن البشخاناه (الناموسية) والمخاد والمساند. وكان لها أربعون بدلة ثياب مرصعة بالجواهر، وستة عشر بدلة حرير بدائر زركش، وثمانون مقنعة فيها ما قيمته عشرون ألف درهم[٥٤].

وفى يوم الأحد أول شوال سنة ٧٤٧ هـ تزوج السلطان حاجى ببنت الأمير تنكز زوجة أخيه الكامل. وفى آخر شوال طُلبت اتفاق العوادة إلى القلعة فطلعت بجواريها مع الخدام وتزوجها السلطان خفية، وعقد له عليها شهاب الدين أحمد بن يحيى الجوجرى[٥٥]، شاهد الخزانة، وهى من الوظائف الديوانية[٥٦]، وبنى عليها من ليلته، بعدما جُليت عليه، وفُرش تحت رجليها ستون شقة أطلس، ونُثر عليها الذهب، ثم ضربت بعودها وغنت فأنعم السلطان عليها بأربعة فصوص وست لؤلؤات ثمنها أربعة آلاف دينار[٥٧].

ويقول صاحب كتاب النجوم الزاهرة: «قلت: وهذا ثالث سلطان من أولاد ابن قلاوون تزوج بهذه الجارية السوداء، وحظيت عنده، فهذا من الغرائب، على أنها كانت سوداء حالكة السواد لا موَلّدة، فإن كان ذلك من أجل ضربها بالعود وغنائها فيمكن أن تكون هنالك من هى أعلى رتبة منها فى ذلك، وتكون بارعة الجمال بالنسبة إلى هذه، فسبحان المسخر!».

ويقول ابن تغرى بردى: «انهمك المظفر فى الملذات، وشُغف باتفاق حتى شغلته عن غيرها، وملكت قلبه وأفرط فى حبها، فشق ذلك على الأمراء والمماليك وأكثروا من الكلام عن ذلك حتى بلغ السلطان، وعزم على مسك جماعة منهم،

فمازال به النائب حتى رجع عن ذلك(٥٨).

خاتمة:

لقد اتضح لنا بعد الفراغ من سيرة السلطان الناصر محمد بن قلاوون أن بلاد مصر والشام لم تشهدا عهد حكم مثل عهده، عهد ساده الاستقرار والأمان مدة اثنتين وثلاثين سنة، هى مدة حكمه فى السلطنة الثالثة، بعد أن اكتمل شبابه وصلب عوده وهو فى الخامسة والعشرين من العمر. وقد استطاع بكل نشاط وهمة وقوة ورغبة فى الإصلاح وحبه لبلده أن يتخلص من المتربصين به، وأن يوقف الأمراء المماليك المتمرذين عند حدهم، وأن يضمن حب الناس له، خاصة المواطنين الفقراء منهم، بما وفره لهم من سلع رخيصة، وما بذله لهم من حياة كريمة، وما شيده من عمائر ومساجد، وما نجح فيه من رد أى عدوان على بلده بالجيش القوى الذى أنشأه، وبالأسطول الحربى الكبير الذى جاب البحار والمحيطات فى هيبة وفخار.

والواقع فإنَّ رحيل هذا الفارس عن الميدان عام ٧٤١ هـ، كان إيذانًا بانتهاء فترة الاستقرار والرخاء والازدهار الذى نعمت بها مصر والشام فى عهده، وعودة الاضطراب والفوضى وعدم الاستقرار لهما، وصحوة الأمراء المماليك المتمردين للعبث والتخريب والإضرار بالناس والعباد.

والحقيقة أنَّ حكم دولة المماليك البحرية فى السنوات الأخيرة من عهدها، والذى دام حوالى نصف القرن، وحكم خلاله أبناء الناصر محمد وأحفاده، واستمرار بيت الناصر فى الحكم تلك المدة لم يكن بسبب قوة هؤلاء ولا حسن أدائهم، ولكن ذلك يرجع إلى حب الناس لبيت قلاوون، وتمسكهم بهذا البيت ذى السمعة الطيبة والمكانة الراسخة والشهرة الواسعة التى تركها مؤسس هذا البيت الناصر محمد بن قلاوون فى قلب شعبه وفى قلوب رواده ومحبيه.

الحواشى

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، طبعة بولاق ١٩٠٧، جـ٢، ص ٢٣٦، ٢٣٧.

(٢) سعيد عاشور: مصر فى عصر دولة المماليك البحرية، القاهرة ١٩٥٩، ص ١٤، ١٥.

(٣) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ق٢، ص ٣٦٢.

(٤) عطية القوصى: تاريخ مصر الإسلامية، القاهرة ١٩٩٧، ص ٢١٢.

(٥) سعيد عاشور: مصر فى عصر دولة المماليك البحرية، ص ٩٢-٩٨.

(٦) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٢٩٣.

(٧) المقريزى: نفس المصدر والجزء، ص ٢٩٣.

(٨) القوصى: نفس المصدر السابق، ص ٢١٩.

(٩) القوصى: نفس المرجع السابق، ص ٢٢٠.

(١٠) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٢٩٣.

(١١) المقريزى: نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

(١٢) المقريزى: نفس المصدر، جـ٢، ص٢٤٠.

(١٣) سعيد عبدالفتاح عاشور: مصر فى عصر دولة المماليك البحرية، ص ٤٥.

(١٤) جمال الدين سرور: دولة بنى قلاوون فى مصر، القاهرة ، ص ٢٥٩.

(١٥) الخطط، جـ١، ص ٨٦، ابن إياس: بدائع الزهور، جـ١، ص ١٧٣.

(١٦) النجوم الزاهرة، جـ٩، ص ٤٢ وما بعدها.

(١٧) الروك كلمة مصرية قديمة قد أصطلح استعمالها للقيام بعملية قياس الأرض وحصرها فى سجلات وتثمينها، أى تقدير درجة خصوبة تربتها لتقدير الخراج عليها، ويقولون راك البلاد ويروكها أى فك زمامها، ويقابل الروك فى الوقت الحاضر عمليتى فك الزمام وتعديل الضرائب.

(١٨) المقريزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جـ١، ص ٨٧.

(١٩) ذكر المقريزى أنَّ الجزية التى فرضها المسلمون على أهل الذمة وقت فتح مصر كانت تُعرف بالجوالى، وأنها كانت تجبى منهم كل أول سنة.

(٢٠) كان هذا الساحل واقعًا على النيل ببولاق، ومكانه اليوم شارع ساحل الغلال ببولاق وما فى امتداده شمالاً من شارع ماسبيرو حتى نهايته البحرية. وقد استمر ساحل الغلال فى مكانه المذكور إلى سنة ١٨٩٩م، وفيها نُقل إلى مكانه الحالى على النيل باسم ساحل روض الفرج بشارع روض الفرج بالقاهرة.

(٢١) كان خص الكيالة كُشكًا كبيرًا يقيم فيه عمال تحصيل مكس الغلال فى ذلك الوقت، ومكانه اليوم على النيل بشارع ماسبيرو فى النقطة التى يتقابل فيها مع النيل.

(٢٢) هو ناصر الدين محمد بن عبدالله الماردى ابن الشيخى، والى القاهرة، المعروف باسم ذبيان، وقد توفى عام ٧٠٥ هـ.
(٢٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٩، ص ٤٥.
(٢٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزهرة، جـ٩، ص ٤٦.
(٢٥) ذكر المقريزى (الخطط، جـ١، ص ٨٧) أنه كان مقررًا من طرح الفراريج أنَّ لها ضُمانًا عدة من سائر نواحى أرض مصر، يطرحون على الناس الفراريج أى يعرضون عليهم الكتاكيت، فيلحق بضعفاء الناس من ذلك بلاء عظيم، وتقاسى الأرامل من العسف والظلم شيئًا كثيرًا، وكان على هذا العمل عدة ملتزمين، ولا يكون لأحد من الناس فى جميع الأقاليم أن يشترى فروجًا فما فوقه إلا من الضامن، ومن عُثر عليه أنه اشترى أو باع فروجًا من غير الضامن سُلط عليه العذاب.
(٢٦) المهتار لقب واقع على كبير كل طائفة من غلمان البيوت، كمهتار الشراب، ومهتار الطشت خاناه، ومهتار الركاب خاناه، ومعناه بالفارسية الكبير وتار بمعنى أفعل التفضيل، فيكون معنى المهتار: الأكبر (القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٥، ص ٤٧٠).
(٢٧) ذكر المقريزى عند الكلام على ذكر الخطط التى كانت بمدينة الفسطاط (جـ١، ص ٢٩٧) أن تجيب هم بنو عدى وسعد من كندة، ويغلب على الظن أنَّ هذه القبيلة كانوا ضمانًا للخانات التى تنزل بها الجوارى والعبيد لمصر لعمل الفاحشة؛ وذلك لالتزامهم بتحصيل الرسوم التى كانت مقررة على من ينزل بتلك الخانات.
(٢٨) أبو المحاسن: النجوم، جـ٩، ص ٥٠.
(٢٩) Lane Poole Stanley: A History of Egypte in the Middle Ages, p. 315
(٣٠) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٩، ص ١٦١
(٣١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٩، ص ١٦٨.
(٣٢) أبو المحاسن: نفس المصدر والجزء، ص ١٧٠.
(٣٣) أبو المحاسن: نفس المصدر والجزء، ص ١٧٣.
(٣٤) النجوم الزاهرة، جـ٩، ص ١٧٤.
(٣٥) نفس المصدر السابق والجزء، ص ١٧٦.
(٣٦) القوصى: تاريخ مصر الإسلامية، ص ٢٢٠.
(٣٧) القوصى: نفس المرجع السابق ونفس الصفحة.
(٣٨) سعيد عاشور: مصر فى عصر دولة المماليك البحرية، ص ٤٩.
(٣٩) سعيد عاشور: نفس المرجع السابق، ص ٥٠.
(٤٠) أبو المحاسن: النجوم، جـ٩، ص ١٦٤، ١٦٥.
(٤١) إبراهيم على طرخان: مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة، القاهرة ١٩٥٩، ص ٢.

(٤٢) المقريزى: الخطط، جـ، ص ٢٣٩.
(٤٣) المقريزى: نفس المصدر السابق والجزء والصفحة (اتفقت آراء الأمراء المماليك على قتل قوصون والخلاص منه، فأرسلوا إليه من قتله فى محبسه فى شهر شوال سنة ٧٤٢ هـ/ ١٣٤١م).
(٤٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص ٥٠.
(٤٥) نفس المصدر السابق، ص ٥٢.
(٤٦) ذكر لها صاحب الدرر الكامنة ترجمة طويلة فقال: «اتفاق الموّلدة الجنس، نشأت عند ضامنة المغانى ببلبيس، ثم انتقلت إلى ضامنة المغانى بمصر فعلمتها عند على العجمى ضرب العود، فقدمتها الضامنة لبيت الناصر فحظيت عند الصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون (ابن حجر العسقلانى، الدرر الكامنة، جـ١، ص ٢٤٠).
(٤٧) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص ٩٦.
(٤٨) ابن تغرى بردى: نفس المصدر والجزء، ص ٩٧.
(٤٩) ذكر المقريزى (الخطط، جـ٢، ص ٢٤٠) «أنَّ أمراء المماليك والعساكر ساروا لقتال الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون فى الكرك حتى أخذوه وقتل، فلما أحضرت رأسه إلى أخيه ورأها فزع، ولم يزل يعتاده المرض حتى مات.
(٥٠) ابن تغرى بردى: نفس المصدر والجزء، ص ٩٨. (هو السلطان الملك الكامل سيف الدين شعبان، وهو السابع عشر من سلاطين المماليك والخامس من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون).
(٥١) نفس المصدر السابق، ص ١١٩.
(٥٢) نفس المصدر السابق، والجزء، ص ١٣٢، ١٣٣.
ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، جـ١، ص ١٨٦.
(٥٣) هو السلطان الملك المظفر زين الدين حاجى، المعروف بأمير حاج ابن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، جلس على سرير الملك بعد خلع أخيه الملك الكامل شعبان، وقبض عليه وسُجن يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة سنة ٧٤٧ هـ، وكان قد سجنه أخوه الملك الكامل شعبان.
(٥٤) المقريزى: السلوك، جـ١، ق٢، ص ٢٢٠.
(٥٥) نسبة إلى بلدة جوجر الواقعة على الشاطئ الغربى لفرع دمياط، (المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٤٧٠).
(٥٦) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٥، ص ٤٦٦.
(٥٧) فى السلوك أربعمائة ألف درهم.
(٥٨) النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص ١٥٤.

المصادر

- ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، بولاق ١٨٩٦.
- ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، طبعة بيروت، (د. ت).
- أبو المحاسن ، ابن تغرى بردى: المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، تحقيق محمد محمد أمين وسعيد عاشور، القاهرة ١٩٥٦.
- أبو المحاسن، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، القاهرة ١٩٧٠.
- ابن خلكان: وفيات الأعيان، القاهرة ١٨٩٢.
- ابن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور فى مسيرة الملك المنصور، القاهرة ١٩٧١.
- جمال الدين سرور: دولة بنى قلاوون فى مصر، القاهرة ١٩٤٧.
- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى، القاهرة ١٩٦٤.
- سعيد عبدالفتاح عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام، القاهرة ١٩٦٥.
- سعيد عبدالفتاح عاشور: مصر فى عصر دولة المماليك البحرية، القاهرة ١٩٥٩
- عبدالمنعم ماجد: دولة المماليك ورسومهم فى مصر، القاهرة ١٩٩٧.
- عطية القوصى: تاريخ مصر الإسلامية، القاهرة ١٩٩٧.
- القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، القاهرة ١٩١٥.
- المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ق٢، القاهرة ١٩٧٣.
- المقريزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، بولاق، ١٩٠٧.
- ياقوت الحموى: معجم البلدان، القاهرة ١٩٠٦.

المراجع الأجنبية:

- Goitein: Studies in Islamic History and Institutions, New york 1967.

- Muir, W: The Mamlukes, or slave Dyrasty of Egypt, London 1940.
- Stanely Lane – pool: A History of Egypt in the Middle sges, London, 1892.
- Wier, G: L'Egypte Arabe, t.IV, Paris, 1937.

بطانة السوء الحاكمة فى البلاط الأيوبى
ودورها فى نقل الحكم
من البيت الصلاحى إلى بيت العادل

د. أميرة مصطفى أمين يوسف

أستاذ مساعد في تاريخ العصور الوسطى- بقسم التاريخ

جامعة الملك عبد العزيز - كلية التربية للبنات بجدة

(الأقسام الأدبية)

توفى السلطان صلاح الدين الأيوبى(١) فى دمشق في يوم السابع والعشرين من شهر صفر سنة ٥٨٩هـ(٢) - ١١٩٣م، وقد ذكر القاضى بهاء الدين بن شداد(٣) «إنه كان يومٌ لم يصب المسلمون والإسلام بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدين»(٤). أما العماد الأصفهانى(٥) فقد غلبه الحزن على وفاته ففاضت قريحته بالقول «لقد مات بموته رجاء الرجال، وأظلم بغروب شمسه فضاء الأفضال، وغاضت الأيادى، وفاضت الأعادى»(٦).

كانت وفاة صلاح الدين خسارة كبرى على العالم الإسلامى بوجه عام ومصر والشام بوجه خاص، ويكفى أنه باعتراف جمهرة من المؤرخين المسلمين والأوروبيين أنه كان أعظم شخصية شهدها عصر الحروب الصليبية مما دفعهم إلى الترحم عليه والإشادة بقوته وعدله وتسامحه وإنسانيته(٧). وقد أنجب صلاح الدين سبعة عشر ولدًا ذكرًا وبنتًا واحدة(٨)، وترك دولة مترامية الأطراف هى مصر والشام جميعه وديار بكر واليمن(٩).

وجرت عادة صلاح الدين فى حياته أنْ يبذل ويوزع ما يفتحه من بلاد على أقاربه، وكان أقرب الناس إليه إخوته وأبناء إخوته وأبناء أعمامه وقادته وأمراءه ومواليه، وذلك لأن أبناءه كانوا لا يزالون صغار السن(١٠). وقد أحس صلاح الدين بأن إدارة إمبراطورية شاسعة سوف تؤدى إلى مشكلات خطيرة فحاول أن ينظمها

بنفسه، وأن يجعل أمراءه وخاصته يقبلون حله، ففى سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م أعلن نصوص وصيته الأولى[١١] والتى تتضمن تولية ابنه العزيز عثمان على مصر[١٢]، وأن يكون الوصى عليه ابن عمه تقى الدين عمر[١٣]، وأن يتولى ابنه الأفضل[١٤] الشام بوصاية من عمه العادل، الذى أوكل إليه إلى جانب ذلك الإشراف على مدينة حلب[١٥].

وجعل صلاح الدين مدة الوصاية قاصرة على الوقت الذى يرى المسلمون فيه أن أولاده أصبحوا قادرين على الاستقلال بالحكم، وأن يبقى للأوصياء ما بأيديهم من إقطاع[١٦].

وأستشعر صلاح الدين من إخوته وأبناء أعمامه وأبنائهم طموحات وتطلعات للسيطرة على مملكته، وكان كل ما يشغل تفكيره هو الاستمرار فى مجاهدة الصليبيين واستئصال شأفتهم لضمان بقاء دولته في عقبه إذا ما حدث له مكروه فى ذلك الجهاد، لذا قرر فى سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م إعادة النظر فى وصيته السابقة، فأقطع ابنه الأفضل دمشق، وأقطع مصر لابنه العزيز بعد إقالة تقى الدين عمر من الوصاية عليه، وجعل أخاه العادل نائبا له بعد أن انتزع حلب منه[١٧]، وأقطع حلب لابنه الظاهر[١٨].

وهكذا نجد أن صلاح الدين قد وضع مصر والشام فى يد أبنائه الكبار، أما بقية أبنائه وإخوته وأبنائهم وقواده ومماليكه فقد منحوا إقطاعات ثانوية فى المملكة[١٩].

وعلى الرغم من التقسيمات السالفة الذكر إلا أن صلاح الدين أوصى لابنه الأفضل صاحب دمشق بالسلطنة من بعده[٢٠]، على أن تكون له السلطة العليا فى بقية أنحاء الدولة الأيوبية[٢١].

ولقد انتصر صلاح الدين على الصليبيين فى حطين سنة ٥٨٣هـ[٢٢] / ١١٨٧م، ثم تمكن من استرداد بقية مدن الساحل منهم، وتوج ذلك باستعادة بيت المقدس فى نفس السنة بعد أن ظلت فى أيديهم قرابة تسعين عامًا[٢٣]. وقد ساعد الملك العادل أخاه صلاح الدين فى تلك الانتصارات، وقام بدور كبير فى صلح الرملة[٢٤] سنة ٥٨٨هـ / ١١٩٢م، لذا فقد التمس من أخيه صلاح الدين أن يعطيه

البلاد الشرقية[٢٥]، فوافق صلاح الدين بشرط أن يتنازل العادل عن كل ماله في الشام ما عدا الكرك والشوبك[٢٦] والأردن ونصف إقطاعاته فى مصر[٢٧]، وقد أعلن العادل الرضا بذلك إلا أنه أخفى الكثير من الأسى فى نفسه، فمهاراته العسكرية وتضحياته مع صلاح الدين كان يجب أن يُنظر لها بعين التقدير[٢٨] خاصةً بعد أن زاد صلاح الدين بعد انتصارته على الصليبيين فى أملاك ابنيه الأفضل والظاهر؛ فالأفضل ضم إلى دمشق: جميع مدن الساحل وبيت المقدس وصرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين وجميع الأعمال إلى الداروم[٢٩]. أما الملك الظاهر فقد أضيف إلى أملاكه فى حلب: حارم وتل باشر وإعزاز وبرزيه ودربساك ومنيح[٣٠].

ولقد آلت السلطنة إلى الأفضل بعد وفاة أبيه فكتب الكتب إلى عمه وإخوته – الذين استقر كل منهم فى منطقة حكمه – يخبرهم بموته ثم انشغل بتدبير أمور دمشق[٣١]. وكان فيها يوم ذاك العديد من قضاة وأمراء وقادة أبيه صلاح الدين، ومن أهمهم القاضى بهاء الدين بن شداد «الذى اعتمد عليه الأفضل كل الاعتماد واحترمه غاية الاحترام، وكان يشاوره فى جليل الأمور ودقيقها»[٣٢]. ومن الأمراء والوزراء والقادة الوزير القاضى الفاضل[٣٣]، والأمير صارم الدين قيماز النجمي[٣٤]، وفخر الدين جهاركس[٣٥]، وفارس الدين ميمون، وشمس الدين سنقر الكبير[٣٦] وغيرهم.

ولما تولى الملك الأفضل السلطنة استوزر ضياء الدين نصربن محمد بن الأثير[٣٧]، وفوض إليه أموره كلها،ولكن ضياء الدين كان شابًا غرًا فحسن للملك الأفضل إبعاد أمراء أبيه وأكابر أصحابه، وأنْ يستجد له أمراء وأصحابًا غيرهم، وأشار إليه بقوله «هؤلاء خواص السلطان، وينظرون إليك بتلك العين، ويعتقدون أنَّ حقهم واجب وجوب الدين»[٣٨]، وأقنعه بأن دمشق وأعمالها لا تسعهم ومصر واسعة فسيحة لهم، وزيَّن له بأن من يوليهم من الغرباء سوف يعظمونه ويقنعون بأعطياته لهم، وساعده على ذلك القول جماعة من أصحابه ممن لا رأى عندهم ولا معرفة[٣٩]. واستمع الملك الأفضل إلى تلك الأقوال وأعرض عن أصحاب أبيه، ففارقه الكثير منهم إلى أخويه الظاهر والعزيز[٤٠].

وقد كان أول من خرج من دمشق القاضى بهاء الدين بن شداد لا بسبب هجر أو إعراض من الملك الأفضل، ولكن لأن أخاه الملك الظاهر صاحب حلب أرسل إليه يطلب منه أن يتحفه بالقاضى بهاء الدين ليكون عنده ويتيمن برأيه، ولتأثير الوزير ضياء الدين على الأفضل أجاب أخاه الظاهر على طلبه وسيَّر بهاء الدين إليه. وما أنْ وصل القاضى إلى حلب حتى صار من أقرب الناس منزلة عند الملك الظاهر الذى فوض إليه قضاء بلاده، «ولم تزل منزلته عظيمة وله الإقطاع الجليل والحرمة الوافرة التى لم يصل إليها أحد من المعممين»(٤١). أما القاضى الفاضل فقد استأذن الأفضل وغادر إلى الديار المصرية لما رأى من اختلال أحوال دمشق وسطوة الوزير ضياء على الأفضل، وهناك استقبله الملك العزيز استقبالاً حافلاً وعظمه غاية الإعظام وأحله محل والده، وصار لا يصدر أمرًا إلا عن رأيه ومشورته(٤٢).

كذلك فقد اتجه إلى مصر الأمير فخر الدين جهاركس، فولاه العزيز أستاذية داره. أما فارس الدين ميمون القصرى، وشمس الدين سنقر الكبير فقد غادرا دمشق إلى مصر على الرغم من ولايتهما على صيدا وأعمالها مخافة أن يقبض عليهما الأفضل ويسجنهما بتأثير من وزيره ضياء الدين(٤٣).

وللأمير صارم الدين قيماز شأن آخر مع الملك الأفضل فعندما استوحش صارم من الأفضل لجفوة وجدها منه، مضى إلى إقطاعه بالسواد فأرسل إليه الملك الأفضل يستعطفه ويسترضيه، ولكن الشخص الذى حمل رسالة الأفضل خان فيها وغيّر وبدّل وسوّل للأمير صارم العصيان، وكان قصد الرسول هو إبعاد صارم عن الأفضل؛ فازدادت وحشة صارم منه، وانتهى الأمر بانحياز صارم إلى الملك العزيز الذى أكرمه ورفع مكانته وصار من جلة أصحابه(٤٤).

ولم يبق عند الملك الأفضل إلا القليل من رجال أبيه صلاح الدين وأهمهم العماد الأصفهانى الذى قاسى من هجر الأفضل ووشاية وزيره ضياء به. وما كتبه العماد يظهر ما كان يعتمل فى نفسه من حزن وأسى «وكنت أنا ممن سيم البعد وسئم منه الود، وتفرد الوزير بوزره، ومد الجزرى فى جزره»، ولكن ما أجبر العماد على البقاء فى دمشق هم أهله وأملاكه، وبسبب ذلك فقد ازدادت وشايات الوزير ضده، وأوهم الملك الأفضل بأن العماد الأصفهانى «عزيز عبد العزيز وأنَّ

شكره للعزيز شاع، وجميل الأفضل له ضاع»[٤٥].

وفى الوقت الذى كان فيه الملك الأفضل يقرب الأجانب ويبعد الأقارب، كان العزيز بمصر يقرب أصحاب أبيه ويكرمهم[٤٦]، ولذا فقد عظم شأنه واجتمعت كلمة الأمراء والقادة على نصرته وتقرير قواعد ملكه، وليس ذلك فحسب بل رمى بعضهم الملك الأفضل بكل رذيلة، وكاشفوه بالعصيان، وحسنوا للملك العزيز الإستبداد بالملك والانفراد بالسلطنة[٤٧].

وبدأ الملك العزيز يتحين الفرصة المناسبة لذلك، وجاءه ما أراد، فقد أوعز الوزير ضياء الدين بن الأثير إلى الملك الأفضل بتسليم القدس إلى أخيه العزيز، وكانت من أملاكه لكثرة ما يصرف عليها من أموال[٤٨] «هو يحتاج إلى أموال ونواب وكلفة عظيمة»[٤٩]. واستحسن الملك الأفضل الفكرة وفوض أمر القدس إلى أخيه العزيز، فسر العزيز لذلك سرورًا عظيمًا، ولكن نواب القدس كانوا قد مدوا أيديهم إلى ثلث نابلس وأعمالها، وكان السلطان صلاح الدين قد أوقف ذلك الثلث على مصالح القدس، ولما سمع أولئك النواب بتسليم القدس إلى الملك العزيزخافوا من محاسبة العزيز لهم، فأرسلوا إلى الملك الأفضل يطلبون منه إبقاء القدس فى يده، وتعهدوا بأنهم لن يكلفوا الأفضل الصرف عليه من ماله، وأعلنوا إستعدادهم القيام بأمره من وقفه فقط. وقد رضى الأفضل بذلك، وكاتب أخاه العزيز يطلب منه إرجاع القدس له، ولكن العزيز كان قد أوكل ثلث نابلس وأعمالها[٥٠] إلى ميمون القصرى وسنقر الكبير بالإضافة إلى إقطاعهما فى صيدا وأعمالها[٥١].

وقد تأثر العزيز واستوحش وتكدر باطنه من أخيه[٥٢]، ومما زاد فى استحكام تلك الوحشة ثغرجبيل[٥٣] الذى كان من جملة الفتوح الصلاحية، إذ استعاده صلاح الدين الأيوبى في يوم الثلاثاء السابع عشرمن جمادى الأولى سنة ٥٨٣هـ[٥٤] / ١١٨٧م، ولكن الصليبيين تمكنوا من الاستيلاء عليه سنة ٥٩٠هـ[٥٥] / ١١٩٤م دون قتال[٥٦]. وعلى الرغم من خروج الملك الأفضل لاسترجاعه إلا أنه تعذر عليه، وظهر عجزه عن ذلك[٥٧]، فجاءت الفرصة الثانية للملك العزيز لأن أمراءه قالوا له «توانيت فطرقت البلاد، واستولى عليها الفرنج»[٥٨]، واتفق رأى أهل الحل والعقد بمصر على أن يكون حكم مصر والشام مجتمعًا للملك العزيز، فهو فى

نظرهم أولى أولاد السلطان بذلك، وأشاروا على الملك العزيز بالتوجه إلى دمشق لضمها إليه[٥٩]. وقد وجد الملك العزيز فى الأسباب السالفة الذكر وسيلة للخروج ضد أخيه خاصة أنه وجد تأييدًا ودعمًا من أمراء ورجال أبيه الذين أصبحوا فى كنفه، وبدأ فى الاستعداد لقصد الشام[٦٠].

ولما تحقق الملك الأفضل من نية أخيه فى الخروج بدأ يفكر فى الكيفية التى يمكن بها أن يثنيه عن عزمه، فرأى أن يكتب إلى أخيه بكل ما يجب من إعلاء كلمته[٦١] ، والاجتماع عليه، ويكون الأفضل من بعض القائمين بين يديه «طلبًا لتسكين الفتن ورغبة فى ذهاب الإحن»[٦٢]، ولكن وزيره ضياء الدين وبعض بطانته أنكروا عليه ذلك، وطلبوا منه تقوية عساكره، وقالوا له «أنت الكبير وإليك التدبير فجد واجتهد»[٦٣] ، وطمأنوه بأنهم بين يديه بقولهم «ونحن بين يديك، وكلنا عاقدون بالخناصر عليك»[٦٤]، ولكن الأفضل لم يؤثر الفتنة، بل أحب سلامة الإسلام بالصلح بينه وبين أخيه، فأرسل رسولاً إلى أخيه الملك العزيز يسأله عن سبب خروجه إلى الشام، إلا أنَّ الملك العزيز لم يصرح بالجواب[٦٥].

وتدخل العماد الأصفهانى – وهو أحد رجال صلاح الدين والذين بقوا فى خدمة الأفضل – وطلب من الملك الأفضل أن يعطيه فرصة ليكتب كتابًا من إنشائه إلى الملك العزيز يستعطفه فيه. وكان العماد يعى تمامًا أن العزيز لا يرد قلمه، وإذا أهدى إليه نصيحة قبلها منه، ولكن تلك البطانة السيئة أخبرت الأفضل أنَّ العماد يوالى العزيز في هواه لا فى هوى الأفضل، وطلبوا منه الجد والعزيمة الصادقة فى الاستعداد لمحاربة العزيز، وأنه لا اعتدال مع الاعتداء، وأخبروه أنهم سيطرحون نفوسهم تحت قدمه فهم عبيده وخدمه، وتساءلوا إذا كانت للملك الأفضل «الشوكة والسكة فلماذا الرقة والركة»[٦٦].

وأرسل الملك الأفضل لأخيه الملك الظاهر ولعمه الملك العادل وإلى الملك المنصور صاحب حماه[٦٧] والملك المجاهد صاحب حمص[٦٨] والملك الأمجد صاحب بعلبك[٦٩] يستنجد بهم ويخبرهم بقصد أخيه إليه، ويسألهم أن يعاونوه عليه[٧٠].

وقد وردت الرسل من جميع الأمراء سالفى الذكر بأنهم على عزم نصرته

ومساعدته، وأنهم لن يتأخروا فى الوصول عليه[٧١].

وخرج الملك العزيز من الديار المصرية بعساكره من الصلاحية والأسدية والأكراد[٧٢] فبلغ الأفضل ذلك فخرج للقائه دون أن ينتظر وصول النجدات إليه، وعسكر فى رأس الماء[٧٣]، ولم يشعر إلا بمقدم العساكر المصرية قد خالطت ساقيه وكادوا يكسبونه فولى منهزمًا بمن معه إلى دمشق، ودخلها في جمادى الآخر سنة ٥٩٠هـ / ١١٩٤م، فاستحلف أهلها، واتفق عليهم، ونصب آلات القتال على أسوارها[٧٤].

وقرر الملك العزيز منازلة دمشق، وفى تلك الأثناء وصل الملك العادل ووصل معه جميع الأمراء الذين استنجد بهم الملك الأفضل إلى دمشق، واتفقوا على حفظها تقديرًا منهم بأنَّ العزيز إنْ ملكَ! جمع بلادهم[٧٥].

وأرسل الملك العادل للملك العزيز يستعطفه بشأن أخيه الملك الأفضل، وطلب الاجتماع به، فقبل العزيز بذلك لأنه أدرك ألا قدرة له على البلد باجتماعهم[٧٦]ـ

وتقابل الملك العزيز وعمه الملك العادل بصحراء المزه، واقترح العادل أن يتصالح الأخوان[٧٧] ، وأن يضع كل منهما شروطه لذلك.

واختار الملك العزيز الأمير فخر الدين جهاركس استاداره، واختار الملك الأفضل العماد الأصفهانى لتقرير قواعد الصلح وكتابة شروطه، وأطلع الملك العزيز على تلك الشروط، وبدا له تعديل بعضها، وهنا برز ذكاء العزيز، واستخدم حربًا نفسية ضد أخيه الأفضل، فاختار رسول أخيه وكاتب أبيه العماد الأصفهانى لعمل تلك التعديلات «وهو كاتب البيت، ويمين الدولة، وبقلمه يتسدد الخلل» [٧٨].

وقد وجد العماد الأصفهانى نفسه فى موقف لا يحسد عليه، فإذا سمع الملك الأفضل بذلك سيصعب عليه ويعتب على العماد بسببه، وفي الوقت نفسه لم يستطع العماد أن يرد ما طلبه العزيز منه فعدل ما أراد. وما أنْ سمع الملك الأفضل بذلك حتى أصابه هم كبير، ولكن العماد وضح له وللملك العادل ما حدث لينفى عنه الريبة، وأطلعهما على الصورة الصحيحة[٧٩].

أما شروط الصلح التى ارتضتها جميع الأطراف فكانت كالتالى:

١-أن يكون للملك العزيز بيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين[٨٠] إلى جانب أملاكه في مصر.

٢- أن تكون دمشق وطبرية وأعمال الغور للملك الأفضل[٨١].

٣- أن يعطى الأفضل لأخيه الظاهر جبلة واللاذقية[٨٢].

٤- أن يكون للملك العادل بالديار المصرية اقطاعه الأول الذى أقطعه إياه صلاح الدين[٨٣] عندما كان أتابكًا للعزيز فيها.

٥- أنْ يُخطب للملك العزيز ببلاده وتنقش السكة باسمه.

٦- أن يكون الملك الأمجد صاحب بعلبك والملك المجاهد صاحب حمص مؤازريْن للملك الأفضل وتابعينْ له.

٧- أن يكون الملك المنصور صاحب حماه والأمير عز الدين بن المقدم صاحب بعرين منضمين إلى الملك الظاهر صاحب حلب ومؤازرين له[٨٤].

وبعد الموافقة على تلك الشروط خطب الملك العزيز ابنة عمه الملك العادل «خاتون» فزوجه إياها، وتم عقد العقد بحضور الملك الظاهر صاحب حلب[٨٥].

وقرر الملك العزيز الرحيل إلى مصر، فخرج الملك الظاهر والملك العادل والملك الأفضل لوداعه، ثم تفرق الملوك كل إلى بلاده،وعاد الملك العزيز إلى ديار مصر[٨٦].

أما الملك الأفضل فما إنْ عاد إلى دمشق حتى عاود وزيره وأصحابه وجلساؤه إفساد أحواله، ورموا أكابر أمرائه وكتابه بالخيانة، وقصدوا بذلك تشتيت الشمل الناصرى، فتمكنت الوحشة فى قلبه وقلوب من بقى من كبراء دولة صلاح الدين معه. ونظرًا لذلك فقد خرج من دمشق الأمير عز الدين أسامة صاحب عجلون وكوكب[٨٧] ، والأمير شمس الدين بن السلار وهما من كبار الأمراء الصلاحية. كذلك غادر دمشق القاضى محيى الدين بن أبى عصرون[٨٨]، واتجه الجميع إلى مصر للبقاء فى كنف العزيز[٨٩].

وقد استقبل الملك العزيز القاضى محيى الدين بن عصرون بحفاوة بالغة، وولاه

القضاء بالديار المصرية، وضم إليه النظر فى أوقافها[٩٠]، كما استقبل الاثنين الآخرين بمثل ما استقبل به القاضى ابن عصرون. وما أن استقر بهم المقام فى مصر حتى اجتمعوا بالملك العزيز وشرحوا له أحوال دمشق، وسطوة الوزير ضياء والحاجب جمال محاسن بن العجمي على الملك الأفضل، وأخبروه بأن أخاه الأفضل قد غلب على اختياره. وقال ابن عصرون له إنك إذا تركت الحبل على الغارب فلن تسلم يوم القيامة من حساب الله[٩١]، كذلك فقد أخافه بعض مماليك أبيه الناصرية من الأكراد والمماليك الأسدية الذين كانوا من جملة عساكره، وأوعزوا إليه بأنَّ هؤلاء المماليك يميلون إلى الأفضل، ولربما يقومون بإخراجه من مصر، ولا معالجة لذلك إلا بقصد دمشق والاستيلاء عليها، وطلبوا منه عدم الالتزام بقواعد الصلح السابقة حتى لا يحصل للدولة من الفساد ما لا يمكن تلافيه[٩٢]. يحدث كل ذلك والملك الأفضل بدمشق يقضى ليله ونهاره فى الشرب وسماع الأغانى والأوتار[٩٣]. وقد وصفه أبو المحاسن فى نجومه بالملك النوام؛ لأنه احتجب عن الرعية[٩٤]، واشتغل باللهو، وتظاهر بلذاته وصرف عليها سائر أوقاته[٩٥]، وفوض أمر مملكته إلى وزيره ضياء وحاجبه ابن العجمي، فأفسدا عليه الأحوال، وكانا سببًا فى زوال دولته؛ لأنهما استبدلا كبراء الأمراء والأجناد بأراذل الناس ففسدت أمور العباد[٩٦].

وجاء الخبر للملك الأفضل بأن عز الدين أسامة قال للملك العزيز «إن الله يسألك عن الرعية، هذا الرجل قد غرق فى اللهو والشراب»[٩٧] ، كما أخبره بما قاله ابن عصرون، فعند ذلك أقلع عما كان عليه وتاب وندم على تفريطه، وعاشر العلماء، وأزال المنكر، وواظب على الصلوات، وشرع فى نسخ مصحف بيده، وواظب على الصيام، واتخذ لنفسه مسجدًا يخلو فيه للعبادة[٩٨].

أما أخوه العزيز فقد تأثربتحريض الواصلين إليه من دمشق، وعزم على الخروج إلى الشام سنة ٥٩١هـ[٩٩]/ ١١٩٥م بعساكره، وما أنْ وصلت الأنباء إلى الملك الأفضل حتى اغتم لذلك، وهنا أشار عليه العقلاء فى دمشق بأن يكاتب أخاه ويلاطفه ويسترضيه وأن يقيم الخطبة والسكة فى دمشق له، فهو صاحب الديار المصرية، وعنده معظم العساكر الصلاحية، ولكن الأفضل ترك رأى العقلاء وقبل

ما أشار به عليه وزيره ضياء وهو الاستنجاد بعمه الملك العادل[١٠٠]. وكانت هذه هى البداية لخروج السلطان من عقب صلاح الدين فى دمشق.

وقد توجه الملك الأفضل إلى شرق الفرات حيث كان يقيم عمه فى قلعة جعبر[١٠١]، ودعاه إلى نصرته، وطلب منه التوجه إلى دمشق سريعًا، وأرسل الأفضل إلى نوابه فيها يأمرهم بإدخال عمه إليها، وأن يمكث فى قلعتها لحين عودته، وما ذلك إلا لأنَّ الأفضل كان شديد الوثوق بعمه الملك العادل[١٠٢]. وخرج من قلعة جعبر وتوجه إلى حماة للاستنجاد بصاحبها الذى أكد مساندته له[١٠٣]. وخرج الملك العادل من أملاكه فى شرق الفرات متوجهًا إلى دمشق، وفى طريقه عرج على حلب، واجتمع بالملك الظاهر، وطلب منه موافقته على المسير لنصرة الملك الأفضل وإصلاح ما فى قلوب الملكين من المضاغنة فوافقه على ذلك[١٠٤]. وانتهز الملك العادل فرصة وجوده فى حلب، واستشفع عند الملك الظاهر فى رجل يدعى «بدر الدين دلدرم» كان هو وبعض جماعته سجناء فى قلعة حلب[١٠٥]، فأجابه الظاهر إلى ذلك وأطلق سراحهم، فمضوا سريعًا إلى تل باشر بعد أن ضمن العادل ما عليهم[١٠٦].

ووصل الملك العادل إلى دمشق قبل وصول ابن أخيه الملك الأفضل إليها، ففتحت له أبوابها وقلعتها، واستقر مع عساكره فيها[١٠٧]. وما أنْ عاد الملك الأفضل حتى اجتمع شمل الاثنين بها. وحذر الملك الظاهر أخاه الأفضل من عمهما العادل، وطلب منه عدم تصديقه فيما يقول: «لا تصدق العادل لأنه لن يجديك نفعًا، وأنا أعرفه أكثر منك لأنى صهره وابن أخيه» ولكن الأفضل استبعد أذيته، واعتبره فى مقام أبيه، ولم يستمع إلى تحذير الملك الظاهر[١٠٨].

وأثناء وجود العادل فى دمشق شاهد من اختلال أحوالها ما يندى له الجبين،ولم تعجبه سيرة الوزير ضياء، فحذر الأفضل منه. وعلى الرغم من مبالغة الملك الأفضل فى إكرام عمه والخدمة بين يديه إلا أنه لم يستمع لنصحه فيما يخص الوزير ضياء، فحنق عليه العادل[١٠٩]. وسمع الأفضل بخروج أخيه الملك العزيز من مصر، وهنا أرسل فى استعجال نجدة الملك الظاهر الذى لم تكن عنده فى الحقيقة النية الصادقة[١١٠] لتلك النجدة؛ ويرجع سبب ذلك إلى أن الملك العادل عندما

استشفع لدلدرم عند الملك الظاهر ضمن منه الطاعة، ووعد بإجباره على الاستجابة لمطالب الملك الظاهر. كذلك فإن حماة وبعرين وتل باشر كانت مضافة لأملاك الظاهر، وكان أصحابها بموجب شروط الصلح السابقة بين الأفضل والعزيز من المؤازرين والتابعين للملك الظاهر، ولكنهم انحرفوا عنه، وانضموا إلى الملك العادل وساروا معه إلى دمشق[١١١]. وقد وضع الملك الظاهر شروطًا للحصول على نجدته وهى رد الخارجين عليه، وتسليمه تل باشر من دلدرم وجماعته[١١٢].

وتجاهل الملك العادل مطالب الملك الظاهر، أما الملك الأفضل فإنه مال مع الملك العادل، وأوكل أموره كلها إليه[١١٣]، فما كان من الملك الظاهر إلا أن أرسل للملك العزيز يزيد فى تحريضه وحضه على مقصده، ويؤكد وقوفه إلى جانبه. فرد العزيز بالموافقة والمعاضدة، وحلف كل منهما لأخيه[١١٤]. وخرج الملك العزيز من مصر إلى الشام بعساكره الصلاحية والأسدية والكردية وعسكر بالقرب من دمشق[١١٥]. أما الملك الظاهر فسار من حلب وعسكر فى بزاعه[١١٦]. وقبل التقاء الملكين – الظاهر والعزيز – سخر العادل مواهبه ودهاءه للوصول إلى أهدافه، فأوقع الانقسام فى صفوف عساكر العزيز؛ وذلك بمراسلة الأسدية من عساكره ووعدهم بالوعود الكبيرة، وأخذ فى إفسادهم عليه، وتنفير قلوبهم منه. كذلك فقد كاتب الملك العزيز سرًا يخوفه من الأمراء الأسدية ويغريه بإبعادهم[١١٧]، «فاستوحش الملك العزيز منهم واستوحشوا منه»[١١٨].

وعندما تمكن الاستيحاش من الأمراء والعساكر الأسدية والكردية عزموا على مفارقة العزيز، وأرسل مقدم الأسدية سيف الدين أيازكوش[١١٩] ومقدم الأكراد أبو الهيجاء السمين[١٢٠] إلى الأفضل والعادل يعلنان انحيازهما إليهما[١٢١].

وجاءت الأخبار إلى الملك العزيز وهو فى معسكره بأن خيام العساكر الأسدية أضحت خالية[١٢٢]، فلم يتأثر ولم يتزعزع، بل ثبت واستقر. وعندما طلبت منه العساكر الصلاحية اقتفاء أثرهم ومقاتلتهم رفض وطلب أن يتركوهم ليذهبوا أينما شاءوا، ففى ذلك الصفو الكبير من كدرهم، وكان معظم العسكر مفارقين للملك العزيز[١٢٣]. وسار الملك العزيز مع قلة من رجاله متوجهًا إلى مصر. أما المفارقون له من الأسدية ومن تبعهم من الأكراد فقد اتجهوا إلى دمشق لمقابلة

الملك العادل، وهناك أكدوا عليه بسرعة الرحيل إلى مصر، وأخبروه بأنَّ الملك العزيز قد سار في قلة من رجاله إليها بعد أن فارقه أغلب العسكر، وطلبوا منه أن يتحيَّن الفرصة قبل فوات الأوان، «فإن لم يسرع النهوض خلفه بالعساكر فات المقصود». وقد عرضت العساكر الأسدية على الملك العادل أن يسيروا هم فى المقدمة لكى يحولوا بين وصول الملك العزيز للقاهرة، وتعهدوا بانتزاع أملاكه بمصر، كما تعهدوا بأخذ العزيز باليد(١٢٤) أخذًا «هلموا إلينا ونحن نسلمكم إياه»(١٢٥). واقترحت تلك العساكر تقسيم البلاد بين الملكين – الأفضل والعادل – فيأخذ العادل دمشق، ويستقر الأفضل فى مصر بعد تملكها(١٢٦).

وأخبر العادل ابن أخيه الأفضل بما تم بينه وبين عساكر أخيه الأسدية والكردية وأمرائهما ففرح بذلك أشد الفرح، ولكن العادل زاد على قسمة الأسدية وطالب بأن يكون له ثلث مصر بعد امتلاكها إلى جانب دمشق، والثلثان للملك الأفضل. ولمَّا وقع الاتفاق بينهما رحلا مع عساكرهما طالبين الديار المصرية(١٢٧).

وفى أثناء الطريق أرسل الملك الأفضل عمه العادل إلى القدس ليتسلمها من نائب الملك العزيز عليها(١٢٨)، ثم سارا إلى مصر بعساكرهما يتقدمهما العساكر الأسدية والكردية الذين غدروا بالملك العزيز وفارقوه. وشاهد العادل أثناء الرحلة أنَّ العساكرجميعها ملتفة حول الملك الأفضل، فارتاب من ذلك وخشى ألا يفى له الأفضل بما اتفقا عليه، ولربما لا يمكنه من دخول دمشق(١٢٩).

وقد أخفى العادل تلك المخاوف في نفسه، ولكنه طلب من الجيش أن يسير فى هدوء وتؤدة ودون استعجال، وهذا يخالف ما طلبته منه العساكر الأسدية من السرعة حتى يتم اللحاق بالعزيز، وكان هدف العادل من ذلك هو إتاحة الفرصة للعزيزللوصول إلى مقر حكمه(١٣٠).

أما الملك العزيز فكان طوال الطريق خائفًا من العساكر الأسدية الموجودة فى القاهرة من أن يوافقوا أصحابهم الذين غدروا، ولكن ما أنْ وصل إلى القاهرة حتى وجد نائبه عليها ويدعى الأمير بهاء الدين قراقوش على عهده للملك العزيز، وتبعه في ذلك من بقى من العساكر الأسدية، فعند ذلك أكرمهم العزيز وأمنهم وأحسن إليهم، ثم استقر فى كرسى ملكه(١٣١).

وجاءت العيون إلى الملك العادل تخبره بوصول الملك العزيز إلى مصر واستقراره فيها، وعندئذ سر العادل لذلك، وأرسل سرًا إلى ابن أخيه العزيز يطلب منه الثبات، وأن يجعل بمدينة بلبيس من يحفظها، وطمأنه بأنه سيقف إلى جانبه، وتكفل بمنع الأفضل من مقاتلته(١٣٢). واستكمل الملك العادل رحلته مع الملك الأفضل وأخفى أمر وصول العزيز إلى القاهرة ومراسلاته معه، واستمع العزيز لنصيحة عمه العادل فوضع فى بلبيس حامية بقيادة الأمير فخر الدين جهاركس(١٣٣) مقدم الصلاحية، وما أن وصل الملك العادل والأفضل إليها حتى تفاجأ الأفضل والعساكر الأسدية والكردية بوصول العزيز إلى القاهرة، واستقرار ملكه فيها، وعندئذ قرر الملك الأفضل مقاتلة الحامية الموجودة فى بلبيس، ولكن العادل منعه من ذلك، فصمم الأفضل على الرحيل إلى مصر لمقاتلة العزيز فيها، فمنعه العادل وقال له: «مصر لك متى شئت، وإن أخذت مصر عنوة انخرقت الهيبة، وطمع فيها الأعداء»(١٣٤) . وقد دلت تلك القرائن على أن الملك العادل كان لا يؤثر السلطنة للأفضل، ولا يرى بتقدمه على العزيز(١٣٥).

أما العساكر الأسدية والأكراد فقد اشتدت مؤونتهم، وكثرت غراماتهم فى الوقت الذى غلت فيه الأسعار، وتعذرت الأقوات، فأظهروا ندمهم على ما فعلوا(١٣٦).

وجاءت الفرصة للملك العادل – الذى كان لا يضمر في باطنه إزالة ملك ابن أخيه العزيز – وأعلن أن المصلحة الشاملة فى الصلح وانتظام الشمل(١٣٧). وبعث الملك العادل إلى ابن أخيه العزيز يطلب منه أن يرسل له القاضى الفاضل ليتفق معه على ما فيه صلاح ذات البين(١٣٨).

وكان القاضى الفاضل مطاعًا في البيت الصلاحى لمنزلته عند صلاح الدين(١٣٩) ، ولكنه اعتزل بنفسه عنهم لما رأى من اختلال أحوالهم(١٤٠) ، وفساد أمرهم، فرفض تلك المهمة، ولكن الملك العزيز توسل إليه أن يلبى دعوة عمه لكى تنفرج تلك الغمة(١٤١).

وركب القاضى الفاضل من القاهرة إلى بلبيس، فتلقاه الملك العادل بأحسن تلق، ثم بدأ معه في كتابة شروط فى بنودها المصلحة الشاملة للجميع، وهى:

١- بذل القدس وفلسطين وطبرية والأردن بالإضافة إلى دمشق للملك الأفضل[١٤٢].

٢- أن يكون للعادل فى مصر ما كان له من السابق، وأن يقيم بمصرلتدبير أمور دولة العزيز[١٤٣].

٣- أن يعفو الملك العزيز عن الأمراء الأسدية والكردية،وأن يصفح عن جرمهم، ويرد إليهم اقطاعاتهم ليعودوا فى خدمته[١٤٤].

وبعد كتابة تلك الشروط تعاهد الملوك وتحالفوا، وعاد الأفضل إلى دمشق، وأقام العادل عند الملك العزيز بمصر لتدبيرقواعد ملكه[١٤٥]. وكان مكوث الملك العادل عند العزيز سببًا في انحراف الملك الظاهر عن العزيز وميله مرة أخرى إلى جهة الملك الأفضل[١٤٦].

وإذا تساءلنا عن الأسباب التى دفعت الملك العادل إلى اتخاذ ذلك الموقف نجد أنه كان شديد الذكاء والفطنة، فعندما شاهد اختلال أحوال دمشق حدثته نفسه بالإستيلاء عليها وتملكها، وصار يُعمل الحيلة لذلك. فلما قصد الملك العزيز دمشق للاستيلاء عليها عز ذلك على العادل فأوقع الخلاف بين العزيز وعساكره من الأسدية والكردية حتى فارقوه فأصبح فى قلة من العساكر، وأصبحت دياره مصر فى خطر. ولمًا شاهد محبة الأسدية للملك الأفضل والتفافهم حوله راسل الملك العزيز وطمأنه لكى يقدم المنة العظمى له بأن ساعده في دفع الخطر عنه لكى يهنأ في ملكه[١٤٧].

وأقام الملك العادل في مصر يدبر أمورها، ويرعى شئونها، ويقرر قواعد ملك ابن أخيه، فتمكن من التمكن الكلى[١٤٨]. ولكن وجوده فى مصر لم ينسه دمشق التى كان يتحين الفرص للوثوب عليها وضمها إليه.

وبدأ العادل وهو فى مصر ينفذ خطته، وبرز ما كان يخفيه، فمازال بالعزيز حتى أقنعه بانتزاع دمشق من الأفضل وإسناد أمرها إليه على أن يكون نائبًا له بها، وتعهد العادل بأن يجعل الخطبة والسكة فى جميع الممالك الأيوبية للملك العزيز، وأن يكون العزيز هو السلطان الأعظم مكان أبيه. ولم ينس العادل ابن أخيه الأفضل فاقترح تعويضه عن دمشق بعد انتزاعها منه بموضع صغير آخر[١٤٩].

أما المؤرخ ابن خلدون فقد أشار إلى أنَّ الملك العزيز هوالذى استمال العادل وأطمعه فى دمشق ليأخذها من أخيه ويسلمها له(١٥٠). وسواء أكان أى من الطرفين هو الذى أطمع الآخر فكان ما لابد منه وهو المسير إلى دمشق والاستيلاء عليها، ويرجع ذلك إلى أن الأخبار بمصر قد كثرت بما يعتمده الوزير ضياء الدين بن الأثير من الأحوال الرديئة والسير المذمومة فى دمشق(١٥١) ، فكثر شاكوه وقل شاكروه(١٥٢). وقد وجد العادل فى ذلك فرصة للرحيل بعساكر الملك العزيز إلى دمشق بعد أنْ وعد بإزالة ضياء الدين وطرده منها، وإصلاح ما فسد من الأحوال(١٥٣).

وكان رأى الملك العزيز أن يسير الملك العادل إلى دمشق لإصلاح أحوالها، ويقيم هو بمصرلترتيب أمورها، ولكن العادل كان يؤثر خروج الملك العزيز معه لعلو همته وسمو قدره وفرط يده وسعة صدره. وقد أدرك العادل أنَّ العساكرمع اختلافها تجتمع للملك العزيزفأشار عليه بذلك، وبينَّ له أن الدولة الصلاحية صلاحها بإدارته، وفلاحها بفلاحه «وبنهضتك ينهض جناحها وبسعدك يسعد نجاحها»(١٥٤)، وبيَّن له أن كلمة الإسلام لا تجتمع إلا عليه؛ فالصليبيون يتربصون بالمسلمين الدوائر. ولعل العادل بإصراره على خروج الملك العزيز أراد أن يكون له صفة شرعية فى الوثوب على دمشق وانتزاعها من الملك الأفضل، وأجاب الملك العزيز عمه إلى ذلك وقرر الخروج معه، وعند ذلك ضربت الخيام، ونصبت الأعلام، «وتكاملت العساكروتنامت واجتمعت وتضامت»(١٥٥) . ووصلت الأخبار إلى الملك الأفضل بعزم أخيه العزيز على قصد دمشق، فلم يصدق ذلك لوجود حلف وميثاق بينهما، ولما تم التحقق من ذلك أشار عليه شيوخ دمشق وأكابرها وعقلاؤها بأن يستقبل أخاه وعمه، وأن ينقاد إلى مطالبهما؛ فإن فعل ذلك لا يسعهما إلا قبوله؛ لأنهما إنْ غيرا عليه حالاً بعد ذلك«حلت بهم الغيرَّ وأرخت بقبح فعلهما السيَّر»(١٥٦)، فكاد أن يقبل بذلك لولا وزيره ضياء بن الأثير الذى أثناه عن ذلك الرأى، وأشار عليه بالعصيان، وقال له: «أنت أكبرالإخوة وأفضلهم، وما ثمَّ عجْز، وفى الغيب لله قضايا وله ألطاف وخفايا، ودمشق مدينة حصينة، وأهلها يحبونك ويؤثرونك»(١٥٧).

أما أخوه الملك الظافر المعروف بالمشمر فكان شابًا لديه حمية وأنفة، فقد تعهد بمؤازرة الأفضل، وأحضر المقدمين واستحلفهم، واستكثر من العدد والآلات، وتولى أسباب تحصين دمشق، ورتب الرجال حول البلد يتناوبون عليه لحفظه، وفرق الأمراء على الأبراج والأسوار(١٥٨).

وسار الملك الظاهر على نهج الملك الظافر، فأخذ جانب الأفضل نكاية فى عمه العادل، وأرسل إلى أخيه يشيرعليه بتحصين بلده، كما قوى عزمه على مقاتلة أخيه وعمه(١٥٩).

ولما تكاملت عساكر الملك العزيز وعمه العادل خرجا بجحافلهما وعساكرهما إلى الشام وعسكرا بالقرب من دمشق(١٦٠).

ولعبت الخيانة دورها آنذاك؛ فقد كتب أمراء دمشق وأكابر الدولة إلى الملك العزيز والعادل بسرعة الزحف على البلد وانتهاز الفرصة. وبلغت الخيانة ذروتها عندما قام رجل يدعى «العزيز بن أبى غالب الحمصي» بمراسلة الملك العزيز والعادل ووعدهما بأن يفتح لهما الباب الشرقى – الذى كان يتولى حفظه – لتدخل العساكر منه(١٦١).

ومما يستغرب له خيانة ذلك الرجل للأفضل على الرغم من ثقة الأفضل به، وإعتماده عليه، وكثرة إحسانه إليه(١٦٢).

وعندما توثق العادل والعزيز من الحمصي ضُرِب البوق، وزحفت العساكر على البلد فى يوم الأربعاء ٢٦ رجب ٥٩٢هـ / ١١٩٧م «فما صدهم عن البلد صاد، ولا ردهم راد»(١٦٣).

ولم تجد عساكر مصر فى طريقها غير الملك الظافر الذى قاتلهم مع عسكر الملك الظاهر صاحب حلب ظنًا منه أن عساكر دمشق تقاتل معه، ولم يعلم حقيقة ما حدث فى الباطن، فلما لم معه من يقاتل ولى منهزمًا(١٦٤).

ودخل الملك العادل ومعه عساكره إلى دمشق من الباب الشرقى(١٦٥)، وقيل من باب توما(١٦٦)،ولم يشعر الملك الأفضل إلا وعمه معه فى دمشق(١٦٧).

أما الملك العزيز فقد دخل من باب الفرج جهة الميدان الأخضر(١٦٨).

وخرج الأفضل لأخيه وعمه، وهنا أظهر العادل المصالحة له وأوهمه أنه سيبقيه على دمشق، وما ذاك إلا خوف من اجتماع العساكر وعامة البلد له(١٦٩).

وبقى الأفضل فى قلعة دمشق أيامًا، وكان يخرج كل يوم لملاقاة أخيه وعمه، وهنا تحركت الشفقة فى قلب العزيز على أخيه الأفضل، فأرسل إليه رسالة يطلب منه فيها الثبات وألا ينزل عن رتبته، ولا يرضى فقط إلا بإقامة الخطبة والسكة للملك العزيز، وأخبره فى رسالته أنَّ فى امتناعه عذراً للملك العزيز عند عمه العادل. وما أن وصلت تلك الرسالة إلى الأفضل حتى قام بإطلاع بطانته عليها فخوفوه، واعتبروا ذلك خديعة من العزيز، وطلبوا منه إطلاع الملك العادل على فحوى الرسالة ليشير عليه بالمصلحة(١٧٠). وقد أعطى المؤرخ ابن الأثير ذلك الأمر بعدًا آخر إذ أتهم العزيز بأنه كان فى مجلس شراب له فى دمشق، ولما أخذت منه الخمر مأخذًا جرى على لسانه أن يعيد البلد إلى الأفضل(١٧١). وما اتُهم به الملك العزيز يتنافى مع سيرته العطرة فى مصر. وما أن سمع العادل بذلك حتى جن جنونه، وعاتب العزيز أشد المعاتبة، وقال له: «أنا أبنى وأنت تهدم»، وعندئذ أنكر العزيز ذلك وانحرف عن أخيه الأفضل، وطلب منه تسليم دمشق وأعمالها، وأن يعوض عنها بقلعة صرخد(١٧٢)، «بعث إليه من أزعجه وأخرجه، وإلى صرخد أحوجه»(١٧٣) ، كذلك فقد أخذت بصرى من الملك الظافر عقابًا له،وكانت بيده منذ حلَّ إلى حلب(١٧٤).

وقد اطلع العزيز على خزينة دمشق فوجد اختلاسًا لبعض الأموال من الوزير ضياء، إلا أن الأفضل أقر بوصول المال إلى خزينته وبرأ وزيره من الخيانة(١٧٥).

وخرج الملك الأفضل بأهله متجهًا إلى صرخد، وخرج معه الوزير ضياء خروجًا ذليلاً ، إذ اختفى فى أحد صناديق الأفضل خوفًا من الظفربه وقتله. ومما يعجب له أن الملك الأفضل على الرغم من علمه بشؤم وزيره، وأن كل ما جرى عليه كان بسببه إلا أنه ضمه إليه وخاف عليه(١٧٦).

وهكذا خرجت دمشق من حكم الأفضل بسببين؛ أولهما: مشورة البطانة الفاسدة التى ترأسها الوزير ضياء الدين بن الأثير، وثانيهما: شدة وثوق الملك الأفضل بعمه العادل حتى أنه تجاهل نصيحة أخيه الظاهر ولم يعبأ بها.

وقد استقر العزيز فى دمشق أيامًا أظهر فيها العدل، وأبطل المكوس، وأزال الظلم، وفرح الناس بوجوده وظنوا أن مقامه سيطول بينهم. ولكنه لم يلبث أن أجمع على الرحيل إلى الديار المصرية، وكانت مدة مقامه بدمشق أربعة عشر يومًا(١٧٧).

وقد سلَّم الملك العزيز دمشق إلى عمه الملك العادل على حسب ما اتفقا عليه(١٧٨)، ورحل إلى دياره، وفى طريقه عرج العزيز على القدس وبها أبو الهيجاء السمين، وكان خائفًا من الملك العزيز لجرمه السابق، فعزم العزيز على قتاله، إلا أنه طلب العفو من الملك العزيز، وتعهد بأن يرحل من القدس، فأجيب إلى ذلك، وتسلم العزيز القدس، وجعل «سنقر الكبير» واليًا عليها(١٧٩).

وما أن تسلم الملك العادل دمشق حتى أمر بقراءة منشوره فى الجامع، وهوالمنشور الذى نص على تفويض دمشق وأعمالها إليه، وأنه نائب العزيز بها(١٨٠).

وأخذ العادل يعمل على تحقيق آماله وطموحاته، فأعاد توحيد دمشق تحت حكمه وسيطرته، إلا أنه أبقى الخطبة والسكة باسم العزيز(١٨١).

وقد استفاد الصليبيون والمسلمون على حد سواء من تلك الخلافات السالفة الذكر؛ فالصليبيون تمكنوا سنة ٥٩٣هـ / ١١٩٧م من الاستيلاء على بيروت من يد المسلمين(١٨٢)، وكانت بيروت من الفتوحات الصلاحية، فقد استعادها صلاح الدين من الصليبيين سنة ٥٨٣هـ(١٨٣)/١١٨٧م، وأوكل أمرها إلى الأمير عز الدين أسامة – أحد رجال صلاح الدين – فاستخدمها فى أعمال القرصنة، وكان يرسل السفن لقطع الطريق على الصليبيين فى الشام على الرغم من الهدنة التى كانت بينهم وبين المسلمين(١٨٤). واشتكى الصليبيون من ذلك إلى الملك العادل بدمشق وإلى الملك العزيز بمصر، فلم يمنعا أسامة من ذلك، وعندها توجه الصليبيون إليها لانتزاعها، وما أن سمع العادل بذلك حتى أرسل إلى بيروت من يخربها ويهدم سورها، فتم ذلك، ولم تبق إلا قلعتها التى منعهم أسامة من تخريبها وتكفل بحفظها(١٨٥).

وبقى أسامة فى قلعة بيروت هو وجماعة من جنده. وفى سنة ٥٩٣هـ /

١١٩٧م وصلت الشام جماعة كثيرة من الفرنج، انتشرت في الساحل، فخاف أسامة وجنده منهم، فهربوا، فبقيت قلعة بيروت خالية ليس فيها من يذب عنها، فعلم الفرنج بذلك، فاتجهوا إليها، وتمكنوا من الاستيلاء عليها، فملكوها بغير حرب، فلعن الناس أسامة لتفريطه فيها[١٨٦].

أما المسلمون فقد قيض الله لهم الملكان العادل والعزيز بدلاً من الملك الأفضل المتراخي في حرب الصليبين، فما أن آلت دمشق إلى الملك العادل حتى رد على استيلاء الفرنج على بيروت بمحاصرة يافا[١٨٧]، وكانت يافا منيعة الاستحكامات، ولكن لم تكن بها إلا حامية قليلة العدد من الصليبيين، ولم يكن في وسع هنرى كونت شامبين[١٨٨] Henry Count Champagn الذى تولى ملك بيت المقدس أن يعززها، ولذلك عرض على أملريك لوزيجنان[١٨٩] Amaric Lusignan حاكم قبرص أن يضم له يافا إذا تمكن من الدفاع عنها، حيث وجد هنرى أنه من الخير له أن تؤول يافا إلى القبارصة – وألا يأخذها المسلمون[١٩٠].

وأرسل أملريك لوزيجنان أحد باروناته ليتولى الدفاع عن يافا[١٩١]، ولكن ذلك البارون كان رجلا يميل إلى اللهو والعبث، وكان يمضى أيامه في المباذل والفجور، واتضح أنه ليس فى نيته مقاومة العادل[١٩٢] ؛ لأنه اصطحب معه زوجته، وقصد يافا مع عدد قليل من المرافقين، وعند ذلك وصل الملك العادل لمحاصرتها. وعندما وجد سكان القلعة أنفسهم تحت الحصار، ولما رأى قائدها قلة ما لديه من رجال، بعث إلى هنرى كونت شامبين يطلب إنجاده بالرجال والعتاد، وحذره بأنه في حالة عدم وصول النجدة ستدمر يافا وقلعتها[١٩٣]. وقد عز ذلك الأمر على ملك بيت المقدس هنرى، وقرر أن يخرج بنفسه للدفاع عنها، وعند ذلك حشد من يستغنى عنه من العساكر فى عكا، كما طلب من جالية البيازنة أن تبذل له الإمدادات[١٩٤] ؛ ولكن تأتى الرياح بما لا يشتهى السَفنُ، فقد سقط هنرى من على شرفة قصره أثناء استعراضه للعساكر التى ستتجه إلى يافا[١٩٥]. أما الملك العادل فقد استنجد بالملك العزيز فى مصر فجاءته عساكرها، كذلك وصلت إليه إمدادات من الجزيرة والموصل، وعندئذ سار إلى يافا فدخلها هجومًا بالسيف، وقتل مقاتليها وأعيان من بها من الفرنج، وامتنعت الحامية التى بقلعتها، فحاصرهم العادل، وفتحها عنوة،

واستباح أهلها، وامتلأت أيدى المسلمين بالسبى والغنائم منها(١٩٦). كذلك فقد استولى علي قلعتها، وأسر أغلب من كان فى داخلها، ومن جملتهم إيمرى برلياس وزوجته، وقد تمكن من نجا من أهلها من الهرب إلى كنيسة القديس بطرس أملاً فى وصول النجدات من عكا إليهم، إلا أن المسلمين تمكنوا من التسلق علي ظهر الكنيسة وأسقطوا قبتها وسقفها فوقهم، حتى أن العدد الأكبر منهم لقى حتفه،وألقى القبض على الباقين، وتم أسرهم(١٩٧) ، حيث بلغ مجموع ماسُبى من أهل يافا سبعة آلاف نفس بين ذكر وأنثى(١٩٨).

ولم يسكت الصليبيون على ما حدث فى يافا فاتجهوا إلى حصن تبنين بفارسهم وراجلهم وأحدقوا بالحصن وضايقوه، ونزل العادل قبالتهم، وأرسل عساكره لحمايته، إلا أنهم لم يستطيعوا ذلك، ونقب الفرنج أسواره(١٩٩)، وعند ذلك أرسل العادل إلى الملك العزيز يحثه على الخروج إلى الشام «إن حضرت وإلا فلا يمكن حفظ هذا الثغر»(٢٠٠).

وخرج الملك العزيز بعساكره من مصر متجها إلى تبنين،وطلب من عمه الملك العادل مناجزتهم من ساعة وصوله، ولكن العادل منعه من ذلك، فخاف الفرنج من المدد الذى قدم من مصر، فلما جنَّ الليل رحلوا عن تبنين عائدين إلى صور، وسار فى إثرهم الملك العزيز والملك العادل بالعسكر يلتقطون من ظفروا به منهم، فغنم المسلمون منهم شيئًا كثيرًا، وأمر العزيز بعد ذلك بإصلاح ما تهدم بالمنجنيقات من أسوارها(٢٠١).

وأبقى الملك العزيز العساكر برمتها عند عمه الملك العادل فى دمشق، وجعل إليه أمرالحرب والصلح، وعاد إلى مصر فى جمع قليل بسبب ما وصل إليه من أنَّ جماعة من الأمراء قد قرروا الفتك به وبفخر الدين جهاركس(٢٠٢). أما الملك العادل فقد والى الغارات على الفرنج وقصدهم بنفسه مرة بعد أخرى حتى أضجرهم وأسأمهم، فراسلوه فى طلب الصلح، فأجاب إليه، وتواثق الطرفان، واستقرت الهدنة بينه وبينهم ثلاث سنين(٢٠٣).

وأحكم العادل سيطرته على دمشق والكرك والبلاد الشرقية، مما مثَّل عبئًا كبيرًا عليه. وعلى الرغم من أنه عيَّن ابنه الملك المعظم عيسى نائبًا عنه فى الكَرك سنة ٥٩٢هـ/ ١١٩٦م إلا أنه عاد فولاه على دمشق سنة ٥٩٤هـ/١١٩٨م. وقد خلع

الملك العزيز على المعظم وخصه باللواء والسنجق، فدخل المعظم دمشق وقد قرت به العيون، وكان أعز أولاد العادل عنده، وأدناهم منزلة، وأقربهم إلى قلبه، لذا خصه بالكرك ودمشق منذ ذلك الحين(٢٠٤).

وفى سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٩م توفي الملك العزيز بمصر، ففجعت الرعية بموته فجعة عظيمة(٢٠٥)، وكان العزيز قد أوصى قبل وفاته بأن يكون ملك مصر لابنه المنصور من بعده، وأن يكون مدبره وأتابكه بهاء الدين قراقوش الأسدى، لأنّ عمُر المنصور يوم وفاة والده تسع سنين وشهور(٢٠٦). وأجلس الملك المنصور فى مرتبة أبيه، وأصبح قراقوش أتابكه، وحلفت الأمراء له، ولكن أعمامه الملك المؤيد والملك المعز امتنعا من الحلف إلا أن تكون الأتابكية لهما، ولكنهما عادا فحلفا(٢٠٧).

ولم يستمر ذلك الوضع طويلاً، فقد وقع الاختلاف بين أمراء الدولة، فرأى بعضهم فى قراقوش الأسدى اضطرابًا وضعفاً والملك لابد له من رجل فحل مهيب(٢٠٨). ورأى البعض تعيين الملك الأفضل ليكون أتابكًا للطفل، ورأى آخرون أن الملك العادل هو أولى الجميع بذلك(٢٠٩).

وتغلب الحزب الموالى للملك الأفضل، واتفقت كلمتهم على مكاتبته للقدوم إلى مصر، وأن يكون أتابكًا للملك المنصور لمدة سبع سنين، فإذا انتهى هذا الأجل سلم الأمر إليه، واشترطوا ألا يرفع الأفضل فوق رأس الملك المنصور سنجقًا، ولا يذكر اسمه فى خطبة ولا سكة، ولما اتفقوا على ذلك عرضوا الأمر على القاضى الفاضل فقال لهم لقد أصبتم الرأى، واخترتم الذى اختاره السلطان الملك الناصر لكم، كما أن الأفضل فى نظر القاضى الفاضل ألين عريكة وأسهل تناولاً من غيره(٢١٠).

وكتب الحزب الموالى للأفضل بما تم الاتفاق عليه، وطلب منه سرعة التوجه إلى مصر لاستلام ما أوكل إليه(٢١١). أما الحزب الموالى للعادل فقد رأى أنَّ الأفضل لا يصلح لأتابكية الملك المنصور، واتفقت كلمتهم على مكاتبه الملك العادل فهو أحق بها وأهلاً لها، وكان العادل يحاصر وقتذاك قلعة ماردين(٢١٢). أما الملك الأفضل فما أن وصله الخبر حتى خرج مسرعًا من صرخد فى تسعة عشر من رجاله متنكرًا خوفًا على نفسه من الملك العادل، حتى أن رحلته لم تستغرق سوى سبعة أيام، ودخل بلبيس فى الخامس من محرم من سنة ٥٩٥هـ (٢١٣) ١١٩٩م.

وخرج الأمراء والأعيان إلى بلبيس لاستقباله، وبعد أن قدموا له مراسم الاستقبال عادوا به إلى القاهرة، فخرج الملك المنصور للقائه، فترجل له الملك الأفضل، ودخل معه إلى دار الوزارة، وكانت مقرًا للسلطنة(٢١٤).

وكتب الملك الأفضل إلى عمه الملك العادل من القاهرة كتابًا يخبره فيه بأنه غير خارج عن أمره، وأنه تحت حكمه، ويستطلع أوامره ونواهيه فيما يعتمده.

ورد الملك العادل على الأفضل ردًا يتضح منه عدم موافقته على ما جرى، وطلب منه الالتزام بوصية أخيه العزيز، وكان لا ينبغى له الدخول إلى الديار المصرية(٢١٥).

وكان رد الملك العادل قاسيًا على الملك الأفضل، فاستشار الموالين له، فأشاروا عليه بقصد دمشق(٢١٦) واسترجاعها انتهازًا لفرصة غيبة الملك العادل عنها.

وقد ذكر بعض المؤرخين أن الملك الظاهر هو الذى أرسل إلى الملك الأفضل يحضه ويحرضه على سرعة السير إلى دمشق واهتبال تلك الفرصة لأخذها(٢١٧).

وخرج الملك الأفضل من مصر قاصدًا دمشق فى الثالث من شهر رجب سنة ٥٩٥هـ، وكان الملك العادل مازال يحاصر قلعة ماردين(٢١٨)، وما أن سمع بذلك حتى ترك حصارها لابنه الكامل وسار هو فى مائتى فارس إلى دمشق فوصلها قبل وصول الملك الأفضل إليها بيوم أو بيومين(٢١٩).

وما أن وصل الأفضل إلى الشام حتى اتجه إلى دمشق فزحف عليها بعساكره، وهاجم باب السلامة، وكاد من كان بها من العسكر أن يستسلم حتى أنهم نزلوا عن الأسوار(٢٢٠).

وتمكن العادل مع جماعة قليلة من جنده أن يتصدوا لهجوم عساكر الأفضل، بل تم إخراج من دخل منهم إلى دمشق، وتم إغلاق الأبواب، وأوكل على كل باب من يحفظه(٢٢١).

ولم يكتف العادل بذلك بل استخدم الدهاء والحيلة لكى يكسب رجال الأفضل إلى جانبه، فكاتب من كان بينه وبينهم صحبة، وطلب منهم أن يساعدوه فى إيقاف هجوم الأفضل عليه، وأوهمهم أنَّ كل ما يريده هوعدم إهانته وكسر ناموسه، وأنه

سوف يغادر دمشق مع أهله وحريمه إلى الشرق، فإذا فعلوا ذلك فلهم الأجر والثواب. وأرسل الملك العادل مع كتبه مالاً جزيلاً لهم(٢٢٢)، ونظرًا لأن المال يفعل الأعاجيب فقد أشار رجال الأفضل عليه بسرعة التوقف عن حرب عمه، وعليه أن ينتظر قدوم أخيه الملك الظاهر فيتشاور معه على ما فيه المصلحة، فتوقف الملك الأفضل عن القتال مجبرًا إلى حين قدوم الظاهر(٢٢٣).

ورحل الملك الظاهر من حلب لإنجاد أخيه، وبعث صاحب حماه شطرًا من عساكره معه، وكان قد وافق الملك الظاهر وحلف له، كذلك فقد خرج صاحب حمص مع عساكره وانضم إلى الملك الظاهر ومن معه(٢٢٤). ووصلت تلك النجدات إلى الملك الأفضل، وبدأ معهم فى تشديد الحصار على دمشق التى قلت فيها الأقوات، وعانى أهلها من قسوة الحصار وشدة الغلاء(٢٢٥) ما تمنوا معه الموت. ونظرًا لذلك فقد أرسل الملك العادل إلى الأمراء الصلاحية المقيمين فى القدس يستدعيهم إليه، وما أن وصلوا حتى تقوى الملك العادل بهم(٢٢٦).

وقد رأى أولئك الأمراء معاناة أهل دمشق، كما أنَّ الأموال تلاشت حتى أنه لم يبق فيها ما يدفع للأجناد والمقاتلين، وعند ذلك أشاروا على الملك العادل بالاستفادة من أمواله الموجودة فى الكرك وقلعة جعبر وإلا ستخرج دمشق من يده(٢٢٧).

كذلك كتب الملك العادل إلى ولده الكامل يطلب منه إنجاده بالعسكر والمال، وكتب إلى نائبه فى قلعة جعبر أنْ يسلم إلى الملك الكامل ما يطلبه منه، وما أن وصل الكامل إلى القلعة حتى تم تسليمه أربعمائة ألف دينار، وعندئذ خرج الكامل قاصدًا دمشق(٢٢٨).

ووصل الكامل بالعسكر والأموال فقويت نفس أبيه به قوة عظيمة، وأيقن بظهور الأمر والانتصار(٢٢٩). أما الأفضل والظاهر فقد تراجعا عن دمشق لشغب واختلاف وقع بينهما، فرحل الظاهر إلى حلب، وغادر الملك الأفضل إلى الديار المصرية(٢٣٠).

وقد أعاد الملك العادل ابنه الكامل إلى الشرق، وكان ابنه المعظم فى دمشق، أما هو فقد مضى مسرعًا متتبعًا إبن أخيه الملك الأفضل، فكان كلما رحل الملك

الأفضل من منزلة نزلها الملك العادل[٢٣١].

وجاءت العيون إلى الملك الأفضل لتخبره بتتبع عمه الملك العادل له، فخرج فى جمع قليل للقائه، والتقى العسكران فى موضع يقال له «السانح»، وغدرت العساكر التى كانت مع الأفضل به، فما أن وقع القتال حتى انهزموا وولوا الأدبار، وركب الملك العادل خلفهم إلى أن وصل إلى بركة الجب فنزل بها لمدة ثمانية أيام، وفى تلك الأثناء كانت الرسل تتردد بينه وبين الملك الأفضل[٢٣٢].

وأرسل العادل إلى الأفضل يطلب منه تسليم القاهرة، لأنها أعظم معاقل الإسلام، والملك العادل لا يحب كسر ناموسها، وطلب من الأفضل ألا يحوجه إلى أخذها بالقوة[٢٣٣].

واستشار الملك الأفضل الأمراء فرأى منهم تخاذلاً، فأرسل إلى عمه يعلن الاستسلام، وطلب منه أن يعوضه عن مصر بدمشق، فرفض العادل، فطلب منه حران والرها فرفض أيضا، ولم يوافق إلا على جبل جور وميافارقين وسميساط له، وعندما اتفق الطرفان سلم الملك الأفضل القاهرة إلى عمه العادل[٢٣٤].

وسار الملك الأفضل إلى صرخد مقر إقامته السابقة، ومن هناك بعث نوابه ليتسلموا دياربكر وكل ما وقع عليه الاتفاق مع الملك العادل، فسلمت جميعها إليه عدا ميافارقين التى امتنع نجم الدين أيوب بن الملك العادل من تسليمها[٢٣٥].

وترددت الرسل بين الأفضل والعادل حول تلك المدينة ولكن دون فائدة، وزعم الملك العادل أن ابنه قد عصاه، فأمسك الأفضل عن إرسال الوسطاء بعد تيقنه بأن ذلك كان بمواطأة من عمه[٢٣٦].

ولما استقر الملك للعادل فى القاهرة سنة ٥٩٦هـ[٢٣٧] ، أبقى الملك المنصور على اسم السلطنة حتى لا يغضب العساكر الصلاحية الذين وافقوا العادل شرط أن يكون أتابكًا للملك المنصور حتى يكبر ثم يتم تسليم البلاد إليه[٢٣٨].

وظل الملك العادل على ذلك فترة، ثم رفض ذلك جملة وتفصيلاً، وجمع بعضًا من الأمراء الصلاحية الذين كان يعلم ميلهم إليه، وقال لهم: «إنه قبيح بى أنْ أكون أتابكًا لصبى مع الشيخوخة والتقدم فى السن، مع أن الملك ليس بالميراث، وإنما هو

لمن غلب، ولقد كان يجب أن أكون بعد أخى السلطان الملك الناصر رحمه الله صاحب الأمر، غير أنى تركت ذلك إكرامًا لأخى ورعاية لحقه»(٢٣٩).

وأظهر العادل لأولئك الأمراء وضع الدولة بعد وفاة أخيه، وأن الاختلاف بين أبناء صلاح الدين ربما يخرج الملك من يد الأيوبيين جميعهم، ولذا وجب له القيام بأمر الحكم والنهوض بأعبائه خاصة مع اتساع الفتن. كذلك بين لهم أنه يخشى من أنْ يطرأ على أى من أبناء صلاح الدين وأحفاده ما طرأ على الأفضل، ولا أمان من اجتماع جماعة للمطالبة بعزل شخص وإقامة آخر، وأخيرًا أقنعهم بأن ابن العزيز صبى صغير، وأن من الأصلح له المضى إلى الكتاب ليتعلم، ويقام له من يؤدبه، فإذا بلغ أشده تعهد العادل بالنظر فى أمره ومصالحه(٢٤٠).

ووافق الأمراء الصلاحية والأسدية على تسليم حكم مصر للملك العادل، ولكن الملك العادل أراد أن يضفى على اغتصابه للحكم صبغة شرعية، لذا فقد جمع الفقهاء وناظرهم وطلب منهم الإجابة على سؤالين سيطرحهما عليهم؛ أمَّا أول تلك الأسئلة فهو هل يجوز ولاية الصغير على الكبير؟ فأجابه الفقهاء بأن الصغير مولى عليه. فطلب منهم الإجابة على السؤال الآخر وهو هل يجوز للكبير أن ينوب عن الصغير؟ وكانت إجابتهم بالنفى، وبرروا ذلك بأنه إذا كانت الولاية غير صحيحة فكيف تصلح النيابة(٢٤١). وما أن سمع العادل تلك الإجابة حتى قام وقطع الخطبة للملك المنصور، وخطب لنفسه ولولده الكامل من بعده. وعلى هذا يكون أول ملك العادل على مصر فى اليوم الذى خطب له فيها وهو يوم الجمعة ٢١ شوال سنة ٥٩٦هـ(٢٤٢) / ١٢٠٠م.

وبقطع الخطبة للملك المنصور وإقامة الخطبة للعادل خرجت السلطنة فى مصر من عقب صلاح الدين إلى أخيه العادل بسبب اختلاف الأمراء، ودهاء العادل ومكره، وتآمر بطانة السوء فى البلاط الأيوبى.

ولما استقر الملك بمصر للملك العادل استدعى ابنه الملك الكامل من الشرق وجعله نائبًا عنه بالديار المصرية(٢٤٣).

وكان العادل مبغضًا فى قلوب رعاياه حتى أنهم عملوا على قتله بأصناف من

الحيل مرات ومرات، ولولا أولاده لما ثبت ملكه، وذلك بخلاف صلاح الدين فإنه حفظ ملكه بمحبة الناس له(٢٤٤).

وإذا كان العادل مبغضًا من رعيته إلا أنه كان رجلاً مُسعدًا بسبب أولاده، ومن سعادته أنه خلف أولادًا لم يخلف أحد من الملوك أمثالهم فى نجابتهم وبسالتهم ومعرفتهم وعلو همتهم، فدان لهم العباد وملكوا البلاد(٢٤٥).

وله البنـــون بكـــل أرض منهـــم ... ملك يقود إلـــى الأعـــادى عـــسكرا
من كـــل وضـــاح الجبـــين تخالـــه ... بدءًا وإن شهد الـــوغى فغـــضنفرا
متقـــدم حتـــى إذا النقـــع انـــجلى ... بالبيض عن سبى الحريم تأخـــــرا
قوم زكوا أصـــلاً وطـــابوا محتـــدا ... وتدفقوا جودًا وراقـــوا منظـــرًا(٢٤٦)

الخاتمة

كان صلاح الدين نموذجًا حيًا للحاكم الصالح، وللقائد الفالح الفاتح لا تكرره الأيام، وقد اتفق مع إخوته وأعمامه فملكوا، واختلف أبناؤه وأبناء إخوته فهلكوا. وقد أحاط صلاح الدين نفسه بصفوة من الرجال الأفذاذ الذين كان لهم الأثر الكبير فيما بلغه من وعى فكرى ونضج عقلى، فتصدى للصليبيين وانتصر عليهم المعركة تلو الأخرى. أما ابناؤه فلم يسيروا على نهجه،وكانت البطانة السيئة التى أحاطوا أنفسهم بها هى الأداة التى ساهمت فى تزعزع أحوالهم، وتوسيع شقة خلافاتهم، وخروج ملك مصروالشام من عقب صلاح الدين وانتقاله إلى أخيه الملك العادل. وإذا كان صلاح الدين قد أدرك، ببعد نظره، ما لأخيه العادل من طموحات فحاول أن يحد منها بإعطائه إقطاعًا ثانويًا لايتناسب مع أطماعه، إلا أن العادل نجح عن طريق الصبر والمكر والدهاء والخديعة أن يحقق ما كان يصبو إليه، فصفا له الجو، وتخلص من ابن أخيه الأفضل، وخلصه الموت من ابن أخيه العزيز، فوَّحد مصر ودمشق تحت شعار أنَّ «المُلك ليس بالإرث، وإنما هو لمن غلب». ولكن إذا كان ذلك الشعار قد حقق به مبتغاه، إلا أنه لم يسر عليه إطلاقًا؛ فقد قسَّم العادل أملاكه على أبنائه؛ فأعطى ابنه الكامل حكم مصر، والمعظم عيسى دمشق، والأشرف

موسى حران، والأوحد ميافارقين، أما العادل فأبقى فى يده الإشراف العام والتام على جميع الممالك. وإذا كان العادل قد نجح فى توحيد مصر ودمشق والجزيرة تحت لوائه، إلا أنه وقع عليه عبء مواجهة الصليبيين الذين أحرزوا فى تلك الفترة بالمفاوضات الدبلوماسية ما يفوق ما أحرزوه بالحروب وبالقتال. ولقد استفاد الصليبيون من ذلك الانقسام الذى ساد البيت الأيوبى، والذى تسبب فيه الملك العادل وبطانة السوء التى أخرجت دمشق ومصر من عقب صلاح الدين المعتدل إلى عقب العادل الذين هدموا ما بناه مؤسس الدولة وزعيمها الخالد صلاح الدين يوسف بن أيوب.

الحواشى والتعليقات

(١) صلاح الدين غنى عن التعريف، ولكن من باب التذكير فقد ولد بتكريت سنة ٥٣٢هـ، ونشأ فى حجر أبيه أيوب، وربى فى الدولة النورية، ولاه نور الدين دمشق، ثم خرج مع عمه أسد الدين شيركوه إلى مصر فملكها. وكان شجاعًا سمحًا جوادًا مجاهدًا فى سبيل الله (سبط بن الجوزى: مرآة الزمان،الموسوعة الشامية،دمشق ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م،ح ١٥، ص ٤٢٧، وكان خليقا بالملك، شديد الهيبة، محببًا إلى الأمة، عالى الهمة، كامل السؤدد، جم المناقب، أكثر من الغزو، وكسر الفرنج مرات (الحنبلى: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، المجلد الثانى، ج٤، ص ٢٩٨).

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، المطبعة الأميرية، القاهرة،١٩٥٧م، ج٢، ص ٤١٩، ابن الأثير الجزرى: الباهر فى تاريخ الدولة الأتابكية، الموسوعة الشامية، دار الفكر ، دمشق ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، ج١٤، ص ٣٥٢، بن أبى جرادة: زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، دار الكتاب العربى، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م، ج٢، ص ٥٩٩، أحمد بن على الحريرى، الإعلام والتبين فى خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، الموسوعة الشامية، دار الفكر ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، ج ٢٣، ص ٣٣٦.

(٣) هو بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم، اشتهر بابن شداد؛ لأن شداد هو جده لأمه، توفى أبوه وهوطفل فتربى فى كنف أخواله، وكان مولده بالموصل سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٥م، وتوفى بحلب سنة ٦٣٢هـ/ ١٢٣٩م، ويعتبر معمرًا عاش ثلاثا وتسعين سنة، وقد اتصل بخدمة صلاح الدين الأيوبى وعينه قاضيًا لعسكره وللقدس الشريف، وظل ملازمًا له حتى وفاته (ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٢م، الطبعة الأولى، مقدمة المحقق.

(٤) ابن شداد: المصدر السابق، ص ٢٤٦.

(٥) ولد العماد الأصفهانى بأصبهان سنة ٥٩١هـ، وتوفى بدمشق سنة ٥٩٧هـ، وكان من العلماء المتقنين فقهًا وخلافا وأصولا ونحوًا ولغة، وله معرفة بالتواريخ وأيام الناس، وله فى البلاغة والإنشاء والنظم والنثر اليد الطولى والباع الممتد، لم تر العيون مثله،استخدمه صلاح الدين وأطلعه على سره، وكان يضاهى الوزراء، ولم يزل على ذلك حتى مات السلطان

واختلت الأحوال، فعند ذلك لزم بيته وأقبل على التصنيف بقية عمره (المقريزى: تراجم من المقفى الكبير، الموسوعة الشامية،دمشق، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م، ج ٢٥، ص ٤١٩ - ٤٢٦).

(٦) العماد الأصفهانى: الفتح القسى فى الفتح القدسى، الموسوعة الشامية، دمشق، ١٤١٦ / ١٩٩٥م، ج ١٣، ص ٤٢٩ - ٤٣٠.

(٧) عاشور: مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية ١٩٨٢م، ص ٦٠.

إن الحق ما شهدت به الأعداء، فقد اعتبره تشرشل عند كلامه عن سير أبطال بلاده من أعظم ملوك الأرض سياسة، بل إن أعداء الشرق الحديثين لما استعمروه كانوا يقدرون ما حققه صلاح الدين في جهاده مع الصليبيين، والمبادئ التى بثها بين أهل الشرق، فالمرشال اللينبى All enby قائد الجيوش البريطانية فى الشرق حينما وصل إلى القدس قال «اليوم انتهت الحروب الصليبية»، إشارة إلى أنها ضاعت من الأوروبيين باستيلاء صلاح الدين عليها، وعندما عادوا إليها قال الجنرال جورد Gouraud أمام قبر صلاح الدين حينما دخل سوريا «قد عدنا يا صلاح الدين».

(عبد المنعم ماجد: الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبى، مكتبة الأنجلو ١٩٥٨، ص ١٥٥، أما المصادر الإسلامية فمديح صلاح الدين فيها مما لا يمكن حصره.

(٨) العيني: عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، الموسوعة الشامية، دار الفكر، دمشق ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ج ٢٤، ص ٤٦٤ سيأتى ذكر أسماء من له صلة بالموضوع فى ثنايا البحث، أما الابنة فهى مؤنسة خاتون.

(ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص ٤٢٦).

(٩) ابن أبى جرادة: المصدر السابق، ج٢، ص ٥٩٩ - ٦٠٠.

(١٠) إبـــــراهيم عـــــلى الدين السيد: تاريخ الأيوبيين والمماليك، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م، ص ٩٤.

(١١) السيد الباز العرينى: الشرق الأدنى في العصور الوسطى/ (الأيوبيين والمماليك)، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٦٧، ص ١١٤.

(١٢) هو أبو الفتح عماد الدين عثمان، ولد فى مصر فى الثامن من جماد الأولى سنة ٥٦٧هـ، وكان فى غاية السماحة والكرم والعدل والرفق بالرعية والإحسان إليهم (ابن واصل: المصدر السابق تحقيق : جمال الدين الشيال، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، ج٣، ص ٨٣).

(١٣) تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، أبوه عمر كان ابن أخ صلاح الدين، ومما يدل علي عناية صلاح الدين بتقى الدين أن جعله كفيلاً على ولده العزيز بوصية سلطانية.
(محمد بن تقى الدين: مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق حسن حبشى، عالم الكتب، ص ج – هـ مقدمة المحقق)..

(١٤) اسمه نور الدين على ولقب بالملك الأفضل، وهو أكبر أبناء صلاح الدين، ولد بمصر سنة ٥٦٥ هـ ليلة عيد الفطر، وكان عمره يوم تولى الملك بعد وفاة أبيه نحوًا من أربع وعشرين سنة (العينى: المصدر السابق،ص ٤٥٦، ابن واصل، المصدر السابق، ج٢، ص ٤٢٣.

(١٥) هو سيف الدين أبوبكربن أيوب أخو السلطان صلاح الدين الأيوبى، ولد سنة ٥٤٠هـ، وكان رجلا حازمًا متيقظًا ذا مكر شديد وخديعة، عظمت هيبته فى القلوب، واتسع ملكه بعد أن استلب أملاك ابنى أخيه، وواتته السعادة، وكثر أولاده.
(ابن واصل:المصدر السابق، ج٣، ص ٢٧١).

(١٦) السيد الباز العرينى: المرجع السابق، ص١١٤، إبراهيم السيد، المرجع السابق، ص ٩٥.

(١٧) يوسف غوانمة: إمارة الكرك الأيوبية، دار الفكر، عمان، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ص ١٤٨، شاكر مصطفى: صلاح الدين، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م، ص ٢٥٥.

(١٨) ابن أبى جرادة: المصدر السابق، ج٢، ص ٦٠٠. والظاهر هو أبو المنصور غياث الدين غازى، ولد بمصر سنة ٥٦٨هـ، وكان حازمًا عادلاً حسن السياسة محبوبًا عند رعيته، ضم شمل البيت الصلاحى لما استولى عمه على الممالك، وأحسن إليهم، ولولاه بعد الله لكان قد تفرق شملهم (ابن واصل: المصدر السابق، ج٢، ص ٤٢٤، ج٣، ص ٢٤٣).

(١٩) للمزيد من التفاصيل عن تلك الإقطاعات انظر ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٤.

(٢٠) ابن فضل الله العمرى: مسالك الأبصار، الموسوعة الشامية، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، ج ٢٣، ص ٩٣، العينى: المصدر السابق،ص ٤٦٨، أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، الموسوعة الشامية،دار الفكر: دمشق ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م، ج٢٢، ص ٦٧، اسمت غنيم: تاريخ الحروب الصليبية، ١٩٩٦م، ص ١١١.

(٢١) عاشور: مصر والشام، ص٦٢.

(٢٢) حطين : هى موضع بين طبرية وعكا بينه وبين طبرية نحو فرسخين (٥ كيلو مترات).
(ياقوت الحموى: معجم البلدان،دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان، ج٢، ص ١٦٠).
وفى حطين دارات أشهر معركة فاصلة فى تاريخ الصراع الصليبى الإسلامى بين صلاح الدين والصليبين، فقد انتصر عليهم صلاح الدين انتصارًا حاسمًا وأسر ملكهم مع أعداد كبيرة

منهم، وتم قتل منْ استحق القتل منهم، وتعتبر حطين مفتاح الفتوح الإسلامية لصلاح الدين، فقد استرجع بعدها بيت المقدس وجميع مدن الساحل، وتم حصر الصليبين فى مدينة صور، وللمزيد من التفاصيل عن تلك المعركة انظر:

ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٧٦، ابن الأثير: الكامل، ج٩، دار الفكر، بيروت ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م، ص ١٧٨.

Duggan, Alfred: The story of the Crusades, 1097 – 1291,p 160, Theece, Hehrey: The Crusades, Random House, New York, p 185, Brundge, James: Thecrusades, 1962, p 158, Boase: Kingdoms and strongholds of the crusades, The Bobhs – Merrill company New york, p 137.

يوسف غوانمة: المرجع السابق، دار الفكر، عمان، ١٤٠٢، ١٩٨٢م، عبد المنعم ماجد، المرجع السابق، ص ١١٧.

(٢٣) ابن شداد: المصدر السابق، ص ٣٣٣، أبو الفدا، المصدر السابق، ص ٤٦، ابن الوردى: تتمة المختصر فى أخبار البشر، بيروت، ج٢، ص ١٤٧، أبو شامة: الروضتين فى أخبار الدولتين، فى الموسوعة الشامية، دار الفكر، دمشق ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م، ص ١٩، ص ٣٨٠، ابن كثير: البداية والنهاية ، بيروت ١٩٦٦م،ص ٣٢٣ اليافعى: مرآة الجنان وعبر اليقظان، بيروت، ج٣، ص ٤٧٤.

Pernoud, Regine: The crusades, New york, p 170 Boase, kingdoms and strongholds of the crusades, New York p 145, Brundage,James: The crusades,1962, p 159 – 160.

(٢٤) وللمزيد من التفاصيل عن ذلك الصلح انظر:

أبو شامة: المصدر السابق، ص ٣٨٠، ابن شداد : المصدر السابق، ص ٣٣٣؛

أبو شامة: مختصر كتاب الروضتين، تصنيف محمد بن حسن عقيل موسى الشريف، دار الأندلس، جدة، ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩م، الطبعة الثانية، ص ٣٥٨-٣٥٩.

(٢٥) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٢٠٩، أى كل ما فى شرق الفرات مثل حران والرها وسميساط والرقة وقلعة جعبر وميارفارقين وديار بكر.

(يوسف غوانمة: المرجع السابق، ص ١٧٣).

(٢٦) الكرك: كلمة أعجمية وهى اسم لقلعة حصينة جدًا فى طرف الشام من نواحى البلقاء فى جبالها بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس، وهى على سن جبل عالٍ تحيط به الأودية

(ياقوت: معجم البلدان، المجلد الثانى، ج٤، ص ١٣١). أما الشوبك فهى قلعة حصينة فى أطراف الشام بين عمان وأيلة والقلزم قرب الكرك (ياقوت: المصدر السابق، ج٣، ص ١٦١).

(٢٧) يوسف غوانمة: المرجع السابق، ص ١٦٧-١٦٨.

(٢٨) إبراهيم السيد: المرجع السابق، ص ٩٥.

(٢٩) وصرخد هى بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق، وهى قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة.

(ياقوت الحموى: المصدر السابق، المجلد الثالث، ج٥، ص ١٨٤).

وبصرى: قصبة كورة حوران وهى من أعمال دمشق.

(ياقوت الحموى: المصدر السابق، المجلد الرابع، ج٨، ص ٤٩٠).

وتبنين: هى بلدة فى جبال بنى عامر المطلة على بلدة بانياس بين دمشق وصور.

(ياقوت الحموى: المصدر السابق، المجلد الأول، ج٢، ص ٤٩١).

(٣٠) حارم: حصن حصين وكورة جميلة تجاه أنطاكية، وكانت من أعمال حلب، وسميت بذلك لأن العدو كان لا يستطيع الوصول إليها، كما أنها كانت حرمًا لمن فيها (ياقوت: المصدر السابق، المجلد الثانى، ج٣، ص ١٠٨).

وتل باشر: هى قلعة حصينة وكورة عظيمة واسعة فى شمال حلب، بينها وبين حلب يومان سيرًا بالأقدام، وأهلها نصارى أرمن.

(ياقوت: المجلد الأول، ج٢، ص ٤٥١).

وعزاز : هى بليدة فيها قلعة، ولها رستاق شمال حلب بينهما يوم سيرًا على القدم.

(ياقوت: المصدر السابق، المجلد الثالث، ج٣، ص ٣٢٤).

وبرزية: الصحيح أنها برزويه، وهى حصن قرب سواحل الشام على سن جبل شاهق يضرب به المثل فى الحصانة، وظلت فى يد الفرنج حتى استولى عليها صلاح الدين سنة ٥٨٤ هـ.

(ياقوت: المصدر السابق، المجلد الأول، ج٢، ص ٣٠٤).

ومنبج هى بلد قديم ومدينة كبيرة واسعة بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ.

(ياقوت: المصدر السابق، المجلد الرابع، ج٨، ص ٣٢٦).

أما دربساك فهى قلعة منيعة قريبة من أنطاكية.

(ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٩٣).

(٣١) ابن شداد: المصدر السابق، ص ٢٤٧، العماد الأصفهانى: المصدر السابق، ص ٤٤٥، أبو الفدا: المصدر السابق، ص ٦٤-٦٥.

أما المؤرخ أرنولد فيذكر أنه بعد وفاة صلاح الدين استحوذ أخوه العادل على السلطة لنفسه، وتحكم بأبناء أخيه، ودس السم للملك الأفضل حاكم دمشق فعالجه الأطباء من ذلك، فرحل للإقامة عند أخيه العزيز (ذيل تاريخ وليم الصورى فى الموسوعة الشامية، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٣م، ج٨، ص ٤٨٠-٤٨١) وحيث إنه انفرد بذكر تلك الحادثة التى لا تتماشى مع ما أجمع عليه المؤرخون المسلمون، لذا لا عبرة بما ذكره.

(٣٢) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٨.

(٣٣) هو الوزير مجير الدين أبو على عبدالرحمن ابن القاضى الأشرف بهاء الدين أبى المجد على بن القاضى السعيد، ولد بمدينة عسقلان سنة ٥٢٩ هـ، وتوفى سنة ٥٩٦ هـ، وعرف باسم القاضى الفاضل، شغل منصب الوزارة فى عهد صلاح الدين، وكانت له مكانة سامية فى الدولة، فكان الساعد الأيمن لصلاح الدين إذ جعله وزيره ومشيره، فكان لا يصدر أمرًا إلا عن مشورته، ولا ينفذ شيئًا إلا عن رأيه، ولا يحكم فى قضية إلا عن تدبيره، وكان يشار إليه بالسيف والقلم، وله ديوان عرف باسمه.

(العينى: المصدر السابق، ص ٤٧٠، آسيا سليمان نقلى: دور الفقهاء والعلماء المسلمين فى الشرق الأدنى فى الجهاد ضد الصليبيين خلال الحركة الصليبية، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٢م، مكتبة العبيكان، ص ١٣٢، على إبراهيم حسن: استخدام المصادر وطرق البحث، الطبعة الثالثة، مكتبة النهضة العربية ١٩٨٠م، ص ٨٠).

(٣٤) كان الأمير صارم الدين قيماز النجمى من أكبر أمراء الدولة الصلاحية، وهو مملوك نجم الدين أيوب بن شادى والد الملوك، أقطعه صلاح الدين إقليم السواد (ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٧).

(٣٥) هو أبو المنصور جهاركس بن عبدالله الناصرى الصلاحى، لقب بفخر الدين، وكان مقدمًا للعساكر الصلاحية، امتاز بالنبل وعلو الهمة (ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ١١، حاشية (١)).

(٣٦) هما أميران من أكابر أمراء الدولة الصلاحية.

(٣٧) أبو الفدا: المصدر السابق، ص ٦٧.

لقب الوزير ضياء الدين بأبى الفتح، ووالده هو نصر الدين نصر الله بن محمد بن عبدالكريم عبدالواحد الشيبانى الحرانى المعروف بابن الأثير، ولد ضياء سنة ٥٥٨هـ في جزيرة عمر، ولذا لقب بالجزرى، اتصل بخدمة صلاح الدين الأيوبى بشفاعة من القاضى الفاضل، ثم التحق بخدمة ابنه الأفضل سنة ٥٨٧ هـ، فأصبح وزيره ومستشاره وجليسه وأثيره، وهو صاحب «المثل السائرة» و«المعانى المبتدعة». وللوزير ضياء أخوان فاضلان هما عز الدين صاحب التاريخ المشهور: الكامل فى التاريخ، ومجد الدين أبو السعادات صاحب كتاب جامع الأصول فى الحديث (ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص١٠، ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٢م، ج٥، ص ٣٨٩-٣٩٦، على عبدالحليم محمود: الغزو الصليبى والعالم الإسلامى، عكاظ للنشر ١٤٠٢ هـ، ص ٤٠٠-٤٠٣).

(٣٨) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ١٠.

(٣٩) نفس المصدر: ص ١٠-١١.

(٤٠) ابن فضل الله العمرى: المصدر السابق، ص ٩٣، أبو الفدا: المصدر السابق، ص ٦٧.

(٤١) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٨.

(٤٢) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص١٢.

(٤٣) ابن واصل: نفس المصدر، ص ١١-١٢، النويرى: نهاية الأرب، الموسوعة الشامية، دمشق، دار الفكر ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٥م، ج٢٢ ص ٥٢٦، ابن أبى جرادة، المصدر السابق، ج٢، ص ٦٠٢.

(٤٤) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٧، أبو شامة: المصدر السابق، ص ٤٥١، المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، نشر محمد مصطفى زيادة، طبعة ثانية منقحة، ج١، ق١، ص ١٤٤.

(٤٥) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ١٣-١٧. وقد ذكر ابن واصل ذلك فى مؤلفه على لسان العماد.

(٤٦) أبو شامة: الروضتين، ص ٤٥٠.

(٤٧) ابن فضل الله العمرى: المصدر السابق، ص ٩٣، ابن أبى جرادة: المصدر السابق، ج٢، ص ٦٠٥.

(٤٨) أبو شامة: الروضتين، ص ٤٥٠.

(٤٩) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ١٥.

(٥٠) كان النائب على القدس الأمير على بن أحمد المشطوب، وعاونه على ذلك الاختلاس أحد الأمراء الأكراد (أبو شامة: الروضتين، ص ٤٥٠). ونابلس هى مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبلين مستطيلة لا عرض لها كثيرة المياه بينها وبين بيت المقدس عشرة فراسخ (ياقوت: المصدر السابق، ج٤، ص ٣٥٩.

(٥١) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ١٥.

(٥٢) نفس المصدر ونفس الصفحة.

(٥٣) هو ثغر مشهور فى شرق بيروت على بعد ثمانية فراسخ منها (ياقوت: المصدر السابق، ج٢، ص ٣٤) ويوجد فى هذا الثغر قلعة حصينة (القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، القاهرة ١٩٦٣م، ج٤، ص ١١١).

(٥٤) العماد الأصفهانى: المصدر السابق، ص ٧٠.

كان صاحب جبيل من جملة أسرى حطين، فطلب أن يطلق سراحه مقابل تسليم الحصن، فأجيب إلى ذلك، وكان صاحب جبيل من أعظم الفرنج وأشدهم عداوة للمسلمين.

(أبو الفدا: المصدر السابق، ص ٤٦).

(٥٥) النويرى: المصدر السابق، ص ٥٢٢.

(٥٦) كان يتولى أمر الحصن رجل كردي، فرغبه الصليبيون، وبذلوا له مالاً فسلم الثغر إليهم (ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ١٥، المقريزى: المصدر السابق، ج١، ق١، ص ١٤٤، النويرى: المصدر السابق، ص ٥٢٢-٥٢٣).

أما المؤرخ ستيفن رانسيمان فيذكر أن صاحبة الحصن كانت ستيفانى Stephani of Milly، وعندما رأت فساد الأحوال بعد موت صلاح الدين قررت استرجاعه، وتآمرت مع الأمير الكردى الذى يحكم جبيل فهيأ لها استعادته.

(تاريخ الحروب الصليبية، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٤١٧/١٩٩٧م ج٣، ق١، ص ١٧٠) وقد ذكرها عاشور باسم اتينت دى ميللى (الحركة الصليبية، ج٢، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٧١، ج٢، ص ٧٤٠).

(٥٧) المقريزى: السلوك، ج١، ق١، ص ١٤٤.

(٥٨) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٦، أبو شامة: المصدر السابق، ص ٤٥١.

(٥٩) أبو الفدا: المصدر السابق، ص ٦٧.

(٦٠) ابن واصل: المصدر الصابق، ج٣، ص ٢٦.

(٦١) القصد هو جعل الخطبة والسكة باسم العزيز.

(٦٢) أبو شامة: الروضتين، ص ٤٥١.

(٦٣) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٨.

(٦٤) أبو شامة: الروضتين، ص ٤٥١.

(٦٥) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٨.

(٦٦) نفس المصدر ونفس الصفحة.

(٦٧) هو ناصر الدين محمد بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، نشأ فى بسطة من العيش، فأبوه عمر ابن أخى صلاح الدين، وقد كان المنصور ممن يحبون الأدب، وأسهموا فيه بقسط وافر، ألف كتاب مضمار الحقائق وسر الخلائق. وللمزيد من التفاصيل انظر:

محمد بن تقى الدين عمر: المصدر السابق، مقدمة المحقق، ص ح – و. وحماة مدينة كبيرة عظيمة واسعة الرقعة تستقى الماء من نهر العاصى (ياقوت: المصدر السابق، ج٢، ص ١٨٠).

(٦٨) هو أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه، وهو ابن عم صلاح الدين الأيوبى (النويرى: المصدر السابق، ص ٥٢٠).

وحمص من مدن الشام، صحيحة الهواء، ومن أصح بلدان الإسلام تربة، وجميع أسواقها وسككها مفروشة بالحجارة، وهى كثيرة الماء والزرع والخضر والفاكهة (ابن حوقل: صورة الأرض، مكتبة الحياة ١٩٩٢م، ص ١٦٢-١٦٣).

(٦٩) هو بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب.

(النويرى: المصدر السابق، ص ٥٢٠).

وبعلبك: مدينة قديمة بينها وبين دمشق اثنا عشر فرسخًا من الساحل.

(ياقوت: المصدر السابق، ج١، ص ٣٥٨)

(٧٠) أبو الفدا: المصدر السابق، ص ٧١، ابن فضل الله العمرى: المصدر السابق، ص ٩٦-٩٧.

(٧١) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٩.

(٧٢) الصلاحية: هم مجموعة من العساكر ألفهم صلاح الدين وأطلق عليهم هذا الاسم، وجعل مقدمهم فخر الدين جهاركس. أما الأسدية فهم مجموعة العساكر التى سارعت مع أسد الدين شيركوه إلى مصر سنة ٥٦٤هـ، وانضم إليهم جيش شيركوه الذى أنشأه فى حمص باعتبارها إقطاعًا له

(عبد الله سعيد الغامدى: صلاح الدين والصليبيون، الفيصلية ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ص ١١٣ – ١١٤).

أما الأكراد فهم عددٌ من الكرد دخلوا فى سلك العساكر النظامية، وحصلوا على إقطاعات كبيرة مثلما حصل عليه المماليك من الترك.

(السيد الباز العرينى: المرجع السابق، ص ١٦٥).

(٧٣) رأس الماء هو مكان فسيح للحرب إلى الشمال الغربى من حوران (المقريزى: السلوك، ج١، ق١، ص ١١٨).

(٧٤) ابن واصل: المصدر السابق، ج١، ص ٣٠.

(٧٥) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج٩، ص ٢٣١

(٧٦) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٣٠، ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٢٣١.

(٧٧) ابن العبرى: تاريخ الزمان، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦م، ص ٢٢٩.

والمزة: هى قرية كبيرة غناء فى وسط بساتين دمشق بينها وبين دمشق نصف فرسخ (ياقوت: المصدر السابق، ج٨، ص ٢٦١).

(٧٨) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٣١-٣٣.

(٧٩) نفس المصدر، ص ٣٣.

(٨٠) ابن العبرى: تاريخ الزمان، ص ٢٢٩، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، بيروت، لبنان ١٣٩٩ هـ، ١٩٧٩، ج٥، ص ٣٣١

(٨١) ابن خلدون: المصدر السابق، ج٥، ص ٣٣١.

والغور: غور الأردن بالشام بين بيت المقدس ودمشق، وهو منخفض عن أرض دمشق وأرض بيت المقدس، ولذلك سُمى غور. (ياقوت: المصدر السابق، المجلد الثالث، جـ٦، ص ٤٠٠).

(٨٢) جبلة: قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب بالقرب من اللاذقية (ياقوت: المصدر السابق، ج٢، ص ٣١).

(٨٣) ذكر ابن العبرى أنها بعض قرى مصر (تاريخ الزمان، ص ٢٢٩).

(٨٤) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٣١-٣٢، المقريزى: السلوك، ج١، ق١، ص ١٤٥. وبعرين: هى بليد بين حمص والساحل، وفى لفظها خطأ والصحيح بارين (ياقوت: المصدر السابق، ج٢، ص ٣٥٧).

(٨٥) العينى: المصدر السابق، ص ٤٦٤، النويرى: المصدر السابق، ص ٥٢٢.

(٨٦) ابن فضل الله العمرى: المصدر السابق، ص ٩٧، أبو الفدا: المصدر السابق، ص ٧١؛ العينى: المصدر السابق، ص ٤٦٤، النويرى: المصدر السابق، ص ٥٢٥.

(٨٧) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٣٨-٣٩.

وعجلون مدينة كانت مبنية على جبل عوف الذى كان ينزله قوم من بنى عوف فنسب الجبل إليهم، وكانوا أولى بأس شديد، فلما بنى أسامة قلعة عجلون منعوه وقاوموه، ولكنه

اصطنع معهم اللين والسياسة وأوهمهم أنه بنى هذه القلعة لحمايتهم.

(يوسف غوانمة: المرجع السابق، ص ١٨٤).

أما كوكب: فهى قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية، وهى حصينة رصينة تشرف على الأردن (ياقوت الحموى: المصدر السابق، ج٧، ص ١٦٣).

(٨٨) كان فقيهًا شافعيًا، وكان من فضلاء عصره، ولد سنة ٤٩٢ هـ بالموصل ودرس بها، وقدم دمشق لما ملكها العادل نور الدين زنكى، وكان سفيرًا لصلاح الدين إلى الخلافة العباسية عندما أصبح سلطانًا، وشارك صلاح الدين فى موقعة حطين.

(آسيا النقيلى: المرجع السابق، ص ١٣٤-١٣٥).

(٨٩) المقريزى: السلوك، ج١، ق١، ص ١٤٦-١٤٧.

(٩٠) نفس المصدر، ص ١٤٧.

(٩١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، ج٦، ص ١٢٢-١٢٣.

(٩٢) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٣٩.

(٩٣) أبو الفدا: المصدر السابق، ص ٧١؛ العينى: المصدر السابق، ص ٤٦٤، ابن واصل، المصدر السابق، ج٣، ص ٣٩-٤٠.

(٩٤) ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج٦، ص ١٢٢.

(٩٥) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٤٠.

أشاع ندماؤه أن الملك العادل لما كان عنده حسَّن له ذلك، وطلب منه الإعلان بما هو عليه، وقال له لا خير فى اللذات من دونها ستر، فعمل بوصية عمه (ابن فضل الله العمرى: المصدر السابق، ص ٩٧، أبو الفدا: المصدر السابق، ص ٧١).

(٩٦) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٤٠، العينى: المصدر السابق، ص ٤٦٤، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج٦، ص ١٢٢.

(٩٧) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج٦، ص ١٢٣.

(٩٨) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٤، أبو الفدا: المصدر السابق، ص ٩٢، ابن فضل الله العمرى: المصدر السابق، ص ٩٧.

(٩٩) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٤١؛ ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج٦، ص ١٢٣، ابن العبرى: تاريخ الزمان، ص ٢٢٩.

(١٠٠) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٤١.

(١٠١) ابن خلدون: المصدر السابق، ج٥، ص ٣٣٢، ابن العبرى: تاريخ الزمان، ص ٢٢٩، ابن أبى جرادة: المصدر السابق، ج٢، ص ٦٠٣ . وقلعة جعبر: تقع فى أعالى الفرات مقابل صفين، وكانت تعرف بدوسر، متملكها رجل من بنى نمير يقال له جعبر بن مالك فسميت به (ياقوت: المصدر السابق، ج٧، ص ٨٣).

(١٠٢) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٢٣٤.

(١٠٣) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٤٣، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج٣، ص ١٢٣.

(١٠٤) ابن أبى جرادة: المصدر السابق، ج٢، ص ٦٠٢.

(١٠٥) دلدرم هو مقدم الياروقية وصاحب تل باشر، وكان أتباعه قد تكبروا وتحامقوا على الملك الظاهر وتقاعسوا عن خدمته فى حياة أبيه، وكانوا يعظمون بدر الدين دلدرم ويركبون كلهم فى خدمته حتى كأنه السلطان، وكان بأيديهم من الإقطاع خير ضياع، فلما ملك الظاهر حلب سلكوا معه من الحماقة ما كانوا يسلكونه من قبل، فاعتقل مقدمهم دلدرم فى قلعة حلب وقيده، وأخرج الباقين عن حلب وقبض إقطاعهم، وطلب من دلدرم تسليم تل باشر فامتنع (ابن أبى جرادة: المصدر السابق، ج٢، ص ٦٠١).

أما قلعة حلب فكانت رابضة على تل ضخم يقع فى وسط المدينة ويشرف عليها بأكملها، وكان لها سور وستة أبواب، وبها خمسة قاعات إلى جانب الصهاريج والآبار. وتعد قلعة حلب من الأبنية التاريخية التى يزورها السياح فى حلب (أكرم ساطع: القلاع والحصون فى سورية، دار دمشق، مكتبة أطلس ١٩٧٥م، ص ٥٤-٦٥.

(١٠٦) ابن أبى جرادة: المصدر السابق، ج٢، ص ٦٠٢.

(١٠٧) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٢٣٤.

(١٠٨) نفس المصدر، ج٩، ص ٢٣٥-٢٣٦.

(١٠٩) أشار العادل على الملك الأفضل بعزل الوزير ضياء عن الوزارة، وقال له هذا سيخرب بيتك.

(ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج٦، ص ١٢٣).

(١١٠) ابن أبى جرادة: المصدر السابق، ج٢، ص ٦٠٤.

(١١١) نفس المصدر ونفس الصفحة.

(١١٢) نفس المصدر ونفس الصفحة.

(١١٣) نفس المصدر ونفس الصفحة.

(١١٤) المقريزى: السلوك، ج١، ق١، ص ١٥٣.

انفرد ابن تغرى بردى بذكر أن العادل هو الذى كتب للعزيز يخبره بأنه معه، ويستحثه بالقدوم إلى دمشق.

(النجوم الزاهرة، ج٦، ص ١٦٣).

(١١٥) المقريزى: السلوك، ج١، ق١، ص ١٥٣.

(١١٦) ابن أبى جرادة: المصدر السابق، ج٢، ص ٦٠٥.

وبـــزاعة: هى بلدة من أعمال حلب فى وادى بطنان بين منبج وحـــلب، بينها وبين كـــل واحدة منهما مرحلة، وفيها عيون ومياه جارية وأسواق حسنة (ياقوت: المرجـــع السابـــق، ج٢، ص ٣٢٤).

(١١٧) كان سبب ذلك أن العزيز لما ملك مصر مال إلى المماليك الناصرية وقدمهم ووثق بهم ولم يلتفت إلى الأمراء الأسدية، فأنفوا من ذلك، ومالوا إلى أخيه الأفضل.

(ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٢٣٥، المقريزى: السلوك، ج١، ق١، ص ١٥٣).

(١١٨) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٤٦.

ويذكر ابن تغرى بردى أن العادل لما وجد أن العزيز قد أقبل مسرعًا إلى دمشق خاف من اجتماع أبناء أخيه عليه، ففعل تلك الحيلة (المصدر السابق، ج٦، ص ١٢٣).

(١١٩) هو مقدم العساكر الأسدية ويدعى بهاء الدين الأبيض، وكان فتى لأسد الدين، وكانت له أعمال حسنة (الحنبلى: شذرات الذهب، المجلد الثانى، ج٤، ص ٣٣١).

(ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٢٣٤-٢٣٥).

(١٢٠) أبو الهيجاء السمين: سمى بذلك لأنه كثير السمن، وكان من أكابر أمراء مصر ومقدم للعساكر الكردية

(ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٢٣٧).

(١٢١) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٢٣٤-٢٣٥.

(١٢٢) ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج٦، ص ١٢٣.

(١٢٣) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٤٨.

(١٢٤) ابن الأثير : الكامل، ج٩، ص ٢٣٥.

(١٢٥) ابن العبرى: تاريخ الزمان، ص ٢٢٩.

ومن الغريب أن الأسدية والأكراد كانوا يكرهون العادل، وقد دعتهم الضرورة لمحاباته

(ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج٦، ص ١٢٣-١٢٤).

(١٢٦) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٢٣٥.

(١٢٧) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٥١، ابن فضل الله العمرى: المصدر السابق، ص ٩٨؛ المقريزى: السلوك، ج١، ق١، ص ١٥٤.

(١٢٨) تسلم العادل القدس من نائب الملك العزيز جرديك النورى، وولى عليه أبو الهيجاء السمين.
(ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج٦، ص ١٢٤).

(١٢٩) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٢٣٥، ابن خلدون: المصدر السابق، ج٥، ص ٣٣٢.

(١٣٠) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٥٢.

(١٣١) المقريزى: السلوك، ج١، ق١، ص ١٥٤، ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٤٨-٥١.

(١٣٢) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٢٣٥.
وبلبيس هى مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام (ياقوت: المصدر السابق، ج٢، ص ٣٧٧).

(١٣٣) ابن خلدون: المصدر السابق، ج٥، ص ٣٣٢، ابن العبرى: تاريخ الزمان، ص ٢٢٩.

(١٣٤) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٢٣٥.

(١٣٥) ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج٦، ص ١٢٤، ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٥٢، أبو الفدا: المصدر السابق، ص ٧٢.

(١٣٦) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٢٣٥، ابن فضل الله العمرى: المصدر السابق، ص ٩٨، أبو الفدا: المصدر السابق، ص ٧٢.

(١٣٧) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص ٥٢.
يذكر المقريزى: أن سبب إعلان العادل الصلح هو أن الملك العزيز خاف أن يخرج الملك منه، فسير إلى عمه العادل رسولا يخبره بأنه أخطأ وأنه قد عزم اللحاق ببلاد المغرب، وسأله الاحتفاظ بحريمه وأولاده فرق له قلب العادل وسارع إلى الصلح.
(المقريزى: السلوك، ج١، ق١، ص ١٥٧).

(١٣٨) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٥٢.

(١٣٩) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٢٣٥، ابن خلدون: المصدر السابق، ج٥، ص ٢٣٢.

(١٤٠) ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج٦، ص ١٢٤.

(١٤١) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٥٣، ابن أبى جرادة: المصدر السابق، ج٢، ص ٦٠٥.

(١٤٢) ابن خلدون: المصدر السابق، ج٥، ص ٣٣٢.

(١٤٣) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٢٣٥، وقد ذكر ابن الأثير أن ذلك الشرط وضع لأن الأسدية والأكراد كانوا يبغضون العزيز، فإذا بقى العادل معهم فلا يستطيع العزيز منعه عما يريد.

(١٤٤) أيمن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٥٣؛ ابن أبى جرادة: المصدر السابق، ج٢، ص ٦٠٦.

(١٤٥) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٥٤.

(١٤٦) ابن أبى جرادة: المصدر السابق، ج٢، ص ٦٠٦.

(١٤٧) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٥٧.

(١٤٨) نفس المصدر ونفس الصفحة.

(١٤٩) نفس المصدر ونفس الصفحة.

(١٥٠) ابن خلدون: المصدر السابق، ج٥، ص ٣٣٢.

(١٥١) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٥٦.

(١٥٢) المقريزى: السلوك، ج١، ق١، ص ١٥٩.

(١٥٣) يذكر ابن تغرى بردى أن الملك العادل عندما وصلته الشكاوى من دمشق ضد الوزير ضياء أرسل إلى ابن أخيه الأفضل وطلب منه أن يرفع يد هذا الأحمق السيئ التدبير القليل التوفيق، إلا أنه لم يلتفت إليه (النجوم الزاهرة، ج٦، ص ١٢٥).

(١٥٤) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٥٨.

(١٥٥) نفس المصدر: ص ٥٩.

(١٥٦) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٥٩، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج٦، ص ١٢٥.

(١٥٧) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٥٩، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج٦، ص ١٢٥.

(١٥٨) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص ٦٠. والملك الظافر اسمه خضر، ولقبه مظفر الدين، وكنيته أبو الدوام وأبو العباس، وقيل له المشمر لأن والده لما قسم البلاد بين أولاده الكبار قال وأنا المشمر فغلب عليه هذا اللقب، وقد ولد بالقاهرة سنة ٥٦٨ هـ.
(ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٦٣ حاشية (١)).

(١٥٩) ابن فضل الله العمرى: المصدر السابق، ص ٩٩.

(١٦٠) ابن العبرى: تاريخ الزمان، ص ٢٢٩.

(١٦١) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٢٣٦؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج٥، ص ٣٣٢، ابن

العبرى: تاريخ الزمان، ص ٢٢٩.
(١٦٢) ابن خلدون: المصدر السابق، ج٥، ص ٢٣٢.
(١٦٣) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٦٢.
(١٦٤) نفس المصدر ونفس الصفحة.
(١٦٥) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٢٣٦.
(١٦٦) ابن فضل الله العمرى: المصدر السابق، ص ٩٩، أبو الفدا: المصدر السابق، ص ٧٣، ابن أبى جرادة: المصدر السابق، ج٢، ص ٦٠٨.
(١٦٧) ابن الأثير: المصدر السابق، ج٩، ص ٢٣٦.
(١٦٨) ابن فضل الله العمرى: المصدر السابق، ص ٩٩.
(١٦٩) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٢٣٦.
(١٧٠) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٦٦، المقريزى: السلوك، ج١، ق١، ص ١٦٤-١٦٥.
(١٧١) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٢٣٦.
(١٧٢) المقريزى: السلوك، ج١، ق١، ص ١٦٥، ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص٦٦؛ ابن فضل الله العمرى: المصدر السابق، ص ٩٩، على الحريرى: المصدر السابق، ص ٣٣٧، أبو الفدا: المصدر السابق، ص ٧٣
(١٧٣) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٦٦-٦٧.
(١٧٤) ابن فضل الله العمرى: المصدر السابق، ص ٩٩، أبو الفدا: المصدر السابق، ص ٧٣.
(١٧٥) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٦٤-٦٥.
(١٧٦) نفس المصدر، ص ٦٥، المقريزى: السلوك، ج١، ق١، ص ١٦٥.
(١٧٧) ابن فضل الله العمرى: المصدر السابق، ص ٩٩.
(١٧٨) على الحريرى: المصدر السابق، ص ٣٣٧؛ ابن فضل الله العمرى: المصدر السابق، ص ٩٩.
(١٧٩) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٧، ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٢٣٧.
(١٨٠) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٦٨-٦٩.
(١٨١) نفس المصدر ونفس الصفحة.
(١٨٢) النويرى: المصدر السابق، ص ٥٣١-٥٣٢.

(١٨٣) العماد الأصفهانى: الفتح القسى، ص ٦٩.

(١٨٤) على الحريرى: المصدر السابق، ص ٣٣٨.

لما توفى صلاح الدين وملك أولاده بعده جدد العزيز الهدنة مع الصليبيين بمثل ما عقده أبوه معهم، وكان ملك بيت المقدس فى ذلك الوقت هو هنرى كونت شامبين، ويطلق عليه المؤرخون المسلمون الكندهرى (ابن خلدون: المصدر السابق، ج٥، ص ٣٣٨).

(١٨٥) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٢٣٧؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج٥، ص ٣٣٣، النويرى: المصدر السابق، ص ٥٣١-٥٣٢، ابن فضل الله العمرى: المصدر السابق، ص ١٠١.

(١٨٦) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٧٤، ابن فضل الله العمرى: المصدر السابق، ص ١٠١، ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٢٣٨، الحنبلى: شذرات: المصدر السابق، المجلد الثانى، ج٤، ص ٣١١.

(١٨٧) ابن فضل الله العمرى: المصدر السابق، ص ١٠٢.

ويافا: مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين بين قيسارية وعكا (ياقوت: المصدر السابق، ج٨، ص ٤٩٣).

(١٨٨) هو شاب عريق الأصل أمه مارى ابنة اليانور دوقة أكيتانيا من زوجها لويس السابع، وأبوه هنرى الأول كونت شامبين، وخالاه غير الأشقاء هما فيليب أغسطس وريتشارد قلب الأسد، وقد تزوج هنرى من إيزابيلا وريثة بيت المقدس، فأصبح ملكا إلا أنه لم يتوج بالملك (رانسيمان: المرجع السابق، ج٣، ق١، ص ٦٢، ١٢٧).

وذكر ابن الأثير أنه كان رجلاً عاقلاً كثير المداراة والاحتمال، وقد أرسل لصلاح الدين يطلب منه خلعة ليلبسها محبة له فأنفذ إليه خلعة سنية (الكامل: ج٩، ص ٢١٩).

(١٨٩) لاملريك لوزيجنان: هو أخوجاى لوزيجنان الذى أسره صلاح الدين فى حطين، وكان لاملريك لوزيجنان كندسطبلا لمملكة بيت المقدس، حاز على إقطاع يافا من أخيه، وتزوج من إيزابيلا وريثة عرش بيت المقدس فى سنة ١١٩٨م (رانسيمان: المرجع السابق، ج٣، ق١، ص ١٥٧، ١٧٢). وذكره ابن الأثير باسم هيمرى، وقال عنه أنه كان رجلاً عاقلاً يحب السلامة والعافية (ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٢٣٨).

(١٩٠) رانسيمان: المرجع السابق، ج٣، ق١، ص ١٧١.

(١٩١) هوايمرى برلياس (أرنولد: المصدر السابق، ص ٥٠٤).

(١٩٢) رانسيمان: المرجع السابق، ج١، ص ١٧١.

(١٩٣) أرنولد: المصدر السابق، ص ٥٠٥، ٥٠٦.
(١٩٤) رانسيمان: المرجع السابق، ج٣، ص ١٧٢.
وكانت عكا من أهم مدن الشام الساحلية، وتأتى بعد بيت المقدس فى الأهمية بالنسبة للصليبيين، وقد اجتمع الصليبيون فيها لتيسير حكومتهم المؤقتة بعد استرداد صلاح الدين بيت المقدس. (إسمت غنيم: الدولة الأيوبية والصليبيون، ص ٥٢).
(١٩٥) كان هنرى شامبين مستندًا إلى حافة النافذة ينظر إلى الوادى فسقطت حافة النافذة، وهوى الكونت إلى الحفرة العميقة فى الوادى، وسقط واحد من خدمه معه، ودفن بعد موته فى كنيسة الصليب المقدس فى عكا.
(ارنول: المصدر السابق، ص ٥٠٧، ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٢٣٧).
(١٩٦) ابن خلدون: المصدر السابق، ج٥، ص ٣٣٣.
(١٩٧) ارنول: المصدر السابق، ص ٥٠٩.
(١٩٨) المقريزى: السلوك، ج١، ق١، ص ١٧٠.
(١٩٩) ابن خلدون: المصدر السابق، ج٥، ص ٣٣٣.
استعاد صلاح الدين ذلك الحصن من الفرنج سنة ٥٨٣هـ، وذلك قبل استعادة بيروت وجبيل (شاكر مصطفى: المرجع السابق، ص ٢٦٦). وتبنين هى بلدة فى جبال بنى عامر المطلة على بلدة بانياس بين دمشق وصور (ياقوت: المصدر السابق، ج٢، ص ٤٩١).
(٢٠٠) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٢٣٨.
(٢٠١) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٧٥-٧٦. ابن فضل الله العمرى: المصدر السابق، ص ١٠٢، المقريزى: السلوك: ج١، ق١، ص ١٧١. وصور هى من ثغور المسلمين، وهى مشرفة على بحر الشام داخله فى البحر مثل الكف على الساعد، يحيط بها البحر من جميع جوانبها إلا الربع الذى منه شروع بابها، وهى حصينة لا سبيل إليها إلا بالخذلان.
(ياقوت: المصدر السابق، المجلد الثالث، ج٥، ص ٢١٠)، وقد استعصت هذه المدينة على صلاح الدين فاجتمع بها الصليبيون وكونوا منها جبهة مقاومة.
(إسمت غنيم: الدولة الأيوبية والصليبيون، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٨م، ص ٣٨).
(٢٠٢) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٢٣٨.
(٢٠٣) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٧٦، ابن فضل الله العمرى: المصدر السابق، ص ١٠٢، أبو الفدا: المصدر السابق، ص ٧٦.
(٢٠٤) يوسف غوانمة: المرجع السابق، ص ١٧٧. والسنجق: لفظ تركى يطلق على الرمح،

والمراد به هنا الراية التى تربط به، والجمع سناجق، وهى رايات صغيرة يحملها السنجقدار، ويظهر أن العادة كانت أن يركب السلطان فى المواكب زمن السلم بالسناجق فقط.
(المقريزى: السلوك، ج١، ق١، ص ١٥٢ حاشية ٣).

(٢٠٥) ابن فضل الله العمرى: المصدر السابق، ص ١٠٣، أبو الفدا: المصدر السابق، ص ٧٦، الحنبلى: المصدر السابق، المجلد الثانى، ج٤، ص ٣١٩. وترجع سبب وفاته إلى أنه عندما استقر فى القاهرة عنّ له الذهاب إلى الإسكندرية ودمياط للنظر فى مصالحهما، وفى الطريق توقف فى إحدى قرى الفيوم للصيد فاعترضه ذئبٌ، فركض خلفه، فعثر به فرسه فسقط على الأرض، وحَم من ساعته، ثم ركب وهو محموم وعاد إلى القاهرة، فحدث به يرقان وقرحة فى الأمعاء، ثم احتبس طبعه أيامًا وانتقل بعدها إلى رحمة الله وكانت مدة ملكه ست سنين إلا شهرًا، ومات وعمره ٢٧ سنة وأشهرًا.

(ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٨٢-٨٣، ابن فضل الله العمرى: المصدر السابق، ص ١٠٣، أبو الفدا: المصدر السابق، ص ٧٦، الحنبلى: المصدر السابق، المجلد الثانى، ج٤، ص ٣١٩.

(٢٠٦) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٨٧.

(٢٠٧) نفس المصدر: ص ٨٩.

والملك المؤيد هو أبو الفتح نجم الدين مسعود، ولد بدمشق فى سنة ٥٧١ هـ.
(ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٨٩).

(٢٠٨) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٨٩.

(٢٠٩) ابن العبرى: تاريخ الزمان، ص ٢٣١.

(٢١٠) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٩٠.

(٢١١) نفس المصدر ونفس الصفحة.

(٢١٢) ابن العبرى: تاريخ الزمان، ص ٢٣١، ابن أبى جرادة: المصدر السابق، ج٢، ص ٦١٢.

وماردين قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين (ياقوت: المصدر السابق، ج٧، ص ١٩٤).

(٢١٣) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٩١.

(٢١٤) نفس المصدر، ص ٩٣.

(٢١٥) نفس المصدر ونفس الصفحة.

(٢١٦) ابن العبرى: تاريخ الزمان، ص ٢٣١.

(٢١٧) المقريزى: السلوك، ج١، ق١، ص ١٧٩.

(٢١٨) ابن أبى جرادة: المصدر السابق، ج٢، ص ٦١٢.

(٢١٩) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٩٥.

والكامل: هو ناصر الدين محمد، حكم الديار المصرية نائبًا عن أبيه العادل بعد أن استولى عليها، وذلك لمدة عشرين سنة من سنة ٥٩٦ هـ، وحتى سنة ٦١٦ هـ، وبعد وفاة أبيه حكمها مستقلاً عشرين سنة أى حتى سنة ٦٢٦ هـ، وقد بلغ حكمه لمصر نائبًا ومستقلاً حوالى أربعين سنة، وكان ملكاً حازمًا مهيبًا سديد الرأى حسن التدبير لممالكه، عفيفًا عن سفك الدماء.

(ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ١١٣، ج٥، تحقيق حسنين ربيع، مطبعة دار الكتب ١٩٧٧م، ص ١٥٦).

(٢٢٠) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٢٤٤.

(٢٢١) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٩٧.

(٢٢٢) نفس المصدر ونفس الصفحة.

(٢٢٣) نفس المصدر، ص ٩٨.

(٢٢٤) نفس المصدر ونفس الصفحة.

(٢٢٥) نفس المصدر، ص ١٠٠.

(٢٢٦) نفس المصدر، ص ٩٩.

(٢٢٧) نفس المصدر، ص ١٠٥.

(٢٢٨) نفس المصدر، ص ١٠٤-١٠٥.

(٢٢٩) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ١٠٥. ابن واصل: التاريخ الصالحى فى الموسوعة الشامية، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ج٢١، ص ٥٥١، ابن فضل الله العمرى: المصدر السابق، ص ١٠٤، أبو الفدا: المصدر السابق، ص ٧٨.

(٢٣٠) ابن فضل الله العمرى: المصدر السابق، ص ١٠٦-١٠٧.

وقد حدث ذلك الاختلاف بسبب مملوك كان للملك الظاهر، وكان يؤثره ويميل إليه يقال له أيبك، ففقد هذا المملوك فاغتم الملك الظاهر لفقده، فظن أنه دخل دمشق، فأنفذ إليها من يكشف خبره فيها، واطلع الملك العادل على ذلك فأرسل إلى الظاهر يخبره أن أحد رجال الأفضل أفسد هذا المملوك عليه وأخذه للأفضل، وبعد البحث والتحرى وجد الظاهر مملوكه لدى الأفضل فنفر قلبه من أخيه (ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ١٠٦، ابن فضل الله العمرى: المصدر السابق، ص ١٠٦-١٠٧، أبو الفدا: المصدر السابق، ص ٧٨.

(٢٣١) ابن واصل: التاريخ الصالحى، ص ٢٥٢.

(٢٣٢) نفس المصدر ونفس الصفحة.

(٢٣٣) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ١٠٩

(٢٣٤) ابن واصل: المصدر السابق، ص ٥٥٢.

ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول، ص ٢٢٥، ابن العبرى: تاريخ الزمان، ص ٢٣٢.

وحانى: اسم مدينة معروفة بديار بكر فيها معدن الحديد، ومنها يجلب إلى سائر البلاد.

(ياقوت: المصدر السابق، ج٣، ص ١١٠) وجبل جور: اسم لكورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحى أرمينية، أهلها نصارى أرمن، وفيها قلاع وقرى (ياقوت: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥، وقد ذكر ابن خلدون جبل جور باسم جبال النور (المصدر السابق، ج٥، ص ٣٣٧).

أما ميافارقين فهى أشهر مدينة بديار بكر (ياقوت، المصدر السابق، ج٨، ص ٣٤٩) وقد وصفها ابن حوقل بأنها مدينة عظيمة الخطر، عليها سور من حجارة وفصيل وخندق عميق، مصطكة العمارة ضيقة الأسواق (صورة الأرض، ص ٢٠٢). وسميساط هى مدينة على شاطئ الفرات فى طرف بلاد الروم، ولها قلعة، ويسكنها الأرمن (ياقوت: المصدر السابق، ج٥، ص ٧٥).

(٢٣٥) ابن العبرى: تاريخ الزمان، ص ٢٣٢، ابن خلدون: المصدر السابق، ج٥، ص ٣٣٧، ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٢٥، ونجم الدين أيوب هو صاحب خلاط، توفى فى حياة والده، وكان قصيرًا جدًا شهمًا مقدامًا سفاكا للدماء.
(ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص ٢٧٣).

(٢٣٦) ابن العبرى: تاريخ الزمان، ص ٢٣٢، ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول، ص ٢٢٥، ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٢٥٠.

(٢٣٧) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٢٤٩، ابن فضل الله العمرى: المصدر السابق، ص ١٠٧.

(٢٣٨) ابن خلدون: المصدر السابق، ج٥، ص ٣٣٧.

(٢٣٩) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ١١١، المقريزى: السلوك، ج١، ق١، ص ١٨٣.

(٢٤٠) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ١١١.

(٢٤١) ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج٦، ص ١٥٢.

(٢٤٢) ابن العبرى: تاريخ الزمان، ص ٢٣٢، المقريزى: السلوك، ج١، ق١، ص ١٨٣، ابن خلدون: المصدر السابق، ج٥، ص ٣٣٧.

(٢٤٣) ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ١١١-١١٢.

(٢٤٤) ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج٦، ص ١٦٧.

(٢٤٥) نفس المصدر: ص ١٦٣، ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٧٢.

(٢٤٦) وهى جزء من قصيدة لابن عنين امتدح فيها الملك العادل، وتطرق فيها لمدح أبنائه.

المصادر والمراجع العربية والمعربة

* ابن الأثير: (على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى المعروف بابن الأثير الجزرى) ت ٦٣٠هـ.
«الباهر فى تاريخ الدولة الأتابكية»، فى الموسوعة الشامية فى تاريخ الحروب الصليبية، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، دمشق ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، ج١٤ .
«الكامل فى التاريخ» دار الفكر، بيروت ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م، ج٩ .
* ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف) ت ٨٧٤هـ
«النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة»، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، (د. ت).
* ابن حوقل (أبى القاسم بن حوقل النصيبى) (ت فى القرن ٤هـ).
«صورة الأرض»، مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ١٩٩٢م.
* ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى المغربى) ت ٨٠٨هـ.
«تاريخ ابن خلدون» (العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر)، مؤسسة جمال للطباعة، بيروت، لبنان ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، ج٥.
* ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر) ت ٦٨١هـ.
«وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان»، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٩.
* إبن أبى جرادة (كمال الدين عمر بن أحمد) ت ٦٦٠هـ
«زبدة الحلب من تاريخ حلب»، تحقيق سهيل زكار، دار الكتاب العربى، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م، ج٢.
* ابن شداد (بهاء الدين أبى عبد الله محمد بن على بن إبراهيم) ت ٦٨٤هـ.
«سيرة صلاح الدين» (السيرة اليوسيفية)، تحقيق جمال الدين الشيال، الطبعة الأولى، مؤسسة الخانجى، القاهرة، ١٩٦٢م.
* ابن العبرى (أبو الفرج جمال الدين) ت ٦٨٥هـ
«تاريخ الزمان»، دار المشرق، بيروت ١٩٨٦م.
«تاريخ مختصر الدول»، الطبعة الأولى ١٣٠٨هـ.
* ابن فضل الله العمرى: (شهاب الدين أحمد بن يحيى) ت ٧٤٨هـ.

«مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار» فى الموسوعة الشامية فى تاريخ الحروب الصليبية، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.

* ابن كثير: (عماد الدين أبى الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقى) ت ٧٧٤هـ.

«البداية والنهاية»، ج ١٢، الطبعة الأولى، مكتبة المعارف بيروت، لبنان، ١٩٩٦م.

* ابن واصل: (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل) ت ٦٩٧هـ

«مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب»، ج٢، تحقيق جمال الدين الشيال، المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥٧م، ج٣، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، الإقليم الجنوبى، ج٥، تحقيق حسنين محمد ربيع، مطبعة دار الكتب ١٩٧٧م.

«التاريخ الصالحى»، فى الموسوعة الشامية، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر دمشق، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م، ج ٢١.

* ابن الوردى: (أبو حفص زين الدين بن المظفر بن عمر بن محمد بن أبى الفوارس الوردى) ت ٧٤٩هـ.

«تتمة المختصر فى أخبار البشر»، دار المعارف، بيروت، لبنان، ج٢.

* أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى) ت ٦٦٥هـ:

«الروضتين فى أخبار الدولتين» (النورية والصلاحية) فى الموسوعة الشامية، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م، ح ١٩.

«مختصر كتاب الروضتين في أخبار الدولتين» (النورية والصلاحية) تصنيف محمد بن حسن بن عقيل موسى الشريف، دار الأندلس الخضراء، جدة، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

* أبو الفدا (عماد الدين إسماعيل بن على بن محمود بن محمد بن تقى الدين) ت ٧٣٢هـ:

«المختصرفى أخبار البشر»، فى الموسوعة الشامية، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م، ج٢٢.

* إبراهيم على الدين السيد:
«تاريخ الأيوبيين والمماليك»، دار النشر الدولى، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.

* الحنبلى (أبو الفلاح عبد الحى بن العماد) ت ١٠٨٩هـ:
«شذرات الذهب في أخبار من ذهب»، المجلد الثانى، بيروت(د.ت)، ج٤.
«الإعلام والتبيين فى خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين» فى الموسوعة الشامية، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥م، ج٢٣.

* أرنولد :
«ذيل تاريخ وليم الصورى»، فى الموسوعة الشامية، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، دمشق ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م، ج٨.

* إسمت غنيم:
«تاريخ الحروب الصليبية» القاهرة، ١٩٩٦م.
«الدولة الأيوبية والصليبيون». القاهرة، ١٩٧٠م.

* آسيا سليمان نقلى:
«دور الفقهاء والعلماء المسلمين فى الشرق الأدنى فى الجهاد ضد الصليبيين خلال الحركة الصليبية»، مكتبة العبيكان، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢م

* السيد الباز العرينى:
«الشرق الأدنى فى العصور الوسطى» (الأيوبيين والمماليك) دار النهضة العربية، بيروت ١٩٦٧م.

* أكرم ساطع:
«القلاع والحصون فى سوريا»، دار دمشق، ومكتبة أطلس، ١٩٧٥م.

* سبط ابن الجوزى (أبو المظفر يوسف بن قزاوغلى) ت ٦٥٤هـ:

«مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان»، فى الموسوعة الشامية، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، ج ٥.

* العينى: (بدر الدين محمود) ت٨٥٥هـ:

«عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان» فى الموسوعة الشامية، تحقيق سهيل زكار، دار دمشق ١٤١٦ / ١٩٩٥م، ج ٢٤.

* العماد الأصفهانى(عبد الله محمد بن صفى الدين أبى الفرج محمد بن نفيس الدين) ت ٥٩٧هـ:

«الفتح القسى فى الفتح القدسى» فى الموسوعة الشامية، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م، ج١٣ .

* القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على بن أحمد بن عبد الله ابن أبى اليمن) ت ٨٢١هـ:

«صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء»، القاهرة، ١٩٦٣م.

* المقريزى (تقى الدين بن أحمد بن على) ت ٨٤٥هـ:

- «تراجم من المقفى الكبير»، فى الموسوعة الشامية، دار الفكر، دمشق، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م، ج ٢٥.

«السلوك لمعرفة دول الملوك»، نشر وتحقيق مصطفى زيادة، ج١، ق١.

* النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشى البكرى) ت ٧٣٢هـ:

«نهاية الأرب» فى الموسوعة الشامية، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ١٤١٦ / ١٩٩٥م، ج٢٢.

* سعيد عبد الفتاح عاشور:

«الحركة الصليبية»، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٧١م.

«مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك»، دار النهضة العربية، ١٩٨٢م.

* ستيفن رانسيمان:

«تاريخ الحروب الصليبية»، دار الفكر والثقافة، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.

* شاكر مصطفى:
«صلاح الدين»، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
* عبد الله سعيد الغامدى:
«صلاح الدين والصليبيون»، الفيصلية، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
* عبد العظيم رمضان:
«الصراع بين العرب وأوروبا»، دار المعارف ١٩٨٣م.
* عبد المنعم ماجد:
«الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبى»، مكتبة الأنجلو، ١٩٥٨م.
* على إبراهيم حسن:
«استخدام المصادر وطرق البحث فى التاريخ الإسلامى العام وفى التاريخ الوسيط»، الطبعة الثالثة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٠م.
* على عبد الحليم محمود:
«الغزو الصليبى والعالم الإسلامى»، عكاظ للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
* محمد بن تقى الدين عمر ت ٦١٧هـ:
«مضمار الحقائق وسر الخلائق»، تحقيق حسن حبشى، عالم الكتب.
* اليافعى (محمد عبد الله بن أسعد بن على بن سليمان اليافى اليمنى المكى) ت ٧٦٨هـ:
«مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان»، بيروت ١٣٣٨هـ - ١٩١٩م،ح٣.
* ياقوت الحموى (شهاب الدين أبى عبد الله بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى:
«معجم البلدان»، دار احياء التراث العربى بيروت، لبنان ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.
* يوسف حسن درويش :
«إمارة الكرك الأيوبية»، دار الفكر، عمان، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م

المراجع الأجنبية :

* Boase, Thomas Sherrek Ross:
  kingdom and strongholds of the crusaders, The Bobbs - merrill companu, Ins, Indiana Polis, New york 1970.
* Brundage, James A., p.h. D.:
  The Crusades, 1962.
* Duggan, Al Fred.
  The Story of the crusades 1097-1291.
* Pernoud,Regine:
  The Crusades,Translated by Enid Mcleod,G. p.putnam's Sons, New York, 1960.

بحوث

فى التاريخ والحضارة الإسلامية



خزف طشقند فى القرنين ١٢ - ١٣ هـ (١٨ - ١٩ م)

د. أحمد رجب محمد على رزق
مدير المركز الثقافى المصرى بطشقند

مقدمة

أمدتنا مدينة طشقند فى القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين بعدة أنواع من الخزف، بعض هذه الأنواع انتشر طوال هذه الفترة، والبعض الأخر اقتصر وجوده على قرن واحد أو حتى نصف قرن، والبعض الثالث استمر حتى بعد انتهاء القرن التاسع عشر، ولازال ينتج إلى الآن، هذه الأنواع من الخزف اتسمت بسمات وخصائص مشتركة ربطت بين جميع الأنواع، وبعضها اتسم بسمات خاصة اقتصر وجودها على نوع بعينه، كما خضعت معظم هذه الأنواع لتأثيرات فنية خارجية خصوصا التأثيرات الإيرانية بحكم الجوار الجغرافى والصلات التاريخية. وفى الصفحات التالية نتناول بالدراسة خزف طشقند وأهم أنواعه، والسمات الخاصة بكل نوع من خلال مجموعة الخزف المحفوظة بمتحف الفنون بطشقند (قسم الخزف)، والذى يعد أكبر متاحف جمهورية أوزبكستان، مع الاستعانة بالمراجع الفنية المتاحة وهى قليلة، فضلا عن المخطوطات والمصادر والمراجع التاريخية العربية والأجنبية والمعربة والتى تبين الحالة السياسية لمدينة طشقند فى تلك الفترة وعلاقاتها الخارجية، حيث إن الوضع السياسى كان له أثر كبير على الحالة الفنية فى تلك الفترة كما سيتبين فى الصفحات التالية

طشقند :

طشقند هى عاصمة جمهورية أوزبكستان الحالية بآسيا الوسطي، اسمها مكون من مقطعين طاش وتعنى حجارة، وقند وتعنى أرض فهى، أرض الحجارة، وذلك لكثرة ما يحيط بها من جبال حجرية متنوعة ذات ألوان بديعة متعددة [١]، وكانت طشقند قديما تعرف باسم (شاشستان)، وهو الاسم الذى عرفت به فى الكتابات

السابقة على الإسلام وخصوصا كتابات سنة ٢٦٢ م [٢]، وقد ذكر اسم (شاش) فى الكتابات الصفدية [٣] القديمة فى القرن الرابع الميلادي، وأيضا فى نصوص افراسياب فى القرن السابع الميلادى .[٤]

وقد عرف العرب طشقند فى زمن الفتوحات باسم بلاد الشاش، وذكرت المصادر أن بلاد الشاش هى أحد أقاليم ثلاثة تقع شرق نهر سيحون (سرداريا) وهى فرغانة، والشاش، واشروسنة [٥]، وظلت تعرف باسم (بلاد الشاش) إلى جانب تسميتها أيضا بطشقند، وإليها نسب العديد من العلماء مثل الفقيه (جعفر الشاشى) المتوفى ٢٠٧ هـ، والفقيه (إسحق الشاشي) المتوفى ٣٢٥ هـ - ٩٣٧م، و (أبو بكر قفال الشاشي) المتوفى ٣٦٦ هـ - ٩٧٦ م، والفقيه (القاسم الشاشي) المتوفى ٤٠٠ هـ - ١٠١٠ م، وغيرهم من فقهاء وعلماء المسلمين الذين ينسبون إلى هذه المنطقة [٦].

ويذكر المقدسى أن الشاش إقليم يقع خلف نهر سيحون على بعد مرحلتين من ثغر (اسيجاب)، وقد تميز بإنتاج السروج والجعاب والمصليات والملابس القطنية والذهب [٧]، وكان أغلب سكان بلاد الشاش من الترك عند فتحها [٨] . وقد دخلت طشقند إلى حظيرة الإسلام على يد الفاتح المسلم (قتيبة بن مسلم الباهلي) والذى بدأ الفتوحات فى بلاد ما وراء النهر سنة ٨٦ هـ وحتى ٩٦ هـ على مدى عشر سنوات [٩]، وكانت بلاد الشاش آخر المعاقل التى فتحها قتيبة فى بلاد ما وراء النهر، وبعد فتحها مباشرة مات الحجاج بن يوسف الثقفى والى العراق الذى كان قد أرسل قتيبة لفتح بلاد ما وراء النهر، والذى كان يدعم قتيبة بقوة، إلا أن الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك قد أبقى قتيبة على حكم بلاد ما وراء النهر، وأرسل إليه رسالة تدعمه وتشجعه. [١٠]

وبعد فتح قتيبة ظلت بلاد الشاش تحت حكم الأمويين، ومن بعدهم العباسيين سنة ١٣٢ هـ، إلى أن ظهرت الأسرة السامانية ونالت من القوة والسلطة الكثير فى بلاد ما وراء النهر، حيث عين الخليفة العباسى (المأمون) الكثيرين من أفراد البيت السامانى حكاما على بلاد ما وراء النهر، ومنهم (نوح بن أسد) حاكما على سمرقند، وأحمد بن أسد حاكما على فرغانة، ويحيى بن أسد حاكما على الشاش[١١]، وسرعان

ما استقلت الدولة السامانية وسيطرت على معظم بلاد ما وراء النهر ومنها الشاش، وكانت عاصمتها مدينة بخارى [١٢] .

وبعد الدولة السامانية حكم القراخانيون بلاد ما وراء النهر بعد استيلائهم على الحكم من السامانيين بقتل آخر ملوكهم إسماعيل بن نوح الثانى سنة ٣٩٥ هـ - ١١٠٥ م. [١٣] ومن الدول التى سيطرت على منطقة الشاش الدولة السلجوقية فى مطلع القرن الخامس الهجرى، الحادى عشر الميلادى، وبالتحديد بداية من سنة ٤٣١ هـ - ١٠٤٠ م [١٤]، ثم الدولة الخوارزمية والتى بدأت فى منطقة خوارزم، ثم امتد سلطانها ليشمل بلاد الشاش [١٥]، إلا أن الدولة الخوارزمية قد انتهى حكمها سنة ٦٢٨ هـ بقتل آخر ملوكها (جلال الدين منكبرتي) على يد المغول، وسيطرة المغول، على كل أملاك الدولة الخوارزمية بما فيها منطقة الشاش[١٦]. وقد عانت بلاد ما وراء النهر كثيرا على يد حاكم المغول جانكيزخان والحكام الذين تلوه والذين دمروا وحرقوا وخربوا أغلب مدنها ومعالمها[١٧]، ثم خضعت طشقند (الشاش) بعد ذلك لحكم التيموريين والذين ينسبون إلى الأمير تيمور، اعتبارا من ٧٦٦هـ - ١٢٦٥ م بعد معركة قوية انتهت بانتصار جيوش الأمير تيمور، وبدأ عهد جديد هو عهد الدولة التيمورية التى حكمت بلاد ما وراء النهر مائة وستة وثلاثين سنة، وامتدت بسلطانها شرقا حتى البحر المتوسط[١٨]

وبعد العهد التيمورى بدأ فى بلاد ما وراء النهر عصر جديد هو عصر الخانات الأوزبك [١٩]، ويعرف هذا العصر باسم (عصر الشيبانيين) [٢٠]، ويعتبر شيبانى خان أشهر ملوك ذلك العصر فى القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى، حيث انتصر على الإمبراطور بابر وأجبره على ترك بلاد ما وراء النهر وعقر داره وادى فرغانة والانتقال إلى أرض جديدة هى الهند التى أسس فيها الإمبراطورية المغولية فى الهند [٢١] .

وفى أواخر القرن الثامن عشر تأسست خاقانية خوقند المستقلة والتى كانت طشقند ضمن مدنها [٢٢]. وقد استولى الروس عام ١٨٦١ م ١٢٧٧ هـ على خاقانية خوقند، واضطر خان خوقند آنذاك (خدايار خان) إلى قبول الحماية الروسية بجميع مدن مملكته بما فيها طشقند، وخضعت طشقند للحماية الروسية بتبعية اسمية للخان خدايار حاكم خوقند الصوري[٢٣]. وفى سنة 186 م عين الروس حاكما

عسكريا بتلك المنطقة اتخذ من مدينة طشقند عاصمة له [٢٤]، وإمعانا فى إخـــضاع آسيا الوسطى وبلاد ما وراء النهر -تحديدا- ربطت روسيا مدينة طشقند بخطـــوط حديدية معها لزيادة ربطها بروسيا المركزية [٢٥]، وأعلن الروس طشقند عاصـــمة لكل آسيا الوسطى سنة ١٩١٨م، واستمرت كذلك حتى سنة ١٩٩١ عندما اســـتقلت جمهورية أوزبكستان واتخذت من طشقند عاصمة لها. [٢٦]

أنواع خزف طشقند :

أمدتنا مدينة طشقند فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الهجريين الثـــامن عشر والتاسع عشر الميلاديين بالعديد من المنتجات الخزفية المتنوعة فى أشـــكالها وأحجامها وزخارفها، والتى يحتفظ متحف الفنون بطشقند بالعديد منهـــا، وبـــصفة عامة نستطيع أن نقسم خزف طشقند فى القرنين ١٢ - ١٣ هـــ (١٨ - ١٩م) فى ضوء مجموعة متحف طشقند إلى ستة أنواع حسب زخارفها وألوانها، وهى :

(١) الخزف ذو الرسوم باللونين الأسود والأخضر
(٢) الخزف ذو الرسوم باللونين الأسود والبنى
(٣) الخزف ذو الرسوم باللونين الأسود والبنى مع بطش خضراء
(٤) الخزف ذو الرسوم بالألوان الأسود والبنى والأخضر
(٥) الخزف (ذو اللون الواحد) المطلى باللون الأخضر
(٦) الخزف المحزوز تحت الطلاء
(٧) الخزف ذو الألوان المتعددة المتداخلة

وفى الصفحات القادمة دراسة لهذه الأنواع، مع استخلاص أهم السمات التـــى تميز كل نوع منها.

أولا : الخزف ذى الرسوم باللونين الأسود والأخضر

يحتفظ متحف الفنون بطشقند بخمسة صحون من الخزف ذو الرسوم باللونين الأسود والأخضر، وقد شاع هذا النوع من الخزف فى مدينة طشقند فـــى النـــصف الأول من القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى [٢٧]، وهو نـــوع مـــن الخزف المرسوم تحت الطلاء باللونين الأسود والأخضر على بطانة بيضاء، وفيما يلى توصيف لزخارف هذه الصحون الخمسة، ثم إجمال لأهم مميزات هذا النوع فى ضوء دراسة هذه القطع.

الصحن الأول (لوحة ١) محفوظ بمتحف الفنون بطشقند تحت رقم ١٧ ، خزنة رقم ٦، ويبلغ قطره ١٩ سم، وهو صحن مسطح عمقه لا يزيد عن ١ سم مطلى ببطانة بيضاء عليها زخرفة بسيطة جدا فى أحد جوانب الصحن عبارة عن شكل دائرى داخله شكل معين داخله دائرة أصغر وذلك باللون الأخضر المحدد بخطوط سوداء، وهذه الزخرفة البسيطة جدا ربما تمثل علامة أو رمزاً لأحد المصانع أو أحد صناع الخزف على الرغم من أن الصحن لا يشتمل على أى توقيع، إلا أن هذا العنصر البسيط لا يبدو أنه زخرفة بقدر ما يدل على أنه رمز أو علامة تخصيص أو تمييز لمنتج بعينه.

الصحن الثانى محفوظ بمتحف الفنون بطشقند تحت رقم ٢١ خزنة، رقم ٦، وقطره ٢٢ سم، وهو صحن مسطح أيضا عمقه لا يتجاوز ١ سم، إلا أن الصحن زخرف بكامله بأشكال زخرفية عبارة عن شكل وريدة ذات أربع بتلات فى الوسط، وأشكال أوراق نباتية خضراء محددة بخطوط سوداء تحصر بداخلها مناطق لوزية بلون البطانة البيضاء، وفى حافة الصحن يوجد عنصر زخرفى مكرر مرتان، ربما يكون كلمة باللغة الأوزبيكية تقرأ (جبته)، وهى كلمة تعنى (تمام – كامل – وافي) باللغة الاوزبيكية القديمة [٢٨]، وهى بذلك تذكرنا بما كان يرد من كلمات الوفاء والتمام والكمال على الخزف الإسلامى فى العصور المختلفة خصوصا المبكرة، وربما لا يعدو هذا العنصر الذى اعتبرته كلمة (كتابة) كونه مجرد عنصر زخرفى لاغير عن كتابة، وكل زخارف هذا الصحن رسمت باللون الأخضر وحددت بخطوط سوداء (لوحة ٢) .

الصحن الثالث محفوظ بمتحف الفنون بطشقند تحت رقم ٢٢ ، خزنة رقم ٦، وهو صحن قطره ٢٢ سم، ولكنه أعمق من الصحن السابق، فعمقه حوالى ٣ سم، وزخرفته مختلفة عن الصحن السابق على الرغم من أنها أيضا استخدم فيها اللونان الأسود والأخضر، إلا أن اللون الأخضر هو الغالب فى الرسم، حيث زخرف الصحن بشكل نجمى فالوسط عبارة عن نجمة ذات ثمانية أطراف نشأت من تقاطع مربعين، بداخلها رسم شكل وريدة ذات أربع بتلات، وينبثق من المسافة بين كل طرفين من أطراف الشكل النجمى ورقة نباتية طويلة ليصبح المجموع ثمانية أوراق نباتية تشكل مع الشكل النجمى ما يشبه الزهرة ذات الثمانى بتلات، ولكن مرسومة

بأسلوب زخرفي محور، وفيما بين أوراق الزهرة ملئت الفراغات بأشكال خطــوط وتهشيرات باللون الأخضر، أما اللون الأسود فقد اقتصر دوره فى زخرفــة هــذا الصحن على وجود نقاط سوداء تحدد أوراق الزهرة، وتملأ أطراف الشكل النجمى الذى يتوسط الصحن، إلا أن اللون الأخضر هو الغالب على زخرفة هذا الــصحن، والملاحظ فى زخارف هذا الصحن أنها أكثر تطورا من زخارف الصحن الــسابق، حيث بدأت مساحات الأرضية البيضاء فى التلاشى أمام كثافة الزخارف (لوحة ٣).

الصحن الرابع محفوظ بمتحف الفنون بطشقند تحت رقم ٢٣، خزانة رقم ٦، ويبلغ قطره حوالى ٢٥ سم، وهو كبير نسبيا إذا ما قــورن بالــصحون الأربعــة السابقة، إلا أن هذا الصحن أقلها عمقا، فهو مسطح جدا وعمقه أقل من ١ سم، فهو أشبه ما يكون بالصينية الصغيرة، أما عن زخارف هذا الصحن فهى عبــارة عــن أشكال نجمية متداخلة، كل شكل نجمة يؤدى إلى نجمة أخرى، وكل نجمة ذات ستة أطراف تحصر بداخلها شكلا دائريا أصغر، وهذا الصحن على الرغم من اختلاف تفاصيل زخرفته عن الصحن السابق إلا أنه يتفق معه فى كون اللون الأخضر هو اللون السائد فى الزخرفة، بينما اللون الأسود استخدم فقط فى رسم أشكال نقاط تملأ المساحة المحصورة بين أطراف الأشكال النجمية والدوائر التى تتوسطها، ويــشبه هذا التكوين الزخرفى من الأشكال النجمية المتداخلة ما كان موجودا علــى بعــض القطع الخزفية التى تنسب إلى مدينة طشقند فى العصر التيمورى [٢٩]، بمــا يعــد توارثا لعناصر زخرفية محلية (لوحة ٤) .

الصحن الخامس من هذا النوع محفوظ بمتحف الفنون بطشقند تحت رقم ٢٦، خزانة رقم ٦، وهو صحن مسطح قطره ١٨ سم، وعمقه حــوالى ١ ســم، عليــه زخارف قوامها شكل سداسى بداخله دائرة وسطى، بداخلها شــكل مربــع صــغير يتوسطه شكل نباتى ذى أربعة أطراف، كل طرف يبدو وكأنــه مروحــة نخيليــة مرسومة بأسلوب زخرفى محور، والمساحة المحصورة بين الشكل السداسى الكبير وحدود الصحن مزخرفة بتهشيرات باللون الأخضر، وقد غلب اللون الأخضر على رسوم هذا الصحن أيضا، وانحصر دور اللون الأسود فى أشكال نقاط تحيط بالشكل السداسى والدائرة والشكل المربع الموجود بوسطها (لوحة ٥) .

أهم سمات خزف طشقند ذى اللونين الأسود والأخضر

نستطيع أن نجمل أهم السمات والمميزات التى تميز بها خزف طشقند ذو الرسوم باللونين الأسود والأخضر فى النقاط التالية:-

(١) شاع هذا النوع فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى فى مدينة طشقند وضواحيها.

(٢) أغلب منتجات هذا النوع من الخزف عبارة عن صحون تختلف فى أشكالها، إلا أن معظمها مسطح لا يزيد عمقه عن ١ سم، وعدد قليل منها عميق عمقه حوالى ٣ سم حسب استخدام هذه الصحون.

(٣) تعددت العناصر الزخرفية التى اشتمل عليها هذا النوع من الخزف مابين الأشكال النجمية والسداسية والدوائر وأشكال النباتات والزهور، بل أيضا أشكال تشبه الكتابات اشتمل عليها بعض صحون هذا النوع (لوحة ٢). وقد تميز معظم الرسوم بالتحوير، وهو صفة غالبة على معظم رسوم وفنون القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين [٣٠] .

(٤) استخدام اللون الأسود فى تحديد العناصر الزخرفية فى بعض الرسوم من هذا النوع من الخزف، وملئت الرسوم من الداخل باللون الأخضر الذى غلب على معظم الرسوم، وفى بعض الصحون كانت كل الرسوم باللون الأخضر، وتضاءل اللون الأسود فيها ليصبح مجرد نقاط سوداء تملأ بعض أجزاء من الزخارف .

ثانيا : الخزف ذو الرسوم باللونين الأسود والبني

وقد شاع هذا النوع من الخزف فى مدينة طشقند فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادي، وهى الفترة التى كانت فيها مدينة طشقند تابعة تبعية كاملة لخاقانية خوقند التى اتخذت من مدينة خوقند بوادى فرغانة عاصمة لها، وكانت مدينة طشقند إحدى مدنها [٣١]. وللأسف الشديد اتسمت القطع الذى تنتمى إلى هذا النوع بالندرة، حيث وصلنا ثلاث قطع فقط محفوظة بمتحف الفنون بطشقند عبارة عن كسرة من صحن (لوحة ٦)، وصحن كامل (لوحة ٧)، وإناء (لوحة ٨). وفيما يلى توصيف لقطع هذا النوع من خزف طشقند :

القطعة الأولى : عبارة عن كسرة من صحن (لوحة ٦) قريبة من شكل المثلث تحمل رسما باللونين الأسود والبنى على أرضية بيضاء تمثل شكل رأس حيوان يشبه الغزال، ولكن قرونه قد شكلت بما يشبه العصابة الطائرة المعروفة فى الفن الإيراني، ولاعجب فى أن يكون هناك تأثير إيرانى على خزف طشقند بحكم القرب الجغرافى، وأيضا بحكم الصلات التجارية التى أشارت المصادر التاريخية إلى قوتها وازدهارها فى عهد خاقانية خوقند خصوصا مع مدينتى أصفهان وسلطان اباد [٣٢].

وقد شكل فم الغزال بما يشبه منقار النسر، واللون الغالب على رسم رأس الطائر هو اللون الأسود، بينما زخرفت أرضية الصحن (فى ضوء ما يبدو من الكسرة) بأشكال مختلفة غير منتظمة محددة باللون البنى وممتلئة بنقاط باللون الأسود، وللصحن إطار باللون الأسود.

القطعة الثانية : وهى عبارة عن سلطانية قطرها حوالى ١٩ سم، وعمقها ٦ سم، محفوظة بمتحف الفنون بطشقند تحت رقم ٣٢ ، خزانة ٦ (لوحة ٧) وعليها رسوم فى وسطها عبارة عن شكل وريدة باللون الأسود تحيط بها أشكال ثلاثية غير منتظمة، وهو رسم بسيط جدا يشغل جزءًا صغيرا من أرضية السلطانية المطلية باللون الأبيض،وقد زخرفت حافة السلطانية بدوائر غير منتظمة سوداء وبنية اللون بالتناوب، وهذا الرسم بسيط جدا ومحور جدا ويختلف عن الرسم الموجود على الكسرة السابقة

أما القطعة الثالثة والأخيرة من هذا النوع من خزف طشقند فهى محفوظة بمتحف الفنون بطشقند تحت رقم ٣٣ ، خزانة رقم ٦، وهى عبارة عن إناء له بدن كروى ورقبة مخروطية تتسع كلما اتجهنا لأعلي، ارتفاع الإناء حوالى ٢٣ سم وليس له قاعدة ولا مقبض يمسك منه، وأغلب الظن أنه كان إناء خاص بالشراب، ويمسك من وسطه حيث تضيق المساحة فيما بين بدن الإناء ورقبته مما يسهل الإمساك به من هذا الجزء، وقد زخرف بدن الإناء من الخارج برسوم باللونين الأسود والبنى على أرضية بيضاء، وقد تطرق التلف إلى أجزاء كثيرة من رسوم الإناء (لوحة ٨)، والرسوم عبارة عن أشكال لوزية ودوائر باللون الأسود على مساحات منقوطة باللون البني، وهذه المساحات محددة أيضا باللون الأسود، وهذه

الزخارف المحورة البسيطة السهلة على هذا النوع من الخزف تدل على أن هذا النوع كان نوعا شعبيا متداولا؛ لأن زخارفه فضلا عن بساطتها فهى غير متقنة، وخطوطها إلى حد كبير عفوية غير منتظمة، وتفتقر إلى الدقة، ولم يبذل فى رسمها الفنان جهدا كبيرا، وإنما هى زخارف سهلة الإنجاز، ولكنها فى الوقت ذاته لا تخلو من مسحة من الإبداع الفنى والابتكار العفوى والتنوع، حيث يختلف التصميم من قطعة إلى أخرى، ومن فنان إلى آخر. وعلى هذا نستطيع أن نجمل أهم سمات هذا النوع من خزف طشقند فيما يلى :

أهم سمات خزف طشقند ذو الرسوم باللونين الأسود والبنى

تميز خزف طشقند ذو الرسوم باللونين الأسود والبنى بالمميزات الآتية :-

(١) شاع استخدام هذا النوع من الخزف فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى .

(٢) تعددت الأشكال التى صنعت من هذا النوع فكان منها صحون وأوان.

(٣) استخدام اللونين الأسود والبنى بخطوط عريضة وليست خطوطاً رفيعة ولا دقيقة ، ورسم بهما رسوم حيوانية ونباتية وهندسية.

(٤) التحوير الشديد والتجريد إلى الحد الذى يبعد بعض العناصر عن أصولها، خصوصا العناصر النباتية والهندسية .

(٥) التأثر بالفن الإيرانى بحكم الصلات الجغرافية والتاريخية والتجارية، ووجود عناصر مأخوذة من الفن الإيرانى .

(٦) بعض القطع المنتمية إلى هذا النوع تشتمل على رسوم بسيطة، والبعض الآخر يتميز بكثرة الزخارف وقلة الفراغات، إلا أن عناصره الزخرفية بسيطة أيضا وغير متقنة التنفيذ، وتتسم بقدر كبير من التلقائية .

ثالثا : الخزف ذى الرسوم باللونين الأسود والبنى مع بطش خضراء

شاع خزف طشقند ذو الرسوم السوداء والبنية مع بطش خضراء فى القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى [٣٣]، وفى اعتقادى أن هذا النوع من خزف طشقند متطور من النوع الثانى من خزف طشقند (الخزف ذى الرسوم السوداء والبنية)، حيث يتشابه معه كثيرا فى عناصره، إلا أن عناصره أصبحت هنا

أكثر دقة فى تنفيذها مع إضافة البطش الخضراء التى أضفت جمالا علـــى أشــكال المنتجات من هذا النوع.

وقد وصلنا من هذا النوع من الخزف أربع قطع محفوظة بمتحــف الفنــون بطشقند، وهى عبارة عن صحن (لوحة ٩)، وإناء (لوحـــة ١٠)، وكــسرتين مـــن الخزف أغلب الظن أنهما من صحنين (لوحة ١١ – ١٢). وفيما يلى شرح تفصيلى لهذه القطع .

القطعة الأولى (لوحة ٩) عبارة عن صحن محفوظ بمتحف الفنون بطـــشقند تحت رقم ٣٥ ، خزانة رقم ٦، وهو صحن مسطح قطره ١٧ سم عليه رسوم تشبه الأوراق النباتية المحورة باللون الأسود، بينما تشغل الأجزاء الباقية مـــن أرضـــية الصحن البيضاء أشكالاً مختلفة باختلاف المساحات الخالية من أرضـــية الـــصحن البيضاء (تتشكل مع مساحة الفراغ المتاح) باللون البني، بينمـــا وزعـــت الـــبطش الخضراء الصغيرة توزيعا منتظما على كل مساحة الصحن مما أضفى على الرسم طابعا جماليا، ويبدو أن الرسوم السوداء وهى الخطوط الأساسية فـــى الرســـم قـــد رسمت أولا، ثم أضيفت الرسوم البنية التى تعتبر هنا خطوطـــا ثانويـــة، وأخيـــرا أضيفت البطش الخضراء بتلقائية شديدة وبسرعة أيضا، وهو ما يؤكده وجود أجزاء من البطش الخضراء فوق الرسوم السوداء والبنية (لوحة ٩).

أما القطعة الثانية فهى عبارة عن إناء يشبه الفنجان محفوظ بمتحف الفنـــون بطشقند تحت رقم ٣٦ ، خزانة رقم ٦، وهو إناء صغير الحجم، ارتفاعه حوالى ١٣ سم، له بدن بصلى الشكل ورقبة اسطوانية، وقاعدة قصيرة جدا، ومقـــبض واحـــد صغير، وقد زخرف الإناء بشريطين من الزخارف أحدهما على بدن الإناء، والثانى على رقبته، كل شريط عبارة عن أشكال دوائر مرسومة باللون البنى فـــى سلـــسلة متصلة، داخل كل دائرة توجد دائرة صغيرة سوداء، وعند تماس كل دائرتين يوجد من أعلى ومن أسفل دائرة سوداء أيضا، بينما زخرفت حافة الإنـــاء مـــن أعلـــى بأنصاف دوائر سوداء متصلة، وعلى بدن الإناء توجـــد بطـــش خـــضراء كبيـــرة مرسومة بألوان مسيلة غير منتظمة يبدو أنها رسمت بطريقة تلقائية بعد إتمام رسم الإناء دون خطة مسبقة لأماكن وجود هذه البطش الخضراء، إلا أنها على الـــرغم من ذلك أضفت على الإناء شكلا جماليا بسيطا.

القطعة الثالثة (لوحة ١١) وهى كسرة من الخزف محفوظة بخزانة رقم ٦ بمتحف الفنون بطشقند قاعة الخزف بجوار القطعة السابقة (لوحة ١٠) ولكن بدون رقم، ويبدو أنها كسرة من صحن مسطح من وسط الصحن، وهى شبه مستديرة الشكل، وعليها رسم طائر محور -إلى حد كبير- له رأس به منقار يشبه منقار الصقر أو الطيور الجارحة، وله بدن يشبه -إلى حد كبير- جسم طائر اللقلق [٣٤] الشهير فى مدينة طشقند، وله ساقان طويلتان تشبهان ساقى طائر اللقلق أيضا ، وأعلى رأس الطائر شكل ريش التاج بما يشبه العصابة الطائرة المعروفة فى الفن الإيرانى، والتى سبق أن رأيناها أيضا فى النوع الثانى من خزف طشقند (لوحة ٦)، وقد رسم الطائر بخطوط سوداء، ومُليء جسم الطائر باللون البني، بينما وضع خط انسيابى باللون الأخضر يعتبر امتداداً للريش الموجود أعلى رأس الطائر مما ساعد فى إبراز هذا الريش بمظهر العصابة الطائرة الشائعة فى الفن الإيراني، كما وضعت أيضا بعض الخطوط الخضراء المسيلة غير المنتظمة على أرضية الصحن البيضاء المائلة للخضرة. ومن الملاحظ أن اللون الأخضر هنا قد اختلف استخدامه عن باقى قطع هذا النوع حيث استخدم على شكل خطوط وليس بقع (بطش)، إلا أن هذه الخطوط الخضراء مضافة أيضا على رسم الطائر مثلما الحال فى القطع السابقة التى أضيفت فيها البقع بعد الرسم، وهو ما يدلنا عليه وجود الخطوط الخضراء فوق الرسوم السوداء والبنية خلف رأس الطائر (لوحة ١١).

القطعة الرابعة والأخيرة من هذا النوع عبارة عن كسرة من الخزف محفوظة بمتحف الفنون، خزنة رقم ٦، بدون رقم، وهى كسرة من صحن مسطح شكلها قريب من المربع ولكنها غير منتظمة، عليها رسم يمثل شكل طائر مرسوم بخطوط سوداء سميكة، وقد مليء جسم الطائر باللون البنى مع وجود مساحات داخل جسم الطائر بلون البطانة الأبيض، ورجلى الطائر تبدو فيهما المخالب مرسومة بدقة أكثر من الرسوم السابقة، ويبدو من هيئتها أنها تمثل طائراً جارحاً ربما نسراً أو صقراً، كما رسم ذيل الطائر بشكل زخرفى بما يشبه المثلث، وينبثق من رأس الطائر ما يشبه العصابة الطائرة مثل الرسوم فى القطع السابقة، ولكنها هنا أقل وضوحا من الرسوم السابقة (لوحة ١٢)، أما البطش الخضراء فهى أكبر حجما، وهى عبارة عن

بقع ولا خطوط كما هو الحال فى الكسرة السابقة (لوحة ١١)، ويغلب على الرسم أيضا التأثر بالفن الإيرانى (لوحة ١٢) .

أهم سمات خزف طشقند ذى الرسوم باللونين الأسود والبنى مع بطش خضراء

نستطيع أن نجمل أهم سمات وخصائص هذا النوع من خزف طشقند فيما يلي:

(١) انتشر هذا النوع من الخزف فى القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادي.

(٢) تعددت أشكال هذا النوع من صحون وأوانٍ وكئوس للماء أو الشراب.

(٣) يشتمل هذا النوع من الخزف على رسوم باللونين الأسود والبنى مع بطش خضراء.

(٤) اللون الأسود هو اللون الغالب فى الرسوم على هذا النوع من الخزف، وترسم به الزخارف الرئيسية، أما اللون البنى فاستخدامه أقل، ويعتبر لونا مساعدا فى الرسوم، أما اللون الأخضر فلا يؤدى وظيفة فى الرسم، وإنما يقتصر دوره على وجود بقع (بطش) صغيرة ومنتظمة فى كل مساحة القطعة أحيانا، وأحيانا كبيرة وغير دقيقة وتلقائية وعفوية التنفيذ .

(٥) أحيانا يستخدم اللون الأخضر على شكل خطوط رفيعة مسيلة غير منتظمة كأنها عروق بأرضية القطعة، وغالبا يضاف اللون الأخضر فى النهاية، وأحيانا يكون فوق الرسوم السوداء والبنية ويطمس جزءاً منها.

(٦) اتسمت الرسوم النباتية بالتحوير، والرسوم الهندسية بعدم الدقة والتلقائية مما يدل على أن هذا النوع من الخزف نوع شعبى رخيص الثمن، حيث إن معظم أنواع الخزف الطشقندى فى القرن ١٣ هـ - ١٩ م كانت أنواعا شعبية رخيصة الثمن تنتج بسهولة، ولا تشتمل على رسوم معقدة، ولا تصاميم تحتاج إلى جهد كبير أو دقة فى تنفيذها، وأغلب العناصر المستخدمة هى عناصر بسيطة متوارثة محليا .[٣٥]

(٧) اشتملت بعض القطع من هذا النوع على رسوم طيور محورة، إلا أننا نستطيع أن نميز أنواعها وتفاصيلها بصعوبة .

(٨) يظهر على رسوم هذا النوع من الخزف التأثر بالفن الإيرانى خصوصا فى رسوم الكائنات الحية.

رابعا : الخزف ذى الرسوم بالألوان الأسود والبنى والأخضر

وقد شاع هذا النوع من الخزف فى طشقند فى القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادي، ويتميز هذا النوع بأن الألوان الثلاثة الأخضر والأسود والبنى قد ساهمت جنبا إلى جنب فى تكوين التصميم الزخرفي، ورسوم هذا النوع أكثر تطورا من الرسوم على الأنواع السابقة من خزف طشقند، ويحتفظ متحف الفنون بطشقند بست قطع تنتمى إلى هذا النوع، وهى عبارة عن ستة صحون وسلاطين فيما يلى شرح مفصل لها :

القطعة الأولى : محفوظة بمتحف الفنون تحت رقم ٣٩ خزانة، رقم ٧ ، وهى عبارة عن صحن مسطح يبلغ قطره حوالى ٢٢ سم، زخرفته قوامها دائرة وسطى محاطة بإطار من الحبات السوداء، وبداخل الدائرة رسم باللون الأخضر لعناصر هندسية محورة تشبه ما يعرف بزخرفة الدقماق فى الفن الإسلامى (عناصر هندسية ثلاثية الأطراف)، هذه الزخارف الهندسية داخلها تهشيرات باللون الأسود، وحول الدائرة يوجد شكل جفت مضفور محور يحتوى مساحتين من الزخرفة؛ الأولى بها زخارف نباتية محورة مرسومة باللون الأسود والمقابلة لها بها زخارف نباتية محورة تماثل الزخارف فى المساحة الأولى ولكنها مرسومة باللون البني، وللجفت إطار بالألوان الأسود والأخضر والبنى، بينما يحيط بالحافة الخارجية للصحن إطار أسود (لوحة ١٣). والزخرفة فى هذا الصحن متقنة، إلى حد كبير،وتتميز بالدقة الشديدة إذا ما قورنت برسوم القطع التى تنتمى للأنواع السابقة، كما أن جميع رسومها نباتية وهندسية ذات طابع إسلامى؛ فمعظم الزخارف التى يشتمل عليها هذا الصحن عبارة عن جفت مضفور، وزخرفة الدقماق، وزخارف الأرابيسك النباتية المحورة، وجميعها زخارف انتشرت فى الفن الإسلامى فى معظم عصوره تقريبا، وفى معظم البلدان الإسلامية. ويذكر أحد علماء الفنون فى آسيا الوسطى أن القرن التاسع عشر الميلادى قد اشتملت فنونه على العديد من العناصر الزخرفية الإسلامية تأكيدا لذاتية هذه المنطقة ذات التراث الإسلامى فى مواجهة النفوذ الروسى المتصاعد فيها فى تلك الفترة [٣٦]، وأنا اتفق مع هذا الرأى والذى تؤيده التصميمات

الزخرفية ذات الروح الإسلامية الواضحة والحقائق التاريخية، حيث إن منتصف القرن التاسع عشر الميلادى قد شهد تغلغل النفوذ الروسى رسميا، واعتراف ملك خوقند (خدايار خان) [٣٧] بالحماية الروسية، وكانت طشقند إحدى المدن التابعة لمملكة خوقند، بل إنها كانت أهم مدن خاقانية خوقند فى تلك الفترة [٣٨] ، فى حين أنه على المستوى الشعبى كان هناك رفض تام للسيطرة والنفوذ الروسى بل والفن الروسى أيضا بعناصره التى لم يعتد عليها سكان طشقند من الأوزبك [٣٩]، ولذا فعودة الفن الطشقندى إلى عناصر وزخارف إسلامية مبكرة أمرا بديهيا .

القطعة الثانية وهى محفوظة بالمتحف تحت رقم ٤٠، خزانة رقم ٧، وهى عبارة عن سلطانية قطرها ٢٠ سم، وعمقها ٤ سم، زخرفت من الداخل بشكل وريدة ذات ست بتلات تملأ معظم مساحة السلطانية، ثلاث بتلات من هذه الزهرة عليها رسوم نباتية محورة باللون الأخضر، والثلاث بتلات الأخرى بالتناوب عليها رسوم مماثلة ولكن باللون البني، ويحيط ببتلات الزهرة إطار من الدوائر المتصلة المحددة باللون الأسود السميك، يحيط بها شريط مطلى باللون البنى بدون زخارف، ثم إطار زجزاجى بلون أسود، والسلطانية على الرغم من أنها تشبه تماما نفس أسلوب الصحن السابق إلا أن أسلوب تنفيذها أقل دقة من الصحن السابق ربما لان عمق السلطانية قد صعب مهمة الرسم عليها، فالرسم على الصحن المسطح كان أسهل من الرسم داخل السلطانية العميقة (لوحة ١٤) .

القطعة الثالثة من هذا النوع من الخزف عبارة عن صحن محفوظ بمتحف الفنون تحت رقم ٤١، خزانة رقم ٧، وهو صحن مسطح قطره ٢١ سم عليه تصميم زخرفى مبتكر عبارة عن أشكال مثلثات بداخلها زخارف نباتية محورة بالألوان الأخضر والأسود والبنى تفصل بينها أشرطة لولبية بها دوائر باللون الأسود، وكل هذا على أرضية باللون البنى الفاتح. وللصحن إطار مشرشر من اللون الأسود (لوحة ١٥)، وهذا الصحن يبدو فيه ابتكار الفنان، والدقة الشديدة فى التنفيذ، والبراعة فى التناغم بين الألوان الأسود والبنى والأخضر، وحسن توزيع الألوان فى التصميم الزخرفى، والزخرفة هنا ذات طابع إسلامى خصوصا زخرفة الأرابيسك، فضلا عن الدقة فى تنفيذ رسم العناصر الهندسية (لوحة ١٥) .

القطعة الرابعة من هذا النوع من الخزف محفوظة فى متحف الفنون تحت رقم ٤٢، خزانة رقم ٧، وهى عبارة عن صحن مسطح أيضا قطره ٢٣ سم عليه تصميم زخرفى عبارة عن شكل وريدة تنبع من شكل مربع فى الوسط، هذه الوريدة لها ثمانى بتلات، كل بتلة عبارة عن شكل لوزى بداخله زخارف نباتية محورة مرسومة باللون الأخضر، وينبثق من أربع بتلات من بتلات الزهرة الثمانية أنصاف مراوح نخيلية بواقع اثنين من كل بتلة من البتلات الأربع، وقد شكلت سيقان أربع من هذه البتلات على شكل جدائل، وكل هذا التصميم على أرضية بنية اللون، وللصحن إطار مزدوج باللون الأسود. وهذا التصميم وإن كان إسلامى الطابع مثل التصميمات بالقطع السابقة-وذلك بما يحمله من عناصر وتفاصيل مثل أنصاف المراوح النخيلية، وزخارف الأرابيسك المحورة- إلا أنه فى الوقت ذاته يحمل تصميما عاما مبتكرا تتجلى فيه براعة الفنان وقدرته على الابتكار وعمل تصميم معقد إلى حد ما إذا ما قورن بالتصميمات على القطع السابقة، ولكنه فى الوقت نفسه مقبول ومتناغم سواء من حيث التصميم أو استخدام الألوان بطريقة متوازنة ومتناغمة (لوحة ١٦).

القطعة الخامسة من هذا النوع من الخزف محفوظة بمتحف الفنون تحت رقم ٤٤ ، خزانة رقم ٧، وهى عبارة عن صحن مسطح قطره حوالى ١٩ سم، وعمقه سم، وهو بذلك أعمق من كل الصحون التى سبقت دراستها. أما عن التصميم الزخرفى فهو عبارة عن شكل دائرى فى الوسط بلون البطانة البيضاء، محاط بإطار مزدوج باللون الأخضر، وتتوسطه دائرة مطموسة خضراء صغيرة، والمساحة المحيطة بالدائرة الوسطى البيضاء مقسمة إلى خمس مناطق عن طريق أشرطة زخرفية من الجفت المضفر باللون البنى، ويتوسط كل قسم من الأقسام الخمسة شكل مروحة نخيلية تنبثق من الدائرة الوسطى لتلاصق إطار الصحن الخارجى، وهذه المراوح النخيلية مرسومة باللون الأخضر، وينبثق من كل مروحة نخيلية نصفا مروحة نخيلية مرسومان باللون الأسود بأسلوب زخرفى، وكأنها ثمار تنبثق من هذه المراوح النخيلية الخضراء، وللصحن إطار أسود مشرشر. وهذا الصحن بتصميمه الزخرفى المتقن يتجلى فيه حسن التوزيع للرسوم، وكذلك الألوان والبراعة فى توظيفها على الرغم من بساطة التصميم، والغالب على التصميم هو

اللون الأخضر الباهت ولون الأرضية الأبيض، أما اللونان البنـــى والأســـود فقــد استخدما استخدامًا أقل، ولكنه استخدام منتظم مع براعة فى التوزيع (لوحة ١٧).

القطعة السادسة من هذا النوع من الخزف محفوظة بمتحف الفنون بطــشقند تحت رقم ٤٦ ، خزانة رقم ٧ (لوحة ١٨)، ويتكون تصميم هذا الصحن من شـــكل دائرى فى الوسط محاط بشريطين باللون الأسود، بداخلهما زخارف عبارة عن فرع نباتى حلزونى تنبثق منه أوراق نباتية محورة (أرابيسك)، وينبثـــق مـــن الـــدائرة الوسطى أربعة أشرطة بداخلها نفس الزخرفة النباتيـــة المحـــورة، وتـــصل هـــذه الأشرطة بين الدائرة الوسطى وحافة الصحن، وتقسم مساحة الصحن إلـــى أربعـــة أقسام، وكل قسم من هذه الأقسام الأربعة بداخله شـــكل وردة بـــاللون الأخـــضر، وخطوط رقيقة من اللون البني، وتتكون كل وردة من عدد من الدوائر المتداخلـــة، وينبثق من كل وردة خضراء فرعان نباتيان، كل فرع ينتهى قرب حافة الـــصحن بشكل زهرة أصغر تتكون من ثلاثة أجزاء اثنين باللون البنى، والجـــزء العلـــوى باللون الأخضر. ومن الملاحظ على هذا الصحن أن اللون الأخضر فيه يختلف عن اللون الأخضر فى رسوم القطع السابقة، فهو فى هذا الصحن أخضر زاهية مائـــل إلى الصفرة، فى حين أنه فى القطع السابقة كان أخضر باهتا وهادئا، كما يلاحـــظ أيضا كثرة المساحات غير المزخرفة ذات اللون الأبيض (لون البطانة)، وهو فـــى ذلك أيضا يختلف عن رسوم القطع السابقة والتى كانت تملؤها الزخارف، ولا يبدو لون الأرضية فيها إلا على استحياء وفى مساحات ضيقة جدا (لوحة ١٨) .

أهم سمات خزف طشقند ذى الرسوم بالألوان الأسود والأخضر والبنى

بصفة عامة نستطيع أن نجمل أهم مميزات وخصائص خـــزف طـــشقند ذى الرسوم بالألوان الأسود والأخضر والبنى فى النقاط التالية :-

(١) شاع هذا النوع من الخزف فى القرن الثالث عشر الهجـــرى التاســـع عـــشر الميلادى .

(٢) أغلب منتجات هذا النوع من الخزف عبارة عن صحون وسلاطين.

(٣) تميز هذا النوع من الخزف بالتصاميم الدقيقة والمعقدة إذا ما قورنت بتـــصاميم القطع فى أنواع خزف طشقند السابقة .

(٤) أغلب التصاميم فى هذا النوع من الخزف تغطى الأرضية بكاملها ولا تترك إلا فراغات ضيقة باستثناء نماذج قليلة .

(٥) الزخارف فى هذا النوع من خزف طشقند كلها هندسية ونباتية وهى عادة محورة تحويرا شديدا .

(٦) الزخارف فى هذا النوع من الخزف ذات طابع إسلامى، وهى مليئة بالعناصر واسعة الانتشار فى الفن الإسلامى عبر العصور وعبر البلدان المختلفة مثل الأرابيسك، والمراوح النخيلية، وزخرفة الجفت المضفور ، وزخرفة الدقماق، وغيرها من العناصر الزخرفية التى شاعت فى الفنون الإسلامية المختلفة. ومن الجدير بالذكر أن جميع هذه الزخارف قد وجدت على العمائر والفنون فى معظم مدن آسيا الوسطى خصوصا بخاري، وسمرقند، وطشقند، وفى معظم العصور التاريخية التى مرت بها بلاد ما وراء النهر خصوصا عصرى القراخانيين والتيموريين [٤٠] .

(٧) يتميز هذا النوع من الخزف بالقدرة الفائقة للفنان على توزيع الألوان والتناغم بينها .

(٨) تميزت التصاميم الموجودة على هذا النوع من الخزف بالدقة فى التنفيذ، وعدم رسم الخطوط أو الألوان مهتزة أو مسيلة، وإنما جميع الخطوط ضمن حدودها الصحيحة، وبالتالى يعد هذا النوع من الخزف من أدق أنواع الخزف الطشقندى واشهرها فى القرن التاسع عشر الميلادى.

(٩) تميز هذا النوع من الخزف الطشقندى بندرة التأثيرات الخارجية الواقعة عليه من إيران، ويمكن اعتبار هذا النوع من الخزف خزفا تقليديا إسلاميا، ولكنه مرسوم بروح أوزبيكية، ولعل انحسار التأثير الإيرانى فى تلك الفترة ناتج عن تقلص الصلات بين إيران وآسيا الوسطى -خصوصا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى- حيث خضعت إيران لسيطرة ونفوذ بريطانيا، فى حين خضعت آسيا الوسطى لسيطرة ونفوذ روسيا .[٤١]

(١٠) على الرغم من تقليدية الزخارف والتصاميم على هذا النوع من الخزف إلا أنها لا تخلو من مسحة ابتكار، سواء فى التصميم نفسه أو فى طريقة التلوين والتناغم بين الألوان بأسلوب يختلف من نموذج لآخر، ولكن ضمن إطار

زخرفى عام يربط بين معظم منتجات هذا النوع، أيضا هناك ذوق فنى عام فى تلك المرحلة تمثل فى الرغبة العامة فى الرجوع إلى الذاتية الإسلامية فى ظل تحديات ومحاولات لطمس تلك الهوية. [٤٢]

خامسا : الخزف ذى اللون الواحد (المطلى باللون الأخضر)

وقد انتشر هذا النوع من الخزف فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ولازال منتشرا بمدينة طشقند حتى وقتنا الحالي، وهو من الأنواع التى وجدت فى عصور سابقة على القرن الثامن عشر الميلادى، فهذا النوع من الخزف والذى كان يطلى بلون واحد وهو عادة الأخضر أو الأزرق وجد بكثرة فى آسيا الوسطى وخصوصا النوع الأخضر والذى يشبه فى شكله العام السيلادون الصيني. ونظرا لقرب طشقند من الصين، بل وسيطرة الصين عليها فى العديد من العصور، فضلا عن وجود طشقند على طريق الحرير والمتصل بالصين -خصوصا منطقة كاشغر- فلا عجب أن تنتشر الثقافة والتأثيرات الصينية فى طشقند على أنها كما يشير الكتاب ثقافة محلية متوارثة ومتجددة أيضا. [٤٣]

وقد وصلتنا ثلاث قطع من هذا النوع ذى اللون الأخضر غير المزخرف محفوظة بمتحف الفنون بطشقند عبارة عن إبريق، وصحن، وقدر، فيما يلى وصفها:

القطعة الأولى : محفوظة فى متحف الفنون تحت رقم ٦٧ ، خزانة رقم ٨، وهى عبارة عن إبرق ارتفاعه ٢٢ سم، له بدن بصلى الشكل ورقبة اسطوانية تتسع قليلا من أعلى، ومقبضان يعلو كل مقبض حلية مشكلة فى الخزف تذكرنا بما كان موجودا على الأوانى الخزفية والمعدنية الإيرانية، فضلا عن بزبوز طويل ينبثق من أعلى البدن البصلى الشكل ويتجه إلى أعلي، وقد طلى الإبريق باللون الأخضر الداكن ثم طلى بالجليز بدون زخارف على اللون الأخضر، حيث يبدو جمال الإبريق فى كونه ذا لون واحد، وكتلته وشكله ومنظره العام وقياساته دونما أية زخارف، تماما مثل السيلادون الصينى، وإن كان اللون الأخضر هنا أكثر قتامة من اللون الأخضر للسيلادون والذى يكون فاتحا عن هذا اللون (لوحة ١٩) .

القطعة الثانية : وهى عبارة عن صحن محفوظ بمتحف الفنون تحت رقم ٦٨، خزانة رقم ٨، وهو صحن عميق أشبه ما يكون بالسلطانية، قطره ١٧ سم، وعمقه ٥ سم، وله قاعدة صغيرة ارتفاعها نصف سم، وهذا الصحن مطلى باللون الأخضر الداكن تحت الطلاء وبدون أية زخارف مثل الإبريق السابق (لوحة ٢٠).

القطعة الثالثة : وهى عبارة عن قدر محفوظ بمتحف الفنون تحت رقم ٧٠، خزانة رقم ٨، وهذا القدر ارتفاعه ٤٣ سم، وهو ذو بدن كمثرى الشكل ورقبة اسطوانية وفوهة ضيقة، والجزء العلوى من القدر مطلى باللون الأخضر وطبقة الجليز، أما الثلث السفلى فغير مطلي، وهذا ليس تلفا فى الطلاء، بل هو شيء متعمد من الصانع حيث كانت القدور المخصصة لحفظ الماء بعضها لا يطلى بالكامل حتى لا يفسد ما فيها من ماء أو سوائل، وإنما يترك بها قدر غير مغطى بالطلاء للتنفس، وكى يتسرب منه بعض الماء فيعطى برودة له، فكان فى الغالب يطلى الجزء العلوى ويترك الجزء السفلى، ويوضع فى صينية لاستيعاب الماء المتسرب، أو على الأرض مباشرة، ولذا فهذا القدر فى أغلب الظن كان مخصصا للماء أو سوائل مستهلكة فى الحياة اليومية، ولم يجد الصانع مشكلة فى أن يضحى ببعضها من مسامات القدر حتى يحسن من مزاج المتبقى منها (لوحة رقم ٢١).

أهم سمات الخزف المطلى باللون الأخضر

نستطيع ان نجمل أهم مميزات الخزف ذى اللون الأخضر فى النقاط التالية :

(١) شاع هذا النوع من الخزف فى مدينة طشقند فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الهجريين، الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، وإن كان موجودا قبل تلك الفترة فى عصور متعددة.

(٢) تنوعت أشكال هذا النوع مابين أباريق، وقدور، وصحون، وغيرها.

(٣) هذا النوع من الخزف كان يطلى باللون الأخضر الداكن، ثم يطلى بعد ذلك بالجليز .

(٤) بعض القطع المنتمية لهذا النوع -خصوصا القدور- كانت لا تطلى بكاملها، بل يترك جزؤها السفلى بدون طلاء للتنفس، وتحسين مزاج محتواها خصوصا من الماء.

(٥) لا يشتمل هذا النوع من الخزف على زخارف، وإنما جماله فى لونه الواحـــد، وفى أشكال قطعه وقياساته .
(٦) هذا النوع من الخزف متأثر -إلى حد كبير- بالسيلادون الصينى فـــى شـــكله العام ولونه الأخضر، وان كان اللون الأخضر فى هذا النوع من الخزف قاتما، فى حين أن السيلادون الصينى يتميز بلونه الأخضر الفاتح الـــذى هـــو لـــون العجين الأصلى .

سادسا : الخزف المحزوز تحت الطلاء

ويمثل هذا النوع من الخزف صحن واحد محفوظ فى متحف الفنون بطشقند تحت رقم ٧١ ، خزانة رقم ٨، ويرجع هذا الصحن إلى القرن الثامن عشر، ويبلغ قطره حوالى ٢٢ سم، بينما يبلغ عمقه حوالى سنتيمتر ونصف، وعلى هذا الصحن زخارف هندسية ونباتية محورة محزوزة ومكشوطة فى البطانة الخضراء تحـــت الطلاء. وهذا النوع على الرغم من شيوعه فى مدينة طشقند فى القـــرن الثـــامن عشر الميلادى إلا أنه اقدم من ذلك بكثير حتى فى مدينة طشقند نفـــسها، حيـــث انتشر فى العصور الإسلامية المختلفة منذ عهد مبكر، وهو متأثر بالنوع الإيرانى المعروف باسم (الخزف الجبري) نسبة إلى قبائل الجبرية بإيران، وكان هذا النوع يستورد من إيران، وكان البعض الآخر يصنع فى طشقند تقليدا له خصوصا فـــى أوائل القرن الثامن عشر الميلادى، حيث كان يسكن العديد من الأســـر الإيرانيـــة والصناع الإيرانيين ضواحى طشقند وسمرقند، وكان الطريق التجارى مفتوحا بين إيران وبخارى وسمرقند وطشقند، وظل كذلك حتى منتصف القرن الثامن عـــشر الميلادى [٤٤]، بل إن خاقانية خيوة بآسيا الوسطى كانت تضم أجزاء من بخـــارى وخوارزم، وفى الوقت نفسه تضم منطقة التركمان وصـــحراء قـــرة قـــم وإقلـــيم خراسان [٤٥]، ولذا كانت آسيا الوسطى وإيران تعتبر منطقة واحدة. وقـــد انتـــشر الخزف المحزوز والمكشوط تحت الطلاء فى سمرقند بصورة أكبر من طـــشقند، حيث استوطنها آلاف الإيرانيين عبر العصور المختلفة ومعهم ثقافتهم وفنـــونهم، ولذا فربما انتقل هذا النوع من الخزف إلى طشقند عبر سمرقند أى بطريقة غيـــر مباشرة [٤٦].

أهم سمات الخزف المحزوز تحت الطلاء

بصفة عامة نستطيع أن نجمل أهم ما تميز به خزف طشقند ذو اللون الأخضر المحزوز والمكشوط تحت الطلاء فى النقاط التالية :

(١) شاع هذا النوع من الخزف فى مدينة طشقند فى القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى خصوصا فى النصف الأول من هذا القرن.

(٢) أغلب منتجات هذا النوع من الخزف كانت صحوناً وسلاطين.

(٣) الزخارف على هذا النوع من الخزف كانت منفذة بالحز أو الكشط فى البطانة تحت الطلاء الشفاف .

(٤) الزخارف على هذا النوع من الخزف نباتية وهندسية محورة جدا .

(٥) العناصر الزخرفية غير دقيقة وغير واضحة ومتداخلة وتؤدى إلى بعضها البعض.

(٦) التأثر الواضح بإيران وبالخزف الجبرى سواء عن طريق مباشر عن طريق التجارة، أو طريق غير مباشر عن طريق الأسر الإيرانية المستوطنة سواء فى طشقند أو فى سمرقند القريبة منها .

سابعا : الخزف ذى الألوان المتعددة المتداخلة

وقد انتشر هذا النوع من الخزف فى مدينة طشقند فى أواخر القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى، ولازال منتشرا فى مدينة طشقند حتى اليوم. ويحتفظ متحف الفنون بطشقند بصحنين من هذا النوع من الخزف لهما أسلوبان مختلفان .

الصحن الأول : محفوظ بالمتحف تحت رقم ٢١٣، خزانة رقم ١٦، وهو صحن قطره ٢٣ سم، وعمقه ٢ سم، عليه زخارف متداخلة بألوان مختلفة، هى الأخضر الداكن، والأحمر، والأصفر، والأسود (لوحة ٢٣) .

وقد تميز هذا الصحن بأسلوب إبداعى حيث يؤدى كل لون إلى اللون الآخر، وتبدو الألوان وكأنها مسيلة، ولكنها فى الحقيقة ليست مسيلة، وإنما مرسومة بخطوط دقيقة وبأشكال انسيابية إبداعية بحيث تكون فى كل مساحة لونية زوائد تعشق فى نتوءات فى المساحة الاخرى ذات اللون الآخر وتتداخل معها (لوحة ٢٣).

الصحن الثانى : محفوظ بمتحف الفنون بطشقند تحت رقم ٢١٤ ، خزانة رقم ١٦، ويبلغ قطر هذا الصحن ٢٣ سم، وهو صحن مسطح، وإن كان الجزء الأوسط منه له عمق بسيط (حوالى نصف سم)، وللصحن حافة عريضة، وقد رسم على هذا الصحن بألوان متعددة متداخلة ولكن بأسلوب يختلف مع الـــصحن الـــسابق، فقـــد رسمت عليه رسوم منفذة بخطوط باللون الأسود والأخضر والأحمر على أرضـــية باللون الأخضر الفاتح، هذه الخطوط تشكل تصميما متوازنا وكأنه وريدات مرسومة بأسلوب هندسى عن طريق هذه الخطوط اللونية المتداخلـــة، إلا أن هـــذا الـــصحن يختلف عن الصحن السابق حيث إن الرسوم هنا فى هذا الصحن بـــالألوان علـــى أرضية فاتحة، وهو مالا نستطيع أن نقوله على الصحن السابق والذى لايشتمل على أرضية، لأن الألوان فيه كلها متداخلة وتؤدى إلى بعضها (لوحة ٢٤) .

أهم سمات خزف طشقند ذى الألوان المتعددة المتداخلة

نستطيع أن نجمل أهم سمات خزف طشقند ذى الألوان المتعددة المتداخلة فى النقاط الآتية :

(١) شاع هذا النوع من الخزف فى أواخر القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى، واشتهرت به كمدينة طشقند فقط، فهو نوع محلى خاص بطـــشقند، وانتشر فى باقى مدن آسيا الوسطى باسم خزف طشقند، ولازال منتشرا حتى الآن .

(٢) أغلب قطع هذا النوع عبارة عن صحون وسلاطين .

(٣) تميز هذا النوع بأن بعض منتجاته تتداخل فيها الألوان لتصنع تكوينـــا جمـــيلا وواضحا، ولكنه فى الوقت نفسه ليس عشوائيا على الرغم من عـــدم وجـــود عناصر أو تصميم يمكن تسميته، إلا أن الفنان عادة يسير ضمن خطة لونيـــة واضحة المعالم والحدود .

(٤) أحيانا لايشتمل الصحن من هذا النوع على أرضية ترسم عليها الرسوم، بل إن الرسوم تتداخل لتغطى كل المساحة، وأحيانا تكون هناك أرضية فاتحة اللون عليها توضع الألوان بالتصميم المطلوب .

(٥) الألوان المستخدمة فى هذا النوع غالبا هى الأخـــضر، والأحمـــر، والأســـود، والأصفر، فضلا عن الأبيض أو الأخضر الفاتح كأرضية إن وجدت .

(٦) هذا أحيانا لايمكن التعرف على عناصره، ويمكن القول أنه بدايات الفن الحديث أو إرهاصات له.

(٧) يعتبر هذا النوع أهم أنواع خزف طشقند وأكثرها شهرة وأكثرها استمرارا حتى الآن، ولا ينتج فى آسيا الوسطى إلا فى مدينة طشقند. ومن الجدير بالذكر أن هذه التصاميم اللونية الموجودة على هذا النوع من الخزف قد انتقلت إلى المنسوجات خصوصا الحريرية فى آسيا الوسطى ولازالت تستخدم حتى الآن.

نتائج البحث

بعد العرض السابق عن خزف طشقند فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الهجريين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين نستطيع ان نخرج بالنتائج التالية:

(١) وجد فى مدينة طشقند فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الهجريين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين سبعة أنواع من الخزف هى الخزف ذو الرسوم باللونين الأسود والأخضر.
الخزف ذى الرسوم باللونين الأسود والبني، الخزف ذى الرسوم باللونين الأسود والبنى مع بطش خضراء، الخزف ذى الرسوم بالألوان الأسود والبنى والأخضر، الخزف (ذو اللون الواحد) المطلى باللون الأخضر، الخزف المحزوز تحت الطلاء، الخزف ذى الألوان المتعددة المتداخلة.

(٢) اختلفت فترات انتشار أنواع خزف طشقند فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الهجريين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، حيث انتشر بعض الأنواع فى النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادى مثل الخزف ذى الرسوم باللونين الأسود والأخضر، بينما شاعت أنواع أخرى فى القرن التاسع عشر مثل الخزف ذى الرسوم باللونين الأسود والبنى الذى شاع فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادي، وهناك أنواع شاعت فى القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى كله وليس نصفه، مثل الخزف ذى الرسوم باللونين الأسود والبنى مع بطش خضراء، والخزف ذى الرسوم بالألوان الأسود والبنى والأخضر، بينما شاعت أنواع فى كل من القرنين الثانى عشر والثالث عشر الهجريين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين مثل الخزف ذى اللون الواحد (الأخضر)، والخزف المحزوز

تحت الطلاء، حيث وجدا هذان النوعان فى كل القرنين. بل وظلا منتـــشرين حتى بعد انتهاء القرن التاسع عشر الميلادي. أما الخزف المتعدد الألوان فقد شاع اعتبارا من أواخر القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر المــيلادى، ولازال منتشرا حتى الآن .

(٣) تميز خزف طشقند ذو الرسوم باللونين الأسود والأخضر بأن أغلب منتجاتــه عبارة عن صحون سواء أكانت مسطحة أم عميقة، كما تميز هذا النوع مــن الخزف بأن أغلب الرسوم عليه رسوم هندسية مثل الأشكال النجمية، وأشكال الدوائر، والأشكال السداسية، أيضا الرسوم النباتيـــة مثـــل الأوراق النباتيـــة والزهور، فضلا عن أشكال تشبه الكتابة الاوزبيكية القديمة بحروف عربية. وقد تميزت رسوم هذا النوع من الخزف بالتحوير الشديد، كما تميزت بغلبـــة اللون الأخضر على اللون الأسود فى معظم الرسوم .

(٤) خزف طشقند ذو الرسوم باللونين الأسود والبنى تميز بتعدد أشكاله من صحون وأوان مختلفة الأشكال، رسم عليها بخطوط عريضة ولا خطوط رفيعــة ولا دقيقة، وتميز هذا النوع من الخزف بوجود رسوم حيوانات وطيور إلى جانب الرسوم الهندسية والنباتية، إلا أن هذه الرسوم أحيانا تكون قليلة على القطعــة مع وجود مساحة فراغات كبيرة بلون البطانة البيضاء عادة، وأحيانا تكـــون العناصر كبيرة تملأ جميع الفراغات، ولا تبدو سوى مساحات ضــيقة مــن الأرضية، ولكن عادة العناصر سواء ملأت الأرضية أو لــم تملأهــا هـــى عناصر بسيطة التكوين، خطوطها غير دقيقة وغير منتظمة وتتميز بالتلقائية.

(٥) يعتبر خزف طشقند ذو الرسوم باللونين الأسود والبنى مع بطش خضراء من أهم أنواع الخزف الطشقندى فى القرن الثالث عشر الهجرى التاســع عــشر الميلادي، ويتميز هذا النوع بأن اللون الأسود هو اللون الغالب فى الرســوم، أما اللون البنى فاستخدامه على نطاق ضيق، بينما اقتصر دور اللون الأخضر على وجود بطش خضراء سواء أكانت صغيرة منتظمة أو كبيــرة تلقائيــة، وأحيانا يرسم الفنان خطوطا رفيعة باللون الأخضر بدلا من البطش.

(٦) تميزت الرسوم على خزف طشقند ذى الرسوم باللونين الأسود والبنـــى مـــع بطش خضراء بأنها رسوم بسيطة غير معقـــدة ســـواء الرســـوم النباتيـــة أو

الهندسية أو رسوم الطيور، وهى رسوم محورة، وأغلب العناصر الزخرفية متوارثة محليا .

(٧) خزف طشقند ذو الرسوم السوداء والبنية والخضراء من أدق وأرقى أنواع الخزف الطشقندى فى القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى من حيث التصاميم الزخرفية البديعة التى تملأ أرضية القطعة بالكامل ولا تترك إلا فراغات ضيقة، وهى عادة عناصر هندسية أو نباتية محورة تحويرا شديدا، وزخارف هذا النوع من الخزف ذات طابع إسلامى؛ فهى مليئة بالعناصر واسعة الانتشار فى الفنون الإسلامية عبر العصور المتعاقبة والبلدان المختلفة، مثل الزخارف النباتية المحورة (الأرابيسك)، ورسوم المراوح النخيلية وأنصافها، وزخرفة الجفت المضفر، وزخرفة الدقماق، وغيرها من العناصر شائعة الانتشار فى الفنون الإسلامية. وتتميز تصاميم هذا النوع من الخزف بالدقة الشديدة فى التنفيذ، وعدم رسم الخطوط مهتزة أو متعرجة، كما تتميز التصاميم -على الرغم من تقليديتها- بمسحة من الابتكار ووضوح شخصية الفنان والتنوع من نموذج لآخر، وتتميز الألوان بجودة التوزيع والتناغم والدقة وعدم التسييل.

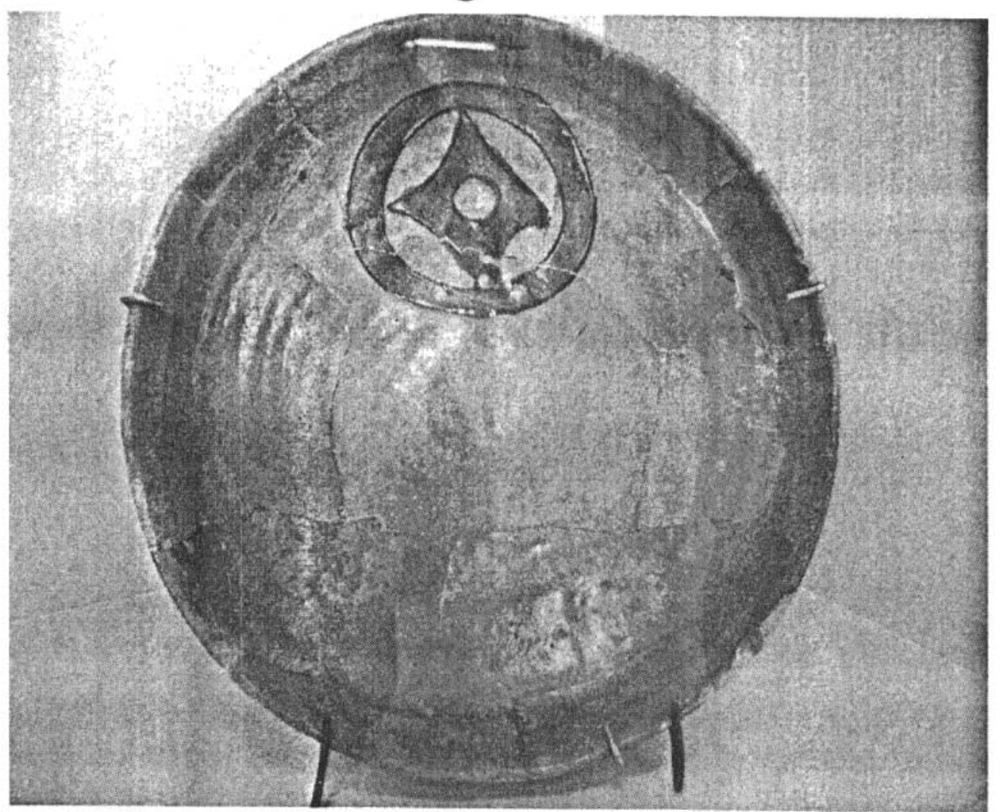
(٨) من أهم أنواع الخزف الطشقندى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الهجريين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين الخزف ذو اللون الواحد (الأخضر)، وهو خزف يشبه -إلى حد كبير- السيلادون الصينى مع الفارق فى أن اللون الأخضر فى الخزف الطشقندى أخضر قاتم، فى حين أن السيلادون يتميز بلونه الأخضر الفاتح، وخزف طشقند ذو اللون الأخضر لا يشتمل على أية رسوم، وإنما جماله فى تنوع أشكاله وتصاميمه المختلفة .

(٩) شاع فى مدينة طشقند فى القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى نوع من الخزف المحزوز تحت الطلاء والذى يشبه النوع الإيرانى المعروف باسم الخزف الجبري، وهذا النوع من الخزف عليه رسوم نباتية وهندسية محورة ومتداخلة تؤدى إلى بعضها البعض ومحزوزة ومكشوطة فى البطانة الخضراء تحت الطلاء الشفاف .

(١٠) أهم وأشهر أنواع خزف طشقند على الإطلاق الخزف ذو الألوان المتعـددة المتداخلة الذى انتشر فى مدينة طشقند، واشتهرت به فى كل آسيا الوسـطى اعتبارا من أواخر القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى، ولازال منتشرا فى طشقند حتى الآن، وأغلب قطع هذا النوع عبارة عـن صـحون وسلاطين، والألوان المستخدمة فى هذا النوع غالبا هى الأخضر، والأحمـر، والأسود، والأصفر، فضلا عن الأبيض أو الأخـضر الفـاتح كأرضـية إن وجدت، ويتميز هذا النوع من الخزف بأن بعض منتجاته تتداخل فيها الألوان لتصنع تكوينا جميلا وواضحا، ولكنه فى الوقت نفسه ليس عـشوائيا علـى الرغم من عدم وجود عناصر أو تصميم يمكن تسميته، إلا أن الفنـان عـادة يسير ضمن خطة لونية واضحة المعالم والحدود، و أحيانا لايمكن التعـرف على عناصره ويمكن القول بأنه بدايات الفن الحديث أو إرهاصات له.

(١١) العناصر الزخرفية على بعض أنواع الخزف الطشقندى خصوصا الخزف ذا الرسوم باللونين الأسود والبني، والخزف ذا الرسوم باللونين الأسود والبنـى مع بطش خضراء، والخزف المحزوز تحت الطلاء تتميز بوجود تأثير إيرانى قوى خصوصا فى رسوم الحيوانات والطيور، وذلك بحكم القرب الجغرافى، وأيضا بحكم خضوع آسيا الوسطى وإيران لحكم دولة واحدة فـى عـصور كثيرة، فضلا عن ربط طريق التجارة بين مدن آسيا الوسطى ومدن إيران.

الملاحق



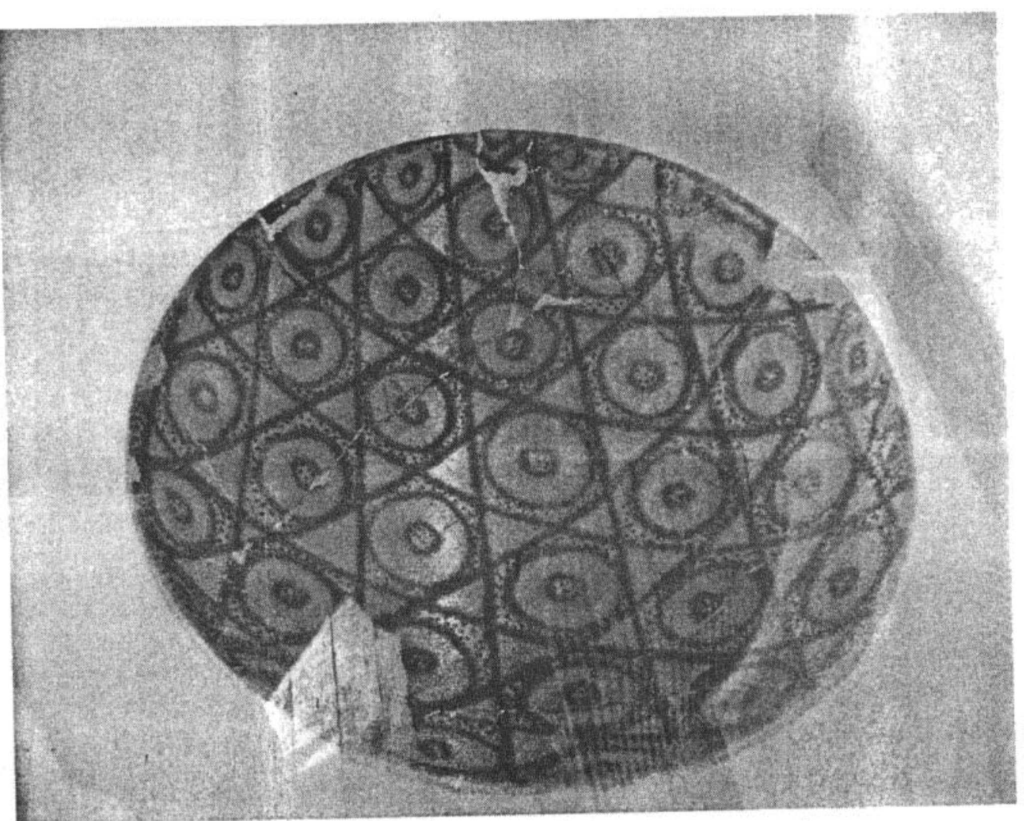
لوحة ١ صحن من الخزف ذى الرسوم باللونين الأسود والأخضر



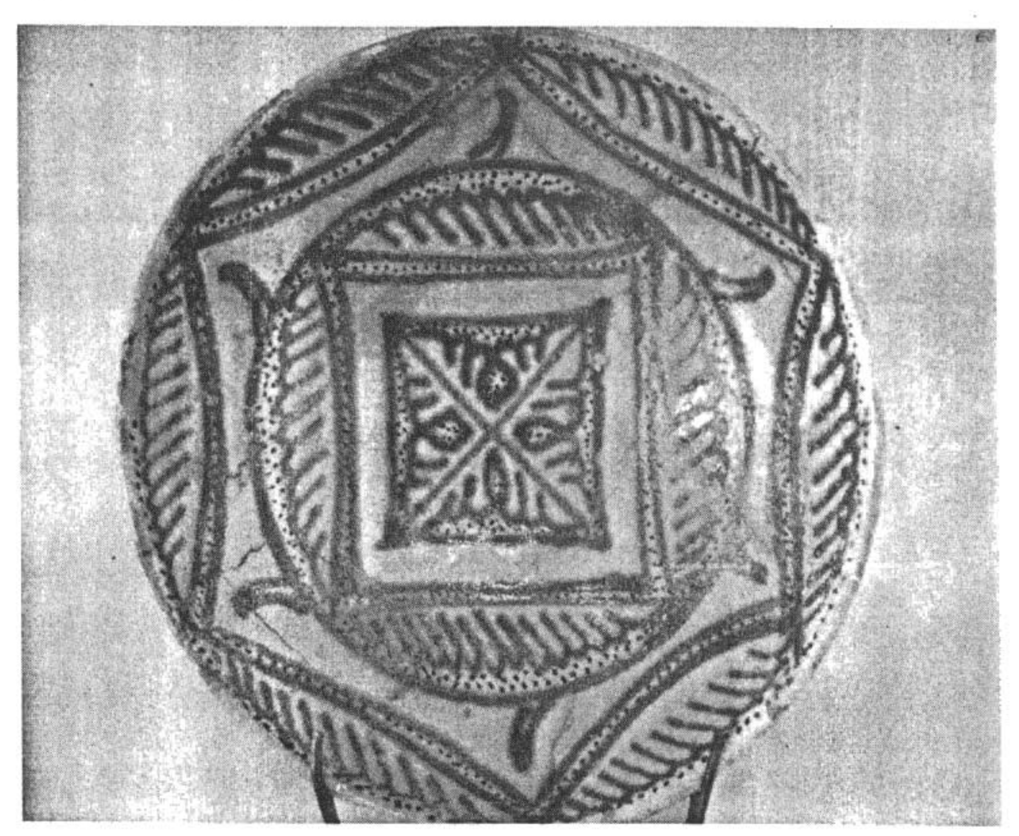
لوحة ٢ صحن من الخزف ذى الرسوم باللونين الأسود والأخضر



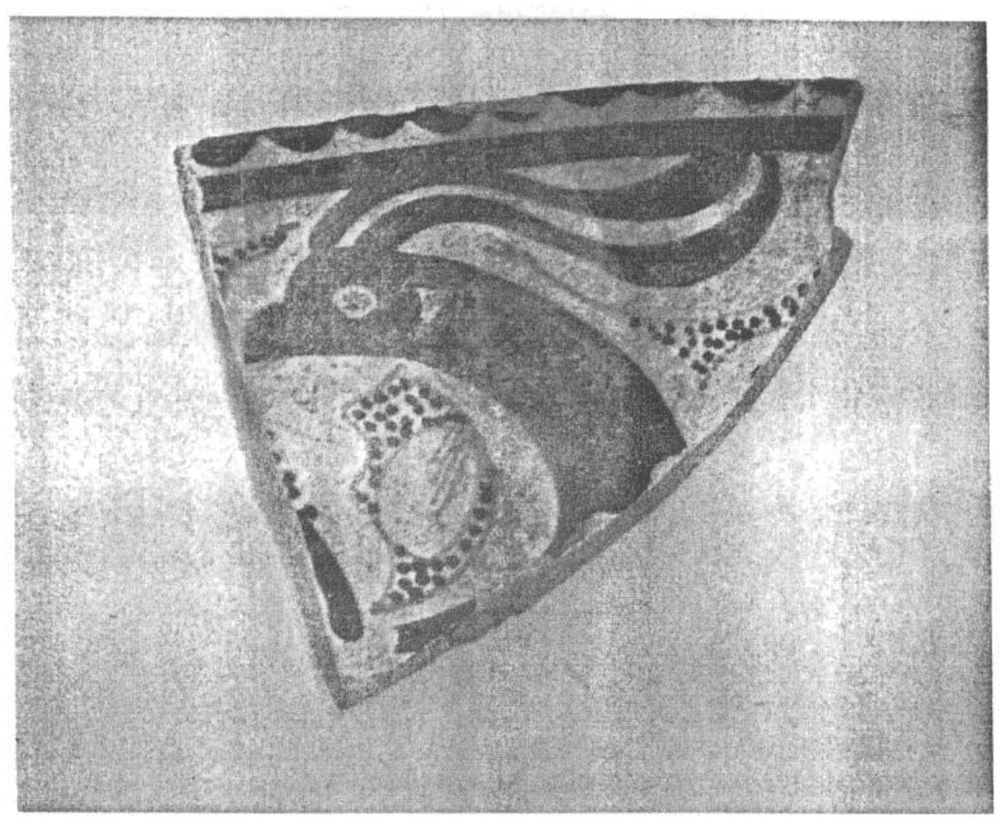
لوحة ٣ صحن من الخزف ذى الرسوم باللونين الأسود والأخضر



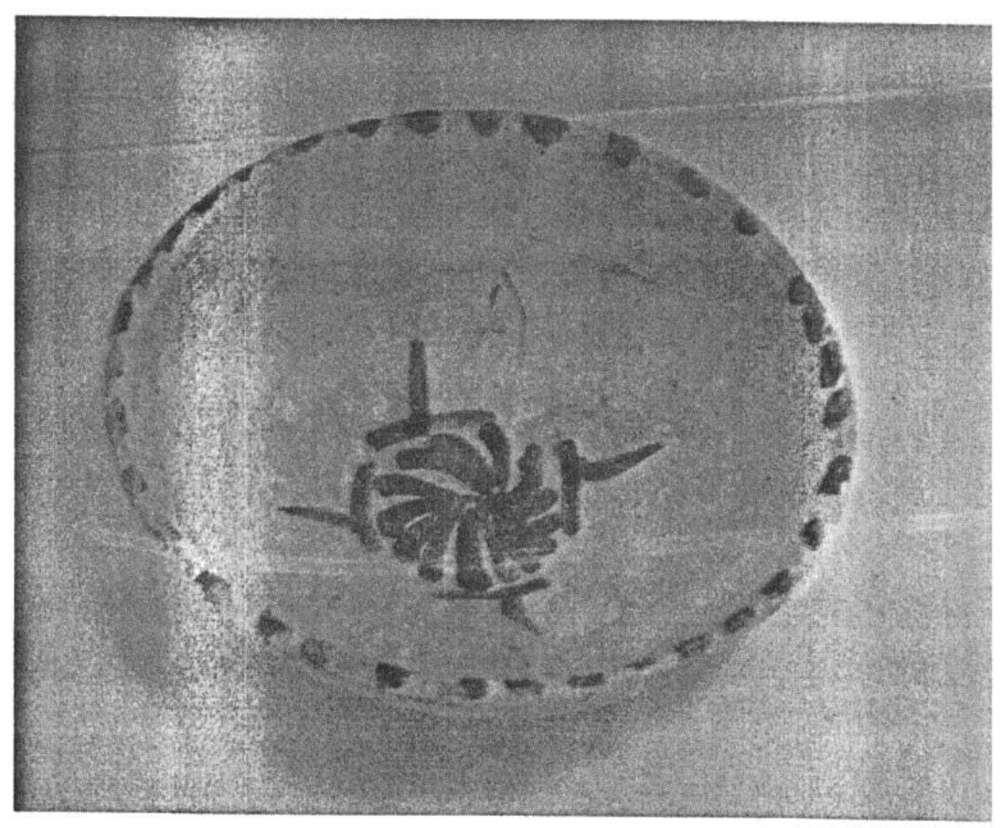
لوحة ٤ صحن من الخزف ذى الرسوم باللونين الأسود والأخضر



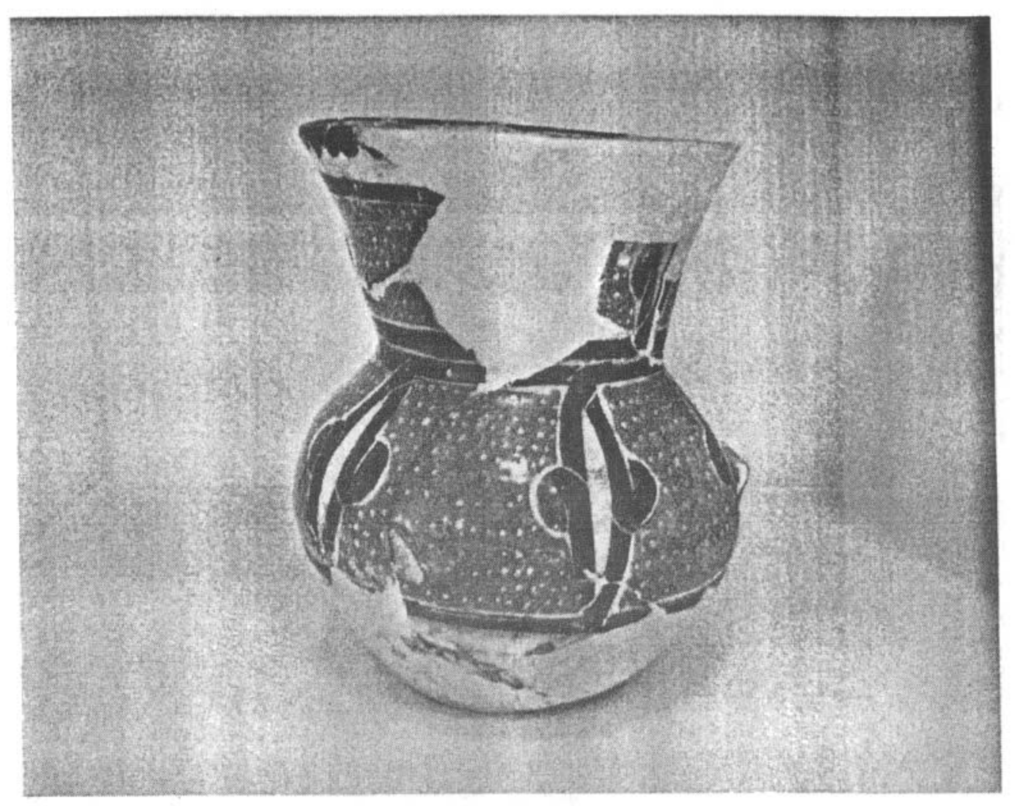
لوحة ٥ صحن من الخزف ذى الرسوم باللونين الأسود والأخضر



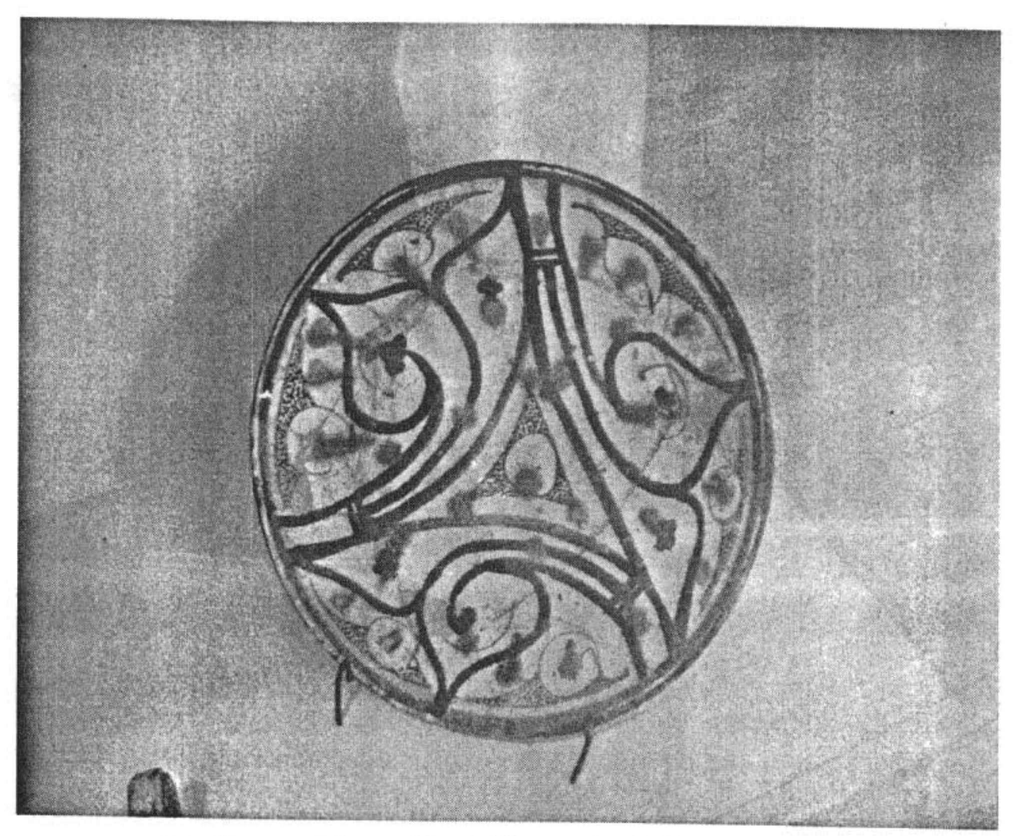
لوحة ٦ كسرة من صحن من الخزف ذى الرسوم باللونين الأسود والبنى



لوحة ٧ صحن من الخزف ذى الرسوم باللونين الأسود والبنى



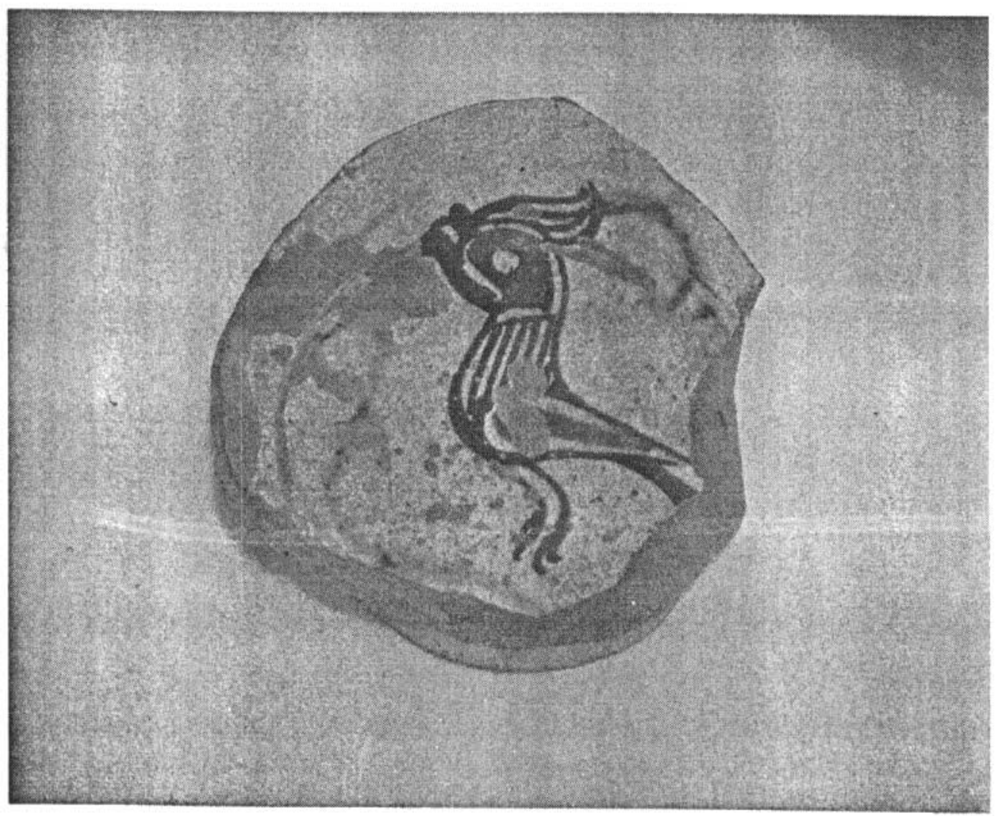
لوحة ٨ إناء من الخزف ذى الرسوم باللونين الأسود والبنى



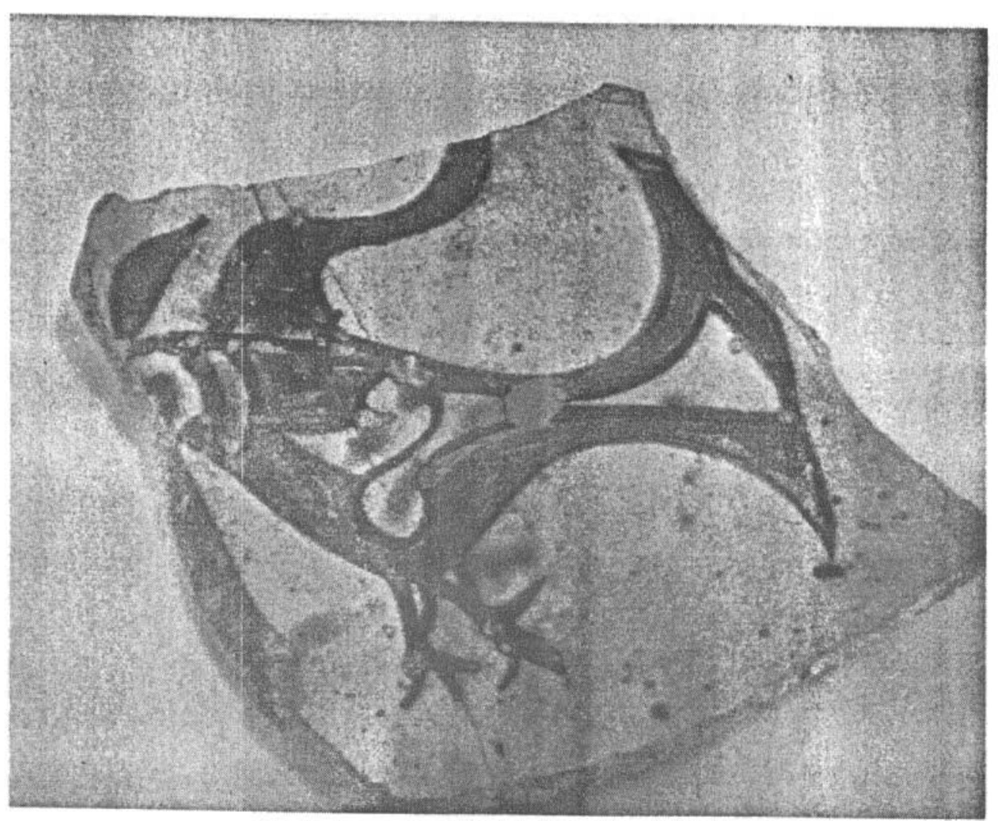
لوحة ٩ صحن من الخزف ذى الرسوم باللونين الأسود والبنى مع بطش خضراء



لوحة ١٠ إناء من الخزف ذى الرسوم باللونين الأسود والبنى مع بطش خضراء



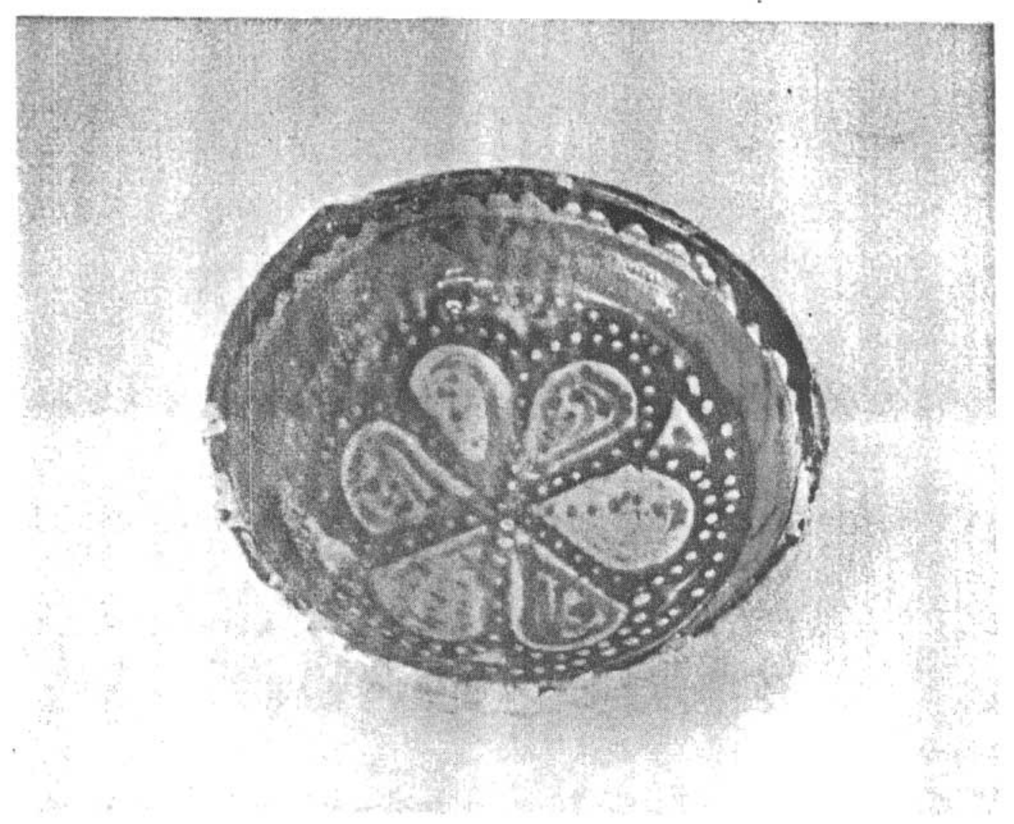
لوحة ١١ كسرة من صحن من الخزف ذى الرسوم باللونين الأسود والبنى مع بطش خضراء



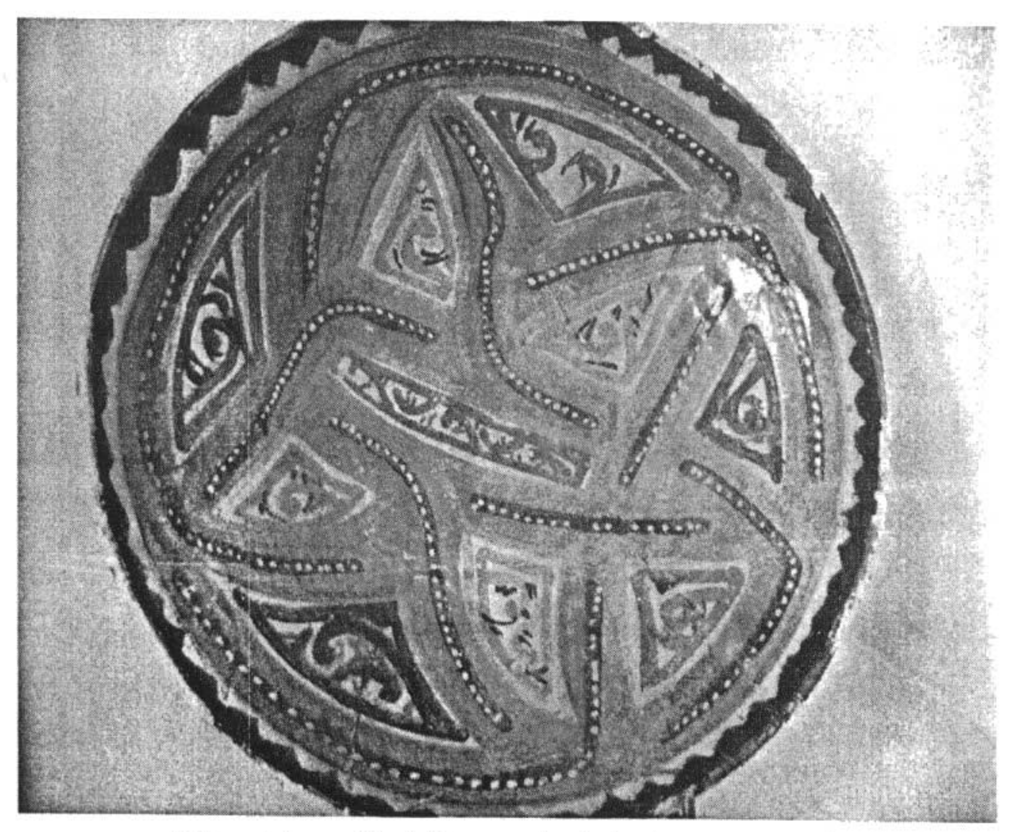
لوحة ١٢ كسرة من صحن من الخزف ذى الرسوم باللونين الأسود والبنى مع بطش خضراء



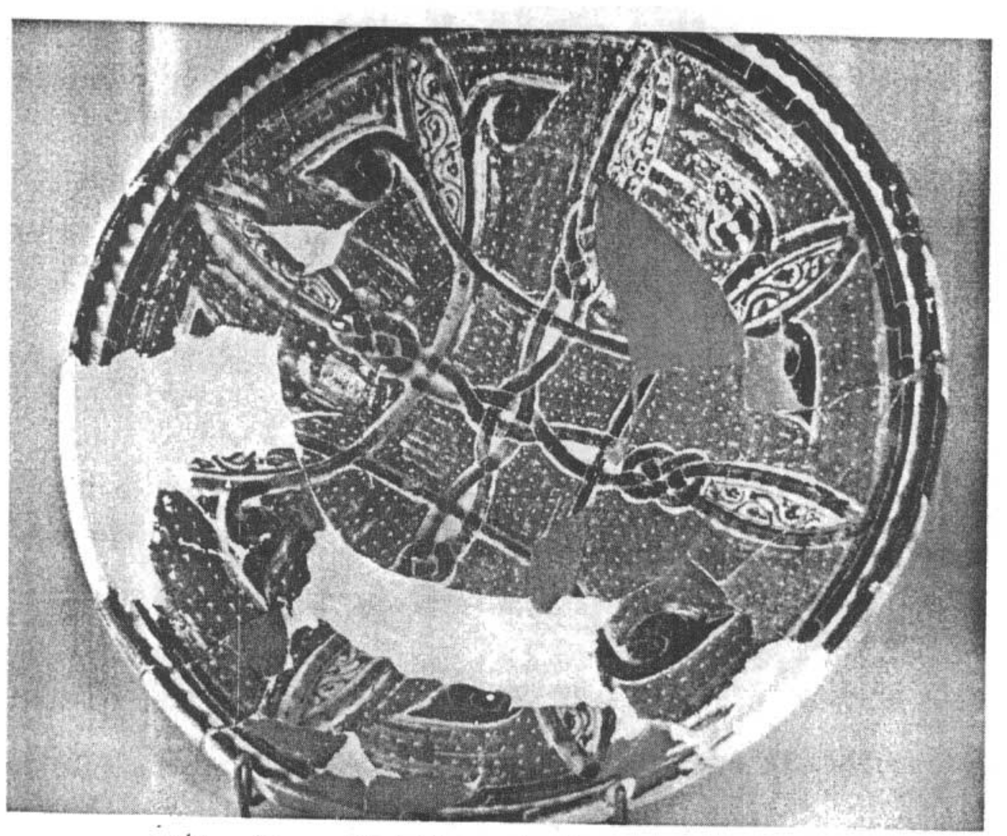
لوحة ١٣ صحن من الخزف ذى الرسوم بالألوان الأسود والبنى والأخضر



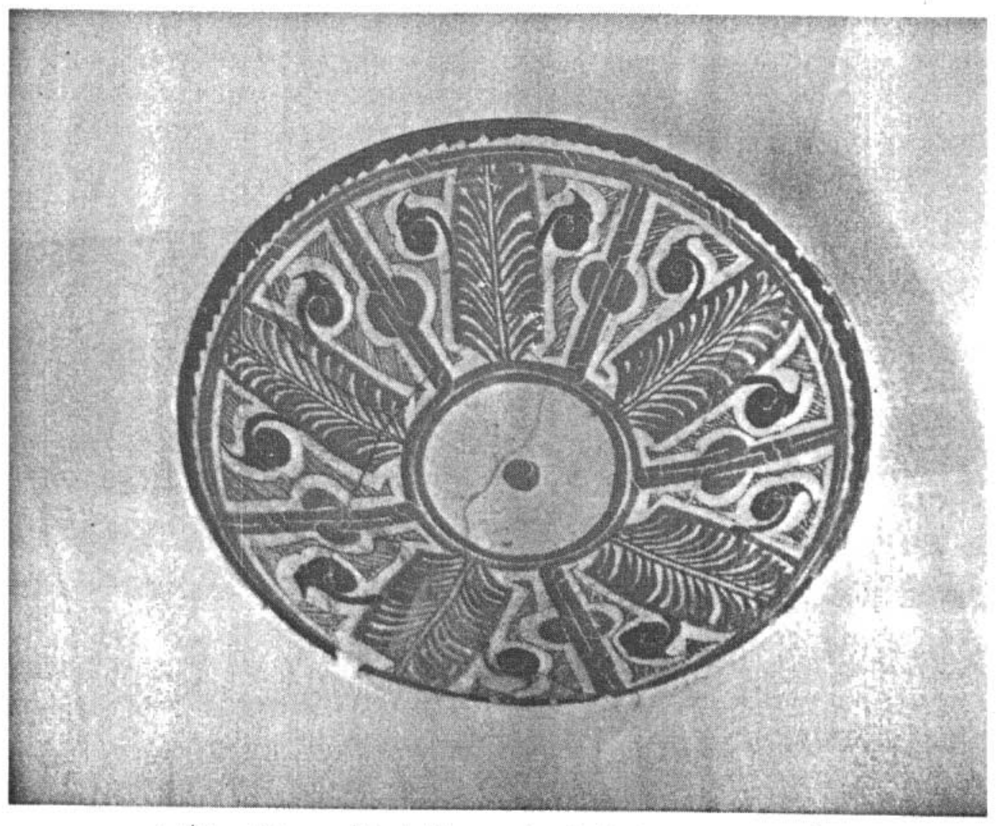
لوحة ١٤ سلطانية من الخزف ذى الرسوم بالألوان الأسود والبنى والأخضر



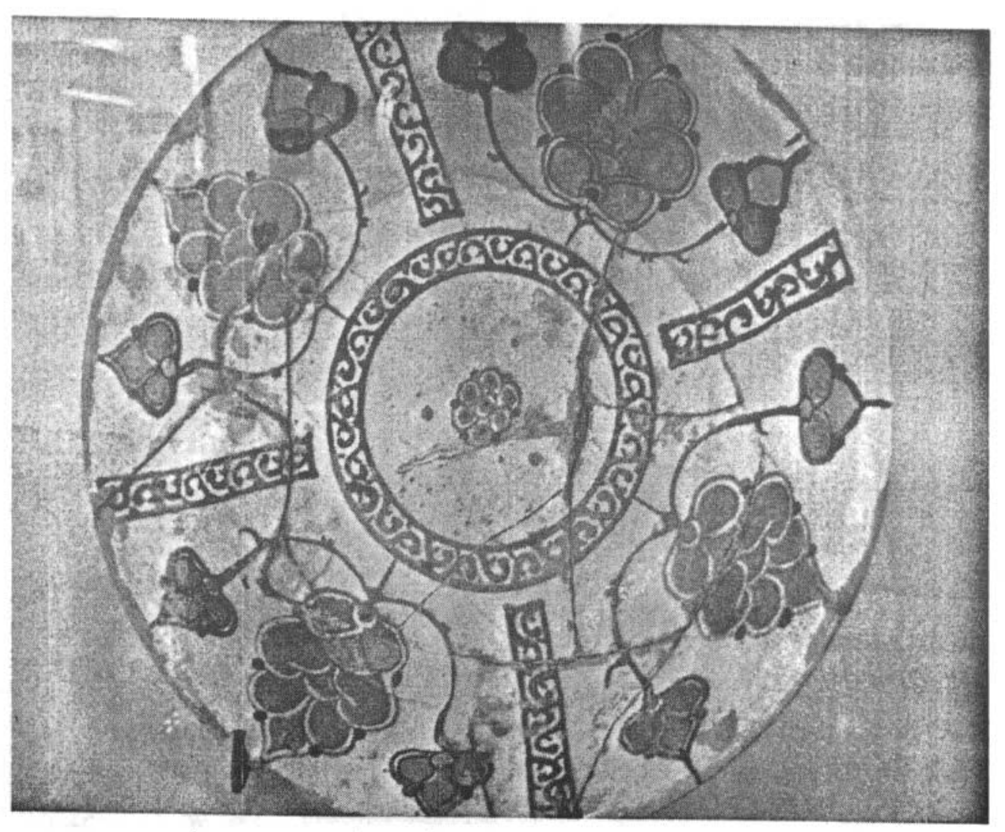
لوحة ١٥ صحن من الخزف ذى الرسوم بالألوان الأسود والبنى والأخضر



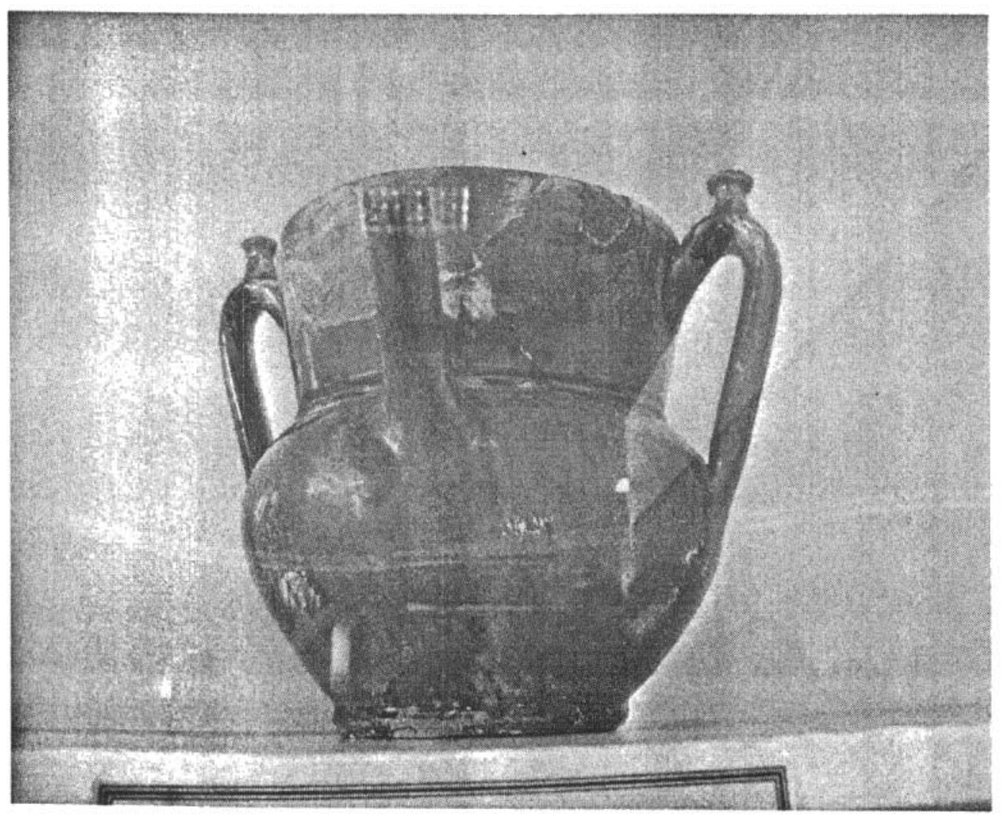
لوحة ١٦ صحن من الخزف ذى الرسوم بالألوان الأسود والبنى والأخضر



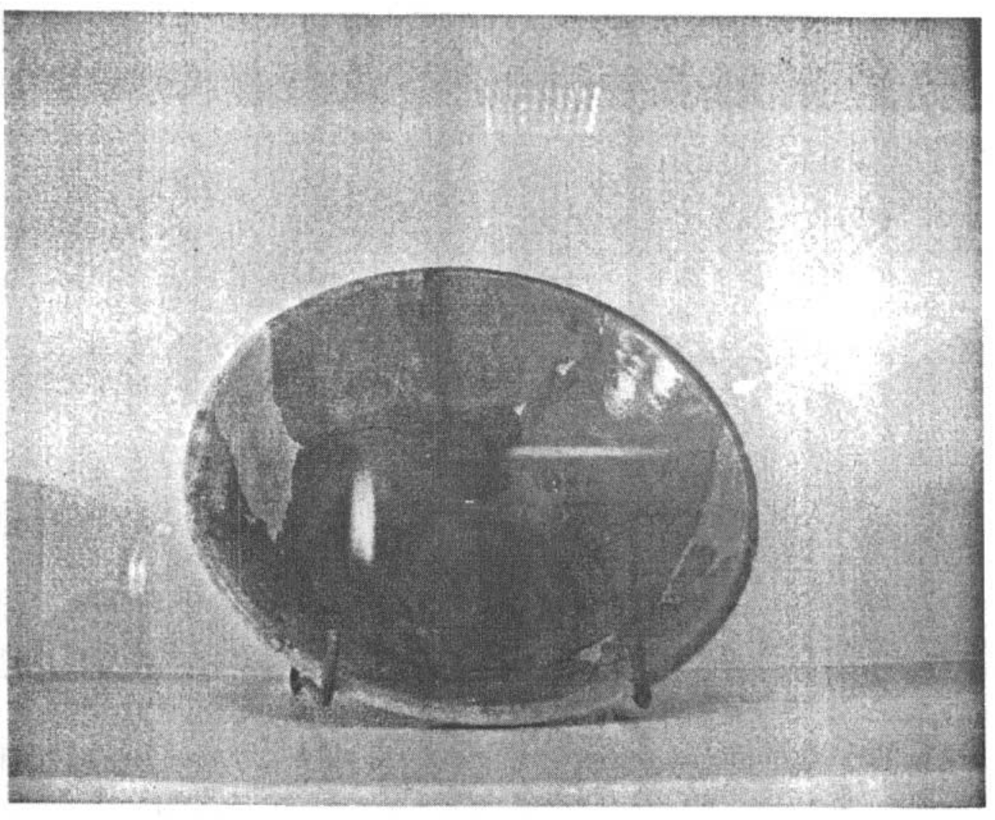
لوحة ١٧ صحن من الخزف ذى الرسوم بالألوان الأسود والبنى والأخضر



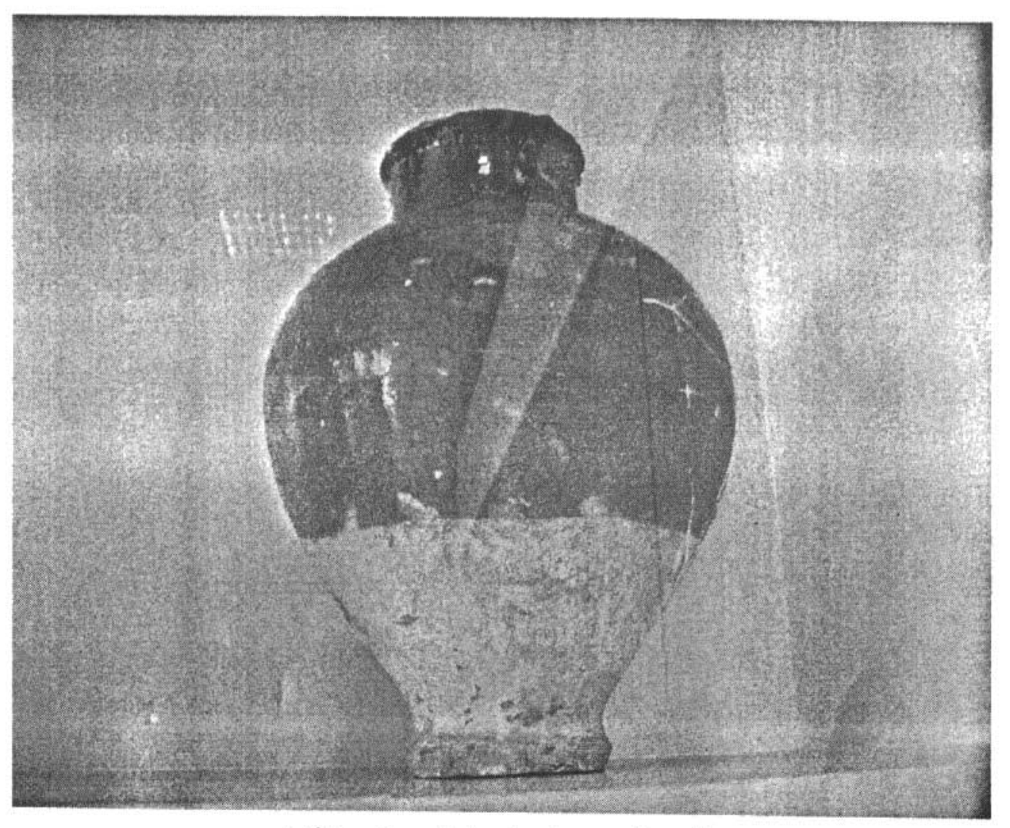
لوحة ١٨ صحن من الخزف ذى الرسوم بالألوان الأسود والبنى والأخضر



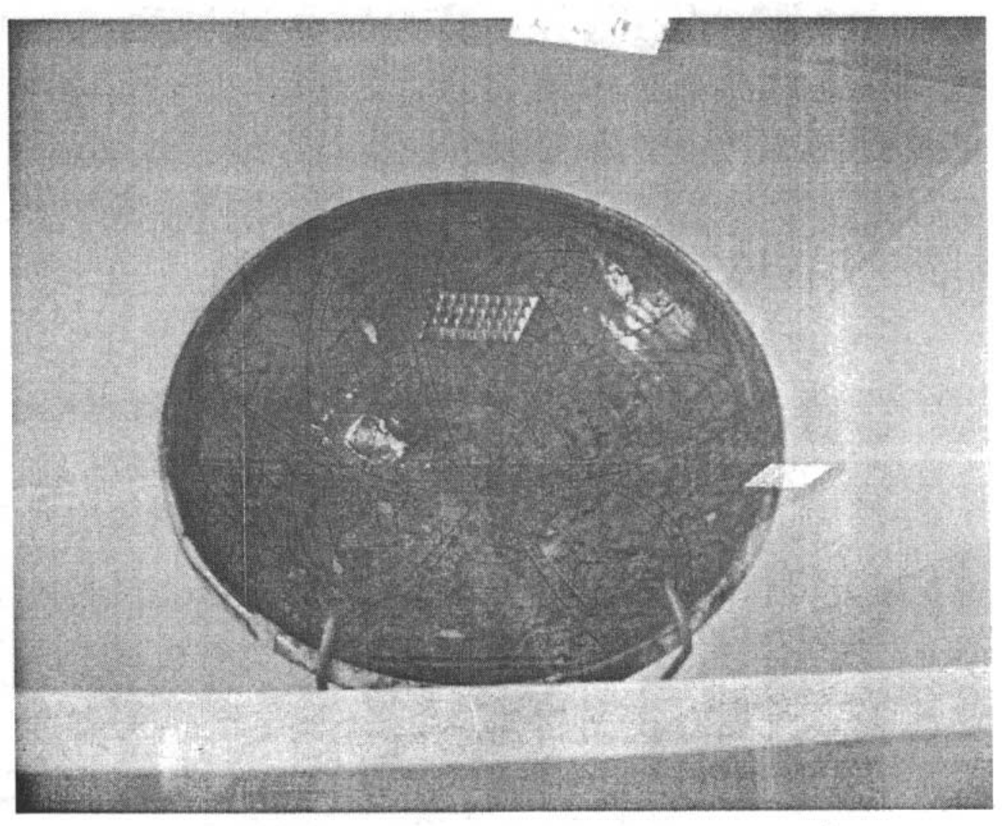
لوحة ١٩ إبريق من الخزف المطلى باللون الأخضر



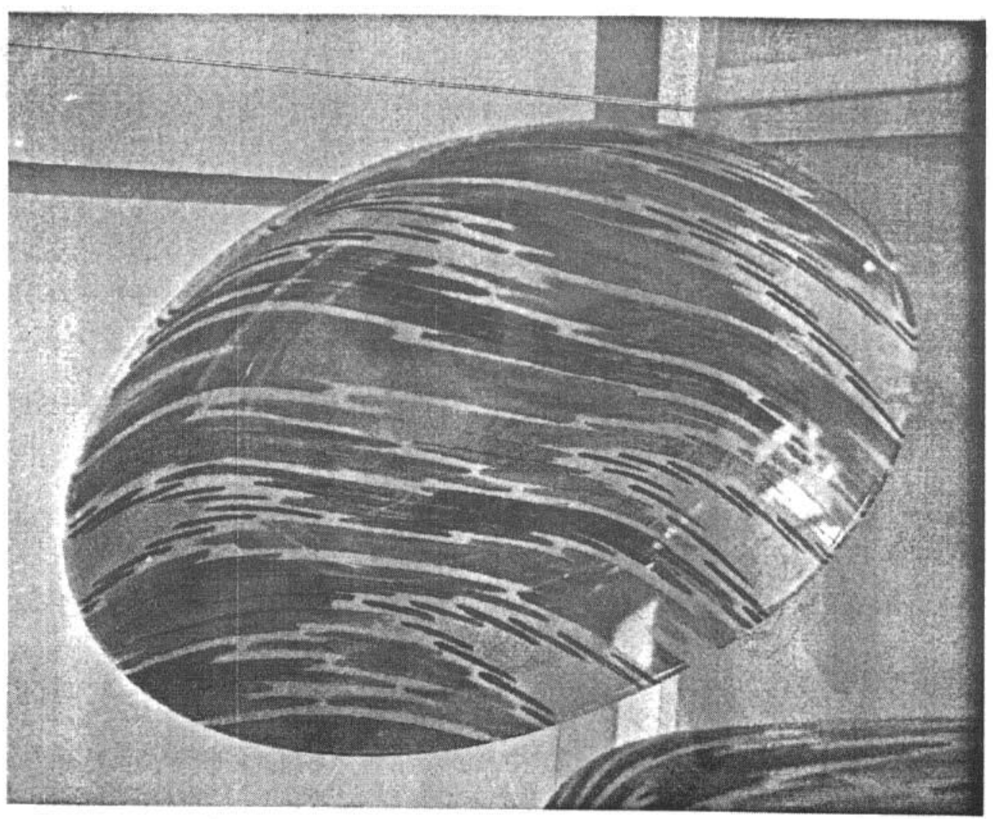
لوحة ٢٠ صحن من الخزف المطلى باللون الأخضر



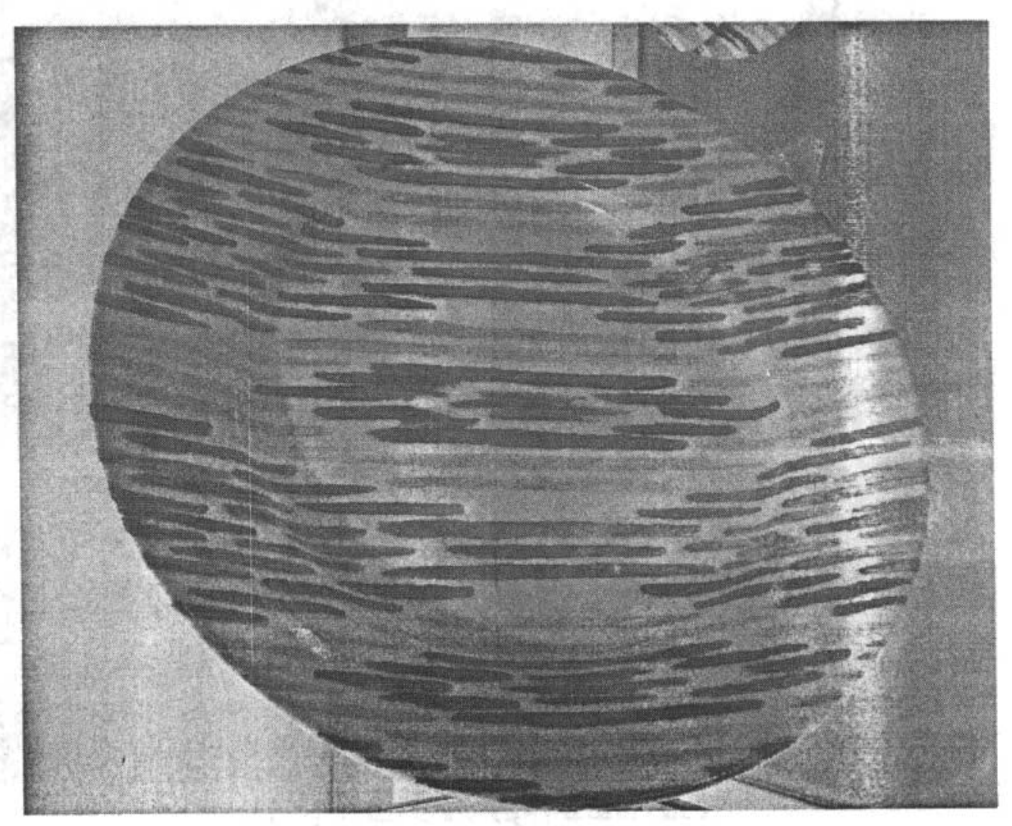
لوحة ٢١ قدر من الخزف المطلى باللون الأخضر



لوحة٢٢ صحن من الخزف المطلى باللون الأخضر و محزوز تحت الطلاء



لوحة ٢٣ صحن من الخزف ذى الألوان المتعددة المتداخلة



لوحة ٢٤ صحن من الخزف ذى الألوان المتعددة المتداخلة

الهوامش

(١) انظر
НИЛЬСЕН(В-А): МОНУМЕНТАЛЬНАЯ АРХИТЕКТУРА БУХАРСКОГО ОАЗИСА, ТАШКЕНТ 1856 p 67.

(٢) انظر
ГРУППА УЧЕННЫХ: ТАШКЕНТ, ЭНЦИКЛОПЕДИЯ,ТАШКЕНТ,1984,P387

(٣) الكتابات الصفدية هى الكتابات التى ترجع لفترة حكم الدولة الصفدية التى حكمت منطقة نهر سرداريا (بلاد ماوراء التهر) فى القرن الخامس قبل الميلاد، ولهم كتابات تشبه الكتابات الصينية القديمة، وبرز فيها علماء ومفكرون وكتاب كثيرون وكانت حضارتهم -إلى حد كبير- مرتبطة بالحضارة الصينية القديمة انظر :
НИЛЬСЕН(В-А): МОНУМЕНТАЛЬНАЯ АРХИТЕКТУРА БУХАРСКОГО ОАЗИСА, ТАШКЕНТ 1856p 3

(٤) انظر
КОЛЬБИНОВА (А-Н): ПО ДРЕВНИМ ГОРОДОМ УЗБЕКИСТАНА, ТАШКЕНТ,1988,P9

(٥)د عبد الشافى محمد عبد اللطيف : الفتح الإسلامى لبلاد ما وراء النهر، وانتشار الإسلام هناك، بحث بالمؤتمر الدولى (المسلمون فى آسيا الوسطى والقوقاز، الماضى والحاضر والمستقبل، جامعة الأزهر، القاهرة ١٩٩٢م، ص ١٠ .

(٦) عبد الله عبد الحميد سعد : موسوعة علماء آسيا الوسطي، مراجعة زاهد الله منوروف، طشقند ٢٠٠٨م ص ٢٢٧.

(٧) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ليدن ١٩٠٦، ص ٣٢٥ .

(٨) حسن احمد محمود : الإسلام والحضارة العربية فى آسيا الوسطي، القاهرة ١٩٦٨، ص ١٣٥.

(٩) أرمنيوس فاميرى : تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر، ترجمة: د. أحمد محمود الساداتي، القاهرة ١٩٦٩، ص ٦١.

(١٠) الطبرى (محمد بن جرير) : تاريخ الرسل والملوك، الجزء السادس، بيروت ١٩٦٧م، ص ١٠٥ .

(١١) د صلاح ندا : بخاري، بحث بمجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية، العدد التاسع عشر، جامعة الإسكندرية، الإسكندرية ١٩٦٤، ص ٤٥ .

(١٢) د محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق، القاهرة ١٩٦٥، ص ٨١ .

(١٣) د سعد حذيفة الغامدى : الفتوحات الإسلامية لبلاد الهند والسند، وتاريخ الدول الإسلامية فى المشرق حتى غزو المغول، الرياض ١٩٩٦م، ص ٤٥٠

(١٤) د عبد النعيم حسين : دولة السلاجقة، القاهرة ١٩٧٥م، ص ٤٩ .

(١٥) الخوارزمية نسبة إلى خوارزم، وهو الإقليم الذى كان مركزا للدولة، وكلمة خـــوارزم مـــن مقطعين خوار بمعنى لحم، ورزم بمعنى حطب، وحذفت إحدى الراءين للتخفيف، فـــصارت خوارزم، فهى أرض اللحم والحطب أى الطعام الموفور، انظر يـــاقوت الحمـــوى : معجـــم البلدان، الجزء الرابع، بيروت ١٩٥٥، ص ٣٩ .

(١٦) د صبرى سليم : الأتراك الخوارزميون فى الشرق الأدنى الإسلامي، القـــاهرة ٢٠٠٠، ص ٢١ .

(١٧) د السيد الباز العريني: المغول، دار النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨١م، ص ١٣٠ .

(١٨) بوريبوى أحمدوف، زاهد الله منوروف : العرب والإسلام فى أوزبكـــستان وتـــاريخ آســـيا الوسطى من أيام الأسر الحاكمة وحتى اليوم، مراجعة نعمة الله إبراهيموف، طشقند ١٩٩٦م، ص ١٨٩.

(١٩) الأوزبك نسبة إلى قبائل الأوزبك التركية والتى اشتقت تسميتها من الحاكم أوزبـــك تاســـع حكام قبيلة جوجى والذى كان مشهورا بالكرم، وأحبه أهل القبيلة وأطلقوا اسمه على قبيلتهم، وكلمة أوزبك كلمة تركية معناها سيد نفسه (سيد قراره)، انظر أرمنيوس فـــاميرى : تـــاريخ بخاري، ص ١٩٦ .

(٢٠) د حسين مؤنس : أطلس التاريخ الإسلامي، القاهرة ١٩٨٨م، ص ٢٤٤ .

(٢١) انظر

Watson (Francis) : AConsis History of India ,London 1957, P 108 ..

(٢٢) انظر

Uzbekistan Organization : The Monuments of Islam in Uzbekistan , Tashkent 2002. P 112 .

(٢٣) انظر

Kahalfin (A.N) : Russian Policy in Oriental Asia (1875 – 1868) , London, 1964 , P .30.

(٢٤) د سيد محمد السيد : لمحات من تاريخ العلاقات بين الدولة العثمانية وممالك آسيا الوســـطى والقوقاز الإسلامية، بحث بمؤتمر: المسلمون فى آسيا الوسطى والقوقاز، الماضى والحاضر والمستقبل، القاهرة ١٩٩٣م، ص ١١١.

(٢٥) د إلهام محمد على ذهنى : التوسع الروسى فى خانات آسيا الوسطى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، بحث بمؤتمر: المسلمون فى آسيا الوسطى والقوقاز، الماضى والحاضر والمستقبل، القاهرة ١٩٩٣م، ص ١٦٧.

(٢٦) محمد بن موسى الشريف : مدن أوزبكستان التاريخية المشهورة، بحث بمؤتمر أوزبكستان موطن علماء ومفكرى العالم الإسلامى العظام، والذى انعقد بمدينة طشقند بمناسبة اختيارهـا عاصمة للثقافة الإسلامية ٢٠٠٧م، يوم ١٢، ١٣ نوفمبر ٢٠٠٧، طشقند ٢٠٠٧، ص ٢٩.

(٢٧) انظر

ОТВЕТСТВУННЫЙ РЕДАКТОР: КАТАЛОГ МЕГАПИЧКСКИХ И КЕРАМИЧЕСКИХ ИЗПЕПИИ УЗБЕКИСТАНА XVII-XX BB ТАШКЕНТ-2000Г - 195

(٢٨) اللغة الأوزبيكية القديمة مشتقة من اللغة التركية، وكانت تكتب بحروف عربيـة، وتـشتمل على العديد من الكلمات العربية، فضلا عن بعض الكلمات الفارسية، وقد أصبحت الآن تكتب بحروف لاتينية، إلا أنها لازالت تحتفظ بجزء كبير من أصولها التركية والكلمـات العربيـة، فضلا عن دخول بعض الكلمات الروسية إليها . انظر :

ГРУППА УЧЕННЫХ: ТАШКЕНТ, ЭНЦИКЛОПЕДИЯ,ТАШКЕНТ,1984,P11

(٢٩) انظر

Mayor (Fedrico) : Emir Temur In World History and Arts , Tashkent,1996,P76.

(٣٠) انظر

Academy of Arts in Uzbekistan : Modern Arts Of Uzbekistan , Tashkent 2004 , P 183 .

(٣١) الميرابادى : غاية التواقين فى أخبار الخواقين، مخطوط محفوظ بقسم المخطوطات العربية بمعهد البيرونى للمخطوطات بطشقند، ورقة ٢٦ ظهر .

(٣٢) نيولسين (ب . ا) : تجارة خوقند وبخارى وخيوة، مذكرات الجمعية الإمبراطورية الروسية الجغرافية،سمرقند ١٩٥٦، ص ٦٧ .

(٣٣) انظر

Academy of Arts of Uzbekistan : Modern Arts , Op. Cit , P 189.

(٣٤) طائر اللقلق هو طائر صغير له منقار طويل منتشر فى بلاد ماوراء النهر، ويحبه الأوزبك كثيرا حتى أنهم اتخذوه رمزا لهم انظر :

ГРУППА УЧЕННЫХ: ТАШКЕНТ, ЭНЦИКЛОПЕДИЯ,ТАШКЕНТ,1984,P27

(٣٥) انظر

Uzbekistan Ministry of Culture : Applied Arts of Uzbekistan ,Tashkent 2003.P 33.

(٣٦) د محمد موسى الشريف : مدن أوزبكستان، البحث السابق، ص ٣٢ .

(٣٧) خدايار خان هو آخر حكام خانية خوقند وفى عهده عقد اتفاق مع روسيا يضمن زيادة النفوذ الروسى فى خوقند، وذلك بعد هزيمته أمام الجيوش الروسية، ويعـد هـذا الإتفـاق إيـذانا بالاحتلال والسيطرة شبه الكاملة لروسيا على خانية خوقند، ومدنها ومن أهمها طشقند. انظر: نياز محمد الخوقندى : تاريخ ملوك فرغانة، قازان ١٩٤٥، ص ١١٩.

(٣٨) ميزا عليم الطشقندى : أنساب السلاطين وتواريخ الخــواقين، مخطــوط محفــوظ بمعهــد الاستشراق بطشقند، قسم المخطوطات تحت رقم ٢٤٦٠، ورقة ٣٦ ظهر .

(٣٩) انظر

Uzbekistan Organization : The Monuments of Uzbekistan ,m P 37

(٤٠) انظر

Uzbekistan Ministry of Culture : Applied Arts of Uzbekistan ,.P 76 .

(٤١) مترنتيف : تاريخ احتلال آسيا الوسطي، تعريب بوريبوى محمدوف، ســمرقند ١٩٩٦، ص ٣٠٢ .

(٤٢) بوريبوى أحمدوف، زاهد الله منوروف : العرب والإسلام فى أوزبكستان، ص ٢٧ .

(٤٣) انظر

Uzbekistan Ministry of Culture : Applied Arts of Uzbekistan ,Op.Cit.P 105 .

(٤٤) انظر

ОТВЕТСТВУННЫЙ РЕДАКТОР: КАТАЛОГ МЕГАПИЧКСКИХ И КЕРАМИЧЕСКИХ ИЗПЕПИИ УЗБЕКИСТАНА XVII-XX BB ТАШКЕНТ-2000Г 77

(٤٥) الميرابادى : غاية التواقين، المخطوط السابق، ورقة ٩ .

(٤٦) انظر :

Mayor: Emir Temur Op.Cit, ,P115

المراجع المستخدمة فى البحث

أولا : المراجع العربية والمعربة

(١)) أحمدوف (بوريبوي)، زاهد الله منوروف : العرب والإسلام فى أوزبكستان وتاريخ آسيا الوسطى من أيام الأسر الحاكمة وحتى اليوم، مراجعة نعمة الله إبراهيموف، طشقند ١٩٩٦ م .

(٢) حسين (د عبد النعيم) : دولة السلاجقة، القاهرة ١٩٧٥م .

(٣) الحموى (ياقوت) : معجم البلدان، الجزء الرابع، بيروت ١٩٥٥ .

(٤) الخوقندى (نياز محمد) : تاريخ ملوك فرغانة، قازان ١٩٤٥

(٥) ذهنى (د إلهام محمد علي) : التوسع الروسى فى خانات آسيا الوسطى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، بحث بمؤتمر: المسلمون فى آسيا الوسطى والقوقاز، الماضى والحاضر والمستقبل، القاهرة ١٩٩٣م.

(٦) سرور (د محمد جمال الدين) : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق، القاهرة ١٩٦٥.

(٧) سعد (عبد الله عبد الحميد) : موسوعة علماء آسيا الوسطي، مراجعة زاهد الله منوروف، طشقند ٢٠٠٨م.

(٨) سليم (د صبري) : الأتراك الخوارزميون فى الشرق الأدنى الإسلامي، القاهرة ٢٠٠٠.

(٩) السيد (د سيد محمد) : لمحات من تاريخ العلاقات بين الدولة العثمانية وممالك آسيا الوسطى والقوقاز الإسلامية، بحث بمؤتمر: المسلمون فى آسيا الوسطى والقوقاز، الماضى والحاضر والمستقبل، القاهرة ١٩٩٣م .

(١٠) الشريف (د محمد بن موسي) : مدن أوزبكستان التاريخية المشهورة، بحث بمؤتمر أوزبكستان موطن علماء ومفكرى العالم الإسلامى العظام، والذى انعقد بمدينة طشقند بمناسبة اختيارها عاصمة للثقافة الإسلامية ٢٠٠٧م، يوم ١٢، ١٣ نوفمبر ٢٠٠٧، طشقند ٢٠٠٧ .

(١١) الطبرى (محمد بن جرير) : تاريخ الرسل والملوك، الجزء السادس، بيروت ١٩٦٧م.

(١٢) الطشقندى (ميرزا عليم) : أنساب السلاطين وتواريخ الخـــواقين، مخطـــوط محفوظ بمعهد الاستشراق بطشقند، قسم المخطوطات تحت رقم ٢٤٦٠.
(١٣) عبد اللطيف (د عبد الشافى محمد) : الفتح الإسلامى لبلاد ما وراء النهــر، وانتشار الإسلام هناك، بحث بالمؤتمر الدولى (المسلمون فى آسيا الوسطى والقوقاز، الماضى والحاضر والمستقبل، جامعة الأزهر، القاهرة ١٩٩٢م ..
(١٤) العرينى (د السيد الباز) : المغول، دار النهضة المصرية، القاهرة ١٩٨١.
(١٥) الغامدى (د سعد حذيفة) : الفتوحات الإسلامية لبلاد الهند والسند، وتـــاريخ الدول الإسلامية فى المشرق حتى غزو المغول، الرياض ١٩٩٦.
(١٦)) فاميرى (أرمنيوس) : تاريخ بخارى منذ أقـــدم العـــصور حتـــى العـــصر الحاضر، ترجمة د أحمد محمود الساداتي، القاهرة ١٩٦٩.
(١٧) محمود (حسن أحمد) : الإسلام والحضارة العربية فى آسيا الوسطي، القاهرة ١٩٦٨.
(١٨) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ليدن ١٩٠٦ .
(١٩) مترنتيف : تاريخ احتلال آسيا الوسطي، تعريب بوريبوى محمدوف، سمرقند ١٩٩٦.
(٢٠) مؤنس (د حسين) : أطلس التاريخ الإسلامي، القاهرة ١٩٨٨.
(٢١)) الميرابادى : غاية التواقين فى أخبار الخواقين، مخطـــوط محفـــوظ بقـــسم المخطوطات العربية بمعهد البيرونى للمخطوطات بطشقند .
(٢٢) ندا (د صلاح) : بخاري، بحث بمجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية، العدد التاسع عشر، جامعة الإسكندرية، الإسكندرية ١٩٦٤.
(٢٣) نيولسين (ب . ا) : تجارة خوقند وبخـــارى وخيـــوة، مـــذكرات الجمعيـــة الإمبراطورية الروسية الجغرافية، سمرقند ١٩٥٦.

ثانيا : المراجع الأجنبية

24. Academy of Arts in Uzbekistan : Modern Arts Of Uzbekistan , Tashkent 2004
25. НИЛЬСЕН(В-А): МОНУМЕНТАЛЬНАЯ АРХИТЕКТУРА БУХАРСКОГО ОАЗИСА, ТАШКЕНТ 1856
26. Kahalfin (A.N) : Russian Policy in Oriental Asia (1875 – 1868) , London, 1964
27. КОЛЬБИНОВА (А-Н): ПО ДРЕВНИМ ГОРОДОМ УЗБЕКИСТАНА, ТАШКЕНТ,1988
28. Mayor (Fedrico) : Emir Temur In World History and Arts , Tashkent,1996
29. ОТВЕТСТВУННЫЙ РЕДАКТОР: КАТАЛОГ МЕГАПИЧКСКИХ И КЕРАМИЧЕСКИХ ИЗПЕПИИ УЗБЕКИСТАНА XVII-XX ВВ ТАШКЕНТ-2000Г
30. ГРУППА УЧЕННЫХ: ТАШКЕНТ, ЭНЦИКЛОПЕДИЯ ,ТАШКЕНТ,1984
31. Watson (Francis) : AConsis History of India ,London 1957
32. Uzbekistan Ministry of Culture : Applied Arts of,Tashkent 2003.
33. Uzbekistan Organization : The Monuments of Islam in Uzbekistan , Tashkent 2002.



المجتمع البخارى
فى عصر الخانيين الترك
(التركيب الاجتماعي)
(من ٤٠٣هـ إلى ٦٠٩هـ/ ١٠١٢م إلى ١٢١٢م)

د/ محمد سيد كامل محمد
مدرس بكلية دار العلوم- جامعة المنيا
قسم التاريخ الإسلامى والحضارة

تمهيد:-

ارتبطت حياة المجتمع البخارى بطابع متميز وخصوصية انفردت بها عن سائر المجتمعات فى تلك الحقبة التاريخية، حيث إن الخصائص التى ميزت عناصر المجتمع البخارى بفعل المؤثرات البيئية والأخلاقية قد باتت دافعاً فعالاً للحركة الإسلامية وتوجهاتها الاجتماعية. الأمر الذى جعل حياة أهل بخارى[1]، لفترة زمنية طويلة جاوزت الخمسة قرون بعد دخول الإسلام موصولة بطبيعة الحال بهذه الخصال، فهى مقرونة بمؤثرات حضارية عربية، بالإضافة إلى العادات والتقاليد الفارسية والتركية السائدة فى هذا المجتمع.

فالتركيب الاجتماعى لبخارى كان يختلف عما كان فى بقية المجتمعات، فقد غلب عليها العنصر الآري، فهى من أقدم المدن التى استقر بها الآريون، وعندما قدمت الجماعات التركية من تركستان فى القرن السادس الميلادي، واستولت على المدن الفارسية، نزل عدد كبير منهم بخارى، حيث استقروا بها، فغلب عليها الطابع التركي[2].

وسوف أتناول فى هذا البحث التركيب الاجتماعى لبخارى فى عصر الدولة الخانية من ٤٠٣هـ إلى ٦٠٩/ ١٠١٢م إلى ١٢١٢م؛ من طبقات المجتمع وعناصر السكان والطوائف والبيئة دون المساس بباقى الدراسة الاجتماعية من

مظاهر الحياة العامة ودور المرأة فى بخارى، فالبحث قاصر على التركيب الاجتماعى للسكان فقط.

وعلى ذلك نقول إن المجتمع فى بخارى سادت فيه حياة البداوة والتقاليد والأعراف القبلية، وعاش الأهالى فى الخيام قبل الإسلام، ثم بنوا المنازل فى جهات عديدة[٣]، ولكن لا نستطيع أن نجزم بأن النمط القبلى هو الذى أدى إلى ظهور الكيان الاجتماعى فيها، بل إن هناك عوامل أخرى أهمها العامل الاقتصادي، وخصوبة الأراضى الزراعية، ووفرة مصادر المياه من الأنهار، ونهر الصفد الذى اعتمد عليه فى الري، حيث تفرعت منه عدة قنوات صغيرة[٤]؛ لذا أسهم النشاط الزراعى فى بلوغ إقليم بخارى أوج شهرته، ولا نبالغ إذا قلنا إنه كان سبباً فى تشكيل التركيب الاجتماعى فى هذه المناطق، فأفرز طبقة فى المجتمع هى طبقة الدهاقين (الدهاقنة) التى مثلت الطبقة الأرستقراطية الزراعية المسيطرة[٥]، والتى احتلت مكانة اجتماعية لا نظير لها فى بخارى، وتعود إليها من حيث الأصل والنشأة الأسرة الحاكمة فى الأقاليم[٦].

ولقد اهتم ملوك بخارى فى تلك الآونة ببناء القصور وسط البساتين بمحاذاة الأنهار، وأقاموا فى القصر الملكى أو ما عرف بقصر المدينة، الذى كان أشبه بقلعة محصنة، ويضم الدواوين الإدارية والمالية وبيت الحريم والسجن والخزانة[٧].

أما المدينة نفسها، فكان يحيط بها سور محكم تتوسطه قلعة بخارى، التى يميل تصميمها إلى الشكل المربع، ولها سبعة أبواب حديدية، ولها بابان على القلعة[٨]، وهى التى انفردت بسكنى الأسرة الحاكمة.

أما عن بخارى فى فترة حكم الخانيين الترك، منذ ٤٠٣هـ إلى ٦٠٩هـ/ ١٠١٢م إلى ١٢١٢م، فقد استطاع شمس الملك نصر بن طمغاج خان، أول ملوكهم فى بخارى، أن يتخذ منها عاصمة لدولة الخانية، وبذلك تشكل المجتمع البخارى بالطابع التركى الخالص.

وهنا نطرح سؤالا هل هذه هى أول مرة يعرف فيها الخانيون بخارى منذ قيام دولتهم فى بلاد التركستان ٣١٦هـ/٩٢٧م، أم سبقتها محاولات للسيطرة عليها من حكامها السامانيين. وعلى ذلك نقول إن محاولات الخانيين تكررت بعد وفاة الأمير إسماعيل السامانى للسيطرة على بخارى؛ نتيجة لضعف حكامها وارتفاع شأن كبار

رجالات الدولة[١٠]، ولتشجيع طبقة الدهاقين ببخارى للخانيين على الهجوم[١١]، لـذا هاجموا مدينة بلاساغون[١٢]، ولكن المحاولة باءت بالفشل، ثم تكرر هجوم الخانيين فى عهد بغراخان[١٣] ٣٨٢هـ/٩٩٢م، واحتلوا العاصمة[١٤] ، ولكن ذلك لم يدم ذلك طويلا.

ولابد أن نشير هنا إلى أن محاولة بغراخان السيطرة على بخارى قد بـاءت بالفشل[١٥] وذلك نتيجة لعودة الخان إلى تركستان، وتعيينه فى حكمها نائبـاً عنـه، فتمكن الأمير نوح السامانى من أبعادها مرة أخرى[١٦].

وقد تجدد الصراع من جديد فى عهد أيلك خان[١٧]، حيث تمكن من ضم بلاد ما وراء النهر- بخارى وسمرقند- إلى حوزته، نتيجة لاستعانة أمراء الـسامانيين وعلى رأسهم الأمير فائق به ضد الأمير نوح[١٨]. كذلك عقـدت معاهـدة نتيجـة للتقارب بين أيلك خان والأمير سبكتكين الغزنوي[١٩]، أطلق عليها اسم معاهدة بادية قطوان[٢٠]، وشهد على بنود هذه المعاهدة الفقهاء والأعيان من كلا الطرفين[٢١].

وبناء على هذه المعاهدة أصبح نهر جيجون حداً فاصـلاً لاقتـسام أمـلاك السامانيين، فيكون جنوب النهر بالإضافة إلى خـوارزم مـن ضـمن ممتلكـات الغزنويين، ويكون شمال النهر ملكاً للخانيين[٢٢]، وعلى الرغم مـن أن الخـانيين باستيلاء الغزنويين على خوارزم سيكونون شوكة قوية فى ظهورهم، فإن أيلك خان قبل هذا الاتفاق، وبذلك أصـبحت بخـارى تابعـة للحكـم التركـى منـذ سـنة ٣٨٩هـ/٩٩٨م[٢٣].

ولابد أن نشير هنا إلى أنه بالرغم من تبعية بخارى لحكم الخانيين إلا أن أيلك خان سرعان ما عاد إلى عاصمة أوزكند[٢٤]، وأقام نائباً عنه فى حكمها وهو أخوه المسمى تكين، ومعه شحنة عسكرية لحماية المدينة من أى اعتداءات فى الداخل أو الخارج[٢٥]، وبذلك أصبحت التبعية شبه رسمية للخانيين، ولم يتخذوا منها عاصمة لملكهم[٢٦] فى تلك الفترة.

وقد استمر الوضع السياسى لبخارى كولاية تابعة للخانيين حتى عهد شـمس الملك نصر بن إبراهيم بن طمغاج خان، الذى انتقـل إليهـا، واتخـذها حاضـرة لملكه[٢٧]. ويرجع المؤرخون السبب فى ذلك إلى ما حدث من نزاعات داخلية دارت بين أولاد قدر خان يوسف حكام الجزء الشرقى من الخانية وبـين شـمس الملـك

نصر، فقد أعلنت الحرب بينهما، وأجبروه على تقسيم المملكة، فأصبح ما وراء النهر والجزء الغربى لشمس الملك نصر، والجزء الشرقى لأولاد قدر خان[٢٨].

أولاً: عناصر المجتمع فى بخارى فى عهد الدولة الخانية:-

امتزجت عدة عناصر فى المجتمع البخارى فى عهد الخانية، فهناك العنصر التركى، والعنصر الفارسي، والعنصر العربى القادم مع الفتح الإسلامى، ووجدت عدة طبقات اجتماعية مثلت التكوين الاجتماعي، والتى يمكن تقسيمها حسب الغنى والثروة المالية، كالطبقة الحاكمة، وطبقة الدهاقين، وطبقة العلماء العامة، والطبقة الدنيا، والجوارى والعبيد، هذا إلى جانب وجود طوائف دينية متمثلة فى رجال الدين من أهل السنة وغالبيتهم من أصحاب المذهب الحنفى السائد فى بخارى، وأهل الذمة من اليهود والنصارى، وبقايا المجوس من البوذيين والزرادشتيين.

أ. العنصر التركي:-

يعتبر الترك من أهم العناصر التى سكنت بخارى فى عهد الدولة الخانية، حيث وفدوا إليها منذ أواخر العصر السامانى[٢٩]، حيث استأثر هذا العنصر بالنفوذ السياسى والسلطة فى الإقليم، فأسندت إليه كافة المناصب السياسية والقيادية.

وقد اتصف ملوك الترك وحكامهم بالحزم والعدل وحسن السيرة، والتمسك بالدين الإسلامى، فلم يكن الدين فى أعين الخانيين وسيلة للحفاظ على عروشهم فحسب، بل كانت تعاليمه تطبق على المجتمع بما ذلك الملوك الذين أحجموا عن تناول الخمور، لتعارضها مع الشريعة الإسلامية[٣٠].

كذلك مثل العنصر التركى فى بخارى الأرستقراطية السياسية الحاكمة، بحكم سيطرتهم على كافة الأمور؛ لانتماء الخانيين إليهم، وهم الذين مالوا إلى بنى جلدتهم عمن حواهم المجتمع من عناصر أخرى. وقد برز خطر عنصر الأتراك فى أواخر حكم الخانيين وذلك عندما فقد الحكام قوتهم وقدرتهم، بحيث لم يتمكنوا من السيطرة على مماليكهم وجنودهم، فأصبح الترك مصدر قلق وثورة فى بخارى[٣١].

ويكتنف الغموض تاريخ الخانيين أو ما يعرفون فى التاريخ باسم القراخانيين، فما ذكرته عنهم فى الكتب ضعيف وناقص ولا يتفق عليه اثنان، خصوصا ما يتصل ببداية ظهورهم فى التركستان، وكيفية دخولهم الإسلام، ووقت اعتناقه على وجه التحديد. فإذا أرجعنا أصلهم إلى عنصر الأوغراة فإننا نجد ارتباطاً وثيقاً بينهم وبين

ملوك الصين؛ إذ نجد فى تاريخ الصين التنويه بخدماتهم فى مواضع كثيرة، وهناك علاقات مصاهرة بين رؤسائهم وأمراء أسرة "تانغ". مما أدى إلى اعتماد كل طرف على الآخر فى النجدة والمساعدة أيام الحرب، والتعاضد فى أيام السلم(٣٢).

وإذا أرجعنا أصلهم إلى العنصر الأويغورى فإننا نجد أن أول آثار رسوم اجتماعية وسياسية نشأت تركية خالصة يرجع إلى اضمحلال الدولة السامانية(٣٣). ومما لا شك فيه أن الأتراك فى هذه الحقبة من تاريخهم كانوا على درجة ما من الثقافة والعلم استعملوا فيها الأبجدية الأويغورية، التى أخذت حروفها تتلاشى تدريجياً وحلت محلها الحروف العربية. وقد كان من عاداتهم وهم يستخدمون الأبجدية الأويغورية أن يثبتوا الحركات الطويلة، فلما استخدموا الأبجدية العربية استفادوا كثيراً من استعمال الألف والواو والياء، ويشير بارتولد(٣٤) إلى أن: "عدد المخطوطات التركية المضبوطة بحروف الحركة أكبر كثيراً من عدد المخطوطات العربية والفارسية المضبوطة بالشكل".

ويعتبر الحاكم ساتوق بغراخان بن عبد الكريم أول خان تركى اعتنق الإسلام، وقد عرف بشهاب الدولة هارون بغراخان بن أيلك(٣٥)، فى حدود سنة ٣٥٠هـ/ ٩٦٠م، على يد أحد علماء الدين السامانيين(٣٦)، وهو الفقيه أبو الحسن محمد بن سفيان الكلماتي(٣٦)، بينما يشار إلى موسى بن ساتوق بغراخان بأنه هو أول من اعتنق الإسلام وجعله دينا رسميا للدولة، وقد سارت رعيته على أثره. وما يهمنا هنا هو أن الفضل يرجع للسامانيين ومجهوداتهم المتواصلة فى نشر الإسلام بين قبائل الخانية الترك فى تركستان.

وقد جرت التقاليد التركية فى الزواج على أن يبقى العريس فى دار صهره لمدة عام كامل معززا مكرماً، ويظهر هذا بوضوح فى بقاء عثمان خان آخر سلاطين الخانية فى بلاط السلطان علاء الدين محمد خوارز مشاه بعد زفافه من ابنته الأميرة خان سلطان على غرار العادة التركية القديمة المتبعة لدى الخانيين(٣٨).

ولقد سادت عدة عادات اجتماعية بين الأتراك فى حياتهم العامة، إذ كان من أصول الملك لدى كل الخانات أن يوسعوا فى الطعام على عمالهم فى المطبخ اعتقاداً بأنه يمنح البركات لدولتهم(٣٩)، ولقد وصل كرم بعض خاناتهم إلى توزيع الصحاف المليئة بالذهب والفضة على شعرائهم، فقد قام خضر خان بإهداء الشاعر

عبد الله الرشيدى ما قيمته أربعة أطباق من الذهب والفضة مما يدل على أمرين: حب الخان للكرم والبذخن وتشجيعه للشعراء والمثقفين(٤٠).

كما جرت عادة الخانيين فى مجالسهم على وضع الذهب والفضة فى أطباق أمامهم يسمونها "سيم طاقا"، أو "جفت"، وتبدو هذه الظاهرة واضحة بصورة كبيرة فى بلاط خضر خان فقد قيل إنه كان يضع فى مجلسه أطباقاً بها الذهب الأحمر من أجل العطاء، فى كل منها مائتان وخمسون ديناراً، ويمنح بقبضة يده(٤١)، وهذا دلالة على سعة الثروة والكرم الشديد والجود.

أما بالنسبة للملبس والزى لدى الأتراك من علية القوم والطبقة الحاكمة فإنه يمتاز بغلو ثمنه وارتفاع مستواه عن باقى عناصر المجتمع البخارى، بينما يُرى السلطان سنجر السلجوقى لا يتكلف فى ملبسه فكان يلبس فى أكثر الأوقات ثوباً زندنجياً أو ثوباً عنابياً من الحرير غير المنقوش، وصديرياً رقيقاً(٤٢)، وكان من عادة غلمان الترك لبس الملابس الملونة، أما القادة فيرتدون العباءات الرومية، ويتمنطقون بالنطاقات الذهبية المرصعة بالجواهر اللامعة(٤٣).

وقد اتصف الخانيون الترك بالعدل والميل إلى تثبيت قواعد النظام والأمن فى أراضيهم، فكان أدنى اعتداء على أملاك الغير يلقى جزاءً صارماً، فقد حدث فى عهد طمغاج خان إبراهيم أن كتب أحد اللصوص على أحد أبواب المدينة: "نحن كالبصلة كلما تقطع تكبر رؤوسنا" ؛ فأمر الخان بأن يكتب تحت ذلك: "وأنا كالبستانى كلما ارتفع لكم رأس اجتثثته"، وعلى ذلك عمل الحيلة لكى يجمع اللصوص وقطاع الطرق، مع الزعم بأنه سوف يوزع الخلع عليهم، فاجتمع لديه أكثر من ثلاثمائة رجل، فأمر سيافه الأول (جاندار) بقطع رؤوسهم، وبذلك دخل اللصوص وقطاع الطريق حال من الفزع والرهبة لم يفقد معها من أهل بخارى شيء من المال(٤٤).

أيضًا سيطر العنصر التركى على المناصب العسكرية فى بخارى، فكان الحكام يستخدمونهم فى المناصب القيادية مثل: "سباش تكين" بن أيلك خان الذى وضع فى مقدمة جيشه خمسمائة غلام تركى من حملة السهام، وصفوا بأنهم من المهارة والخبرة بحيث يستطيعون تمزيق حتى الشعرة بنصل سهامهم(٤٥)، وهذا دلالة على مهارتهم بفنون القتال.

كما اتصف بعض ملوكهم بالتدين الشديد والتعفف عن الاستيلاء على أموال الغير، فقد كان طمغاج خان لا يفرض ضرائب جديدة على رعيته حتى يستفتى الفقهاء، وقد بلغ من توقيره لرجال الدين أنه لما قال له الخطيب أبو شجاع من إحدى سلالات العلويين: "أنت لا تصلح للملك"، أغلق الخان أبواب قصره وعزم على التنازل عن العرش، لكن الأهالى أفلحوا فى إقناعه بأن الخطيب أخطأ، وأن ألفاظه تتعارض مع ما يبذله الخان من جهد من أجل رعيته[٤٦].

وفى عهد أحمد خان وفدت على بخارى فئة من الأتراك شكلت كياناً اجتماعياً بارزاً فى تلك المنطقة، وهم من الأتراك الوثنيين يطلق عليهم "القراخطائيون"[٤٧]، ويلقب ملكهم باسم الكورخان، وقد استطاع هؤلاء الأتراك فرض التبعية على أملاك الخانيين فى بلاد ما وراء النهر عامة، لتمثل سيطرة هؤلاء الأتراك على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية بصورة واضحة، حيث فرضوا على أهالى بخارى دفع ضريبة مقدارها ديناراً واحداً على كل بيت، وهذا النظام مغاير للتقاليد الإسلامية[٤٨]. كما فرض الكورخان تعيين شحنة ونائب من قبله لإدارة شئون البلاد الداخلية، ولكن الشيء اللافت أنه سرعان ما عاد الكورخان إلى عاصمته ولم يقم فى بخارى، بل ترك للخانيين الحكم بمفردهم، وبذلك ساد مبدأ الحكم الذاتي، وكان ممثل الكورخان لا يذهب إلى مقر الخان ببخارى إلا لأخذ الضريبة المقررة، فإذا أخذها انصرف، وكان الخان فى بعض الأحيان يحظى بحق إحضار الجزية بنفسه إلى مقر الكورخان فى عاصمته[٤٩].

وعلى ذلك فإن هذا العنصر الجديد على إقليم بخارى لم يتدخل فى ممتلكات الأهالى، بل ترك لهم حرية تملك الأراضي، ولكنه فرض عليهم شد حزام به لوح من الفضة على أوساطهم علامة الطاعة والولاء[٥٠]، بالرغم من أن هؤلاء الخطائيين اتخذوا فى نهاية دولتهم بعض الوزراء المسلمين من أمثال محمود باي، الذى كان فى الغالب تاجراً مسلماً[٥١] تركيا، وهذا دلالة على أن ممثلى الحضارة الإسلامية كانوا يحتلون عند الكورخان منزلة عالية.

وقد سادت هذه الأوضاع المجتمع البخارى طوال فترة زمنية تقدر بتسع وثمانين عاماً، هى فترة حكم دولة الخطائيين على ما تحت أيدى الخانيين الترك من ممتلكات فى بلاد ما وراء النهر، تلك الفترة التى خضع فيها الخانيون للكورخان،

ولكنه منذ عام ٥٣٥هـ/ ١١٤١م، فى عهد محمود خان، فرض الكورخان على حكام الخانية تعيين حاكم من قبله على بخارى يسمى أتمتكين أو البتكين، وزاد فى الأمر بأن استعان بأحد أفراد أسرة آل برهان الترك فى الإشراف ومتابعة أتمتكين حتى لا يصدر أمراً إلا بعد مشورته، وهو تاج الإسلام أحمد بن عبد العزيز بن مازه[٥٢].

أما فى الفترة الأخيرة من حكم القراخطاى لبلاد ما وراء النهر- وهى الفترة التى بدأت بوادر الضعف والانحلال تدب فى دولتهم، والتى تعادل حكم عثمان خان من ملوك الخانية- فإن العناصر التركية من أهل بخارى قد ثارت على نفوذ أنصار الخطا، من آل برهان- الملقبين بالصدور- لذا أسرع الصدور للاستنجاد بالكورخان الذى لم يستطع إمدادهم بالمساعدات وإرسال النجدات اللازمة لصد ثورة الترك ببخارى، بل أصدر بعض الأوامر والفرمانات التى لم تأت بنتيجة تذكر نظراً لاضمحلال قوة القراخطائية فى تلك الآونة[٥٣].

ب- العنصر العربي:-

من عناصر السكان فى بخارى فى عهد الدولة الخانية، وهم بقايا من قدم مع الفتوحات الإسلامية على يد قتيبة بن مسلم الباهلى سنة ٨٦هـ حتى سنة ٩٦هـ[٥٤]، حيث استقرت عدة قبائل عربية مثل ربيعة ومضر والقبائل اليمنية فى بخارى فى عهد الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز[٥٥].

وقد نتج عن اختلاط العرب بأهالى البلاد امتزاج كبير فيما بينهم مما ترتب عليه دخول بعض البخاريين فى الدين الإسلامى، كما أدى تسامح العرب وأتباعهم سياسة التسامح والتآلف وحسن المعاملة إلى تحقيق حرية العبادة لمن بقوا على دينهم، وإقامة طقوسهم الدينية بحرية تامة[٥٦]، خاصة الطقوس الزرادشتية إلى جانب الشعائر المسيحية واليهودية، وقد ظهر الأثر الكبير فى خلق فرصة أمام البخاريين ليختلطوا بالعرب اختلاطاً مباشراً، فتعارف كل عنصر على ثقافة وتقاليد وعادات العنصر الآخر مما كان له أكبر الأثر فى ترحيبهم وولائهم للدين الجديد على الرغم مما يشير إليه بعض المستشرقين[٥٧] من أنه فى النصف الأول من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادى وجد ببخارى عدد غير قليل يتعاطف مع

الزرادشتية سراً.

وفى مقابل ذلك تعهد الأهالى بالاعتراف بسيطرة العرب ونفوذهم فى مقابل دفع الجزية وسائر الضرائب المفروضة على أهل الذمة، حيث فُرض عليهم مائتا ألف درهم تحمل لدار الخلافة، وعشرة آلاف درهم تحمل لأمير خراسان[٥٨].

ومن هنا بدأ الاستقرار الحقيقى للعرب فى بخارى والاندماج بينهم وبين الترك، وتأثرهم بالعادات والتقاليد الفارسية المنتشرة فى تلك المناطق، وبخاصة بعد منح قبيلتى مضر وربيعة المنطقة الممتدة من باب السوق إلى باب الحديد ببخارى، وتخصيص منطقة أخرى للقبائل اليمنية. وقد قام العرب بإنشاء عدة أبواب فى بخارى مثل باب بنى أسد، وباب بنى سعد، ومسجد جامع أطلق عليه اسم مسجد القرشين[٥٩].

ومع مرور الوقت امتزج العنصر العربى مع الأهالى، وقل عدده نتيجة لعدم وفود هجرات على تلك البلاد، مثلما شهدته بعض مدن العراق وغيرها من مدن العالم الإسلامى. أما العرب الفاتحون فقد امتد نسلهم حتى صار من أهل المدينة، وانصهر الجيلان الثانى والثالث مع أهالى البلاد الأصليين، واقتصرت صلتهم بجذورهم العربية الأولى على ذكر نسبهم الأول فقط، وهم الذين يرجع إليهم الفضل فى نشر الإسلام واللغة العربية بين الأهالى فى بخارى.

ج- العنصر الفارسي:-

أما العنصر الفارسى فهم سكان الأقاليم الشرقية، ومن أهم عناصر سكان بخارى، وهم حضارة قديمة استقت جذورها من الحضارة اليونانية القديمة، وللفرس مقدرة إدارية كبيرة ومهارة فى إدارة الشئون الاقتصادية وتنمية موارد الثروة.

وقد ظل الفرس محتفظين بجذورهم وأصولهم القديمة، فلم يختلطوا بالأجناس الأخرى، وتميزوا بالنجدة وحسن السياسة والمقدرة العسكرية والإدارية والمالية والإقبال على العلم[٦٠].

كذلك احتفظ أهل بخارى باللسان الفارسي، فظلت اللغة الفهلوية سمة مهمة تميزهم، وعرفت بخارى فى ذلك الوقت باسم "بخارى الشريفة التقية"، وساد النشاط العلمي، وبخاصة علوم الدين على يد العنصر الفارسي، ومن هؤلاء أبو حفص البخارى المتوفى ٢٢٧هـ/ ٨٤١م، وهو أستاذ البخارى[٦١].

وعلى الرغم من أن اللغة العربية ظلت لغة الأدب الوحيدة على مدى القرون الثلاثة الأولى للهجرة، إلا أنه منذ بداية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادى أصبحت اللغة الفارسية شيئاً فشيئاً لغة الأدب فى القسم الشرقى من العالم الإسلامى، وخاصة فى بخارى[٦٢].

وقد ارتفع شأن العنصر الفارسى فى بخارى فى العهد الساماني[٦٣] فى عهد إسماعيل بن أحمد بعد اتخاذه لها حاضرة لملكه، وبها تقبل من الخليفة المتعضد بالله البنود والرايات والخلع، ولقبه بلقب "حامى الملة والمدافع عن الخليفة من أعدائه"[٦٤]، وأطلق عليه من قبل بعض المؤرخين لقب قائد الغزاة[٦٥].

واهتم الأمير إسماعيل ببناء المدارس الجامعة ببخارى حتى زاد عددها على نظائرها فى مدن آسيا الوسطي، وظهر العديد من المؤلفات التاريخية والجغرافية التى ألفت للبلاط باللغة الفارسية من أمثال كتاب المسالك والممالك للوزير الجيهاني[٦٦]، وكتاب جمهرة أنساب الفرس[٦٧].

يظهر تأثير الفن السامانى فى العمارة الإسلامية فى بخارى، فالأبواب التى كسيت بالزخارف تمثل الأساليب الفارسية أصدق تمثيل، وقد تأثر العرب بهده الألوان الفنية وأتقنوها، ومما ساعد على ذلك أن معابد الأصنام فى بخارى كانت تشمل مظاهر معمارية تمثل ما تحتوى عليه المساجد من مظاهر كالصحن وبوائك الأعمدة، وكان من أثر ذلك أن ظهر- فى وقت لاحق- فن إسلامى خالص ينطوى على انفعال العرب بالمؤثرات الفارسية، ولعل مسجد بيكند فى بخارى يُعد أنموذجاً لهذه النماذج[٦٨].

واستمر العنصر الفارسى متبوئاً مكان الصدارة فى التكوين الاجتماعى ببخارى، ومتمثلاً فى النشاط الفكرى والثقافي، وإن بعد بعض الشيء عن الحكم والنفوذ فى عهد الدولة الخانية.

ثانياً: طبقات المجتمع فى عهد الخانيين:

انقسم المجتمع البخارى إلى عدة طبقات، أخذت كل طبقة من هذه الطبقات مكانتها وترتيبها فى الهيكل الاجتماعى للإقليم بقدر ما تتمتع به من سلطة ونفوذ وثروة مالية، لذا تفاوتت كل طبقة عن الأخرى من حيث الحجم، والمعيشة، حيث مارست كل طبقة حياتها الاجتماعية اليومية بمعزل عن الطبقات الأخرى، ومن هذه

الطبقات:-

أ- طبقة الخانات والأمراء:

تربع أفراد الطبقة الأولى من الحكام والأمراء على قمة التكوين الاجتماعى فى بخارى، وأغلبهم عناصر تركية؛ وذلك لميل الخانيين لبنى جنسهم وإيثارهم على غيرهم من طبقات المجتمع ، لذا مثلت هذه الطبقة الأرستقراطية السياسية فى الإقليم، وتمتعت بكافة المظاهر الحياتية ، واتسمت معيشة هذه الطبقة بالبذخ ، فسكنوا القصور والمنازل الفخمة ، وكانت لهم مجالس للطرب والغناء واللعب.

وقد مال الخانيون فى بخارى إلى البذخ والرفاهية ، فكانوا يخرجون فى مواكب عظيمة فى شوارع بخارى تحف بمواكبهم كثير من الأبهة والعظمة والعبيد والخدم، إذ كان يتقدم موكب "خضر خان بن إبراهيم "سبعمائة مجن من الذهب والفضة عدا الأسلحة الأخرى[٦٩] ، على الرغم من أن من أهم عاداتهم فى أثناء المعارك الحربية بينهم وبين أعدائهم ألا يتميز زيهم العسكرى كثيراً عن زى الجنود العاديين حرصاً منهم على ألا يقعوا أسرى فى أيدى أعدائهم [٧٠].

وقد جرت العادة عند الخانيين فى حالة مقتل أحد القواد فى ميدان القتال أن تخلد ذكراه ببناء ضريح يحمل اسمه، فعلى سبيل المثال عندما قتل "على أرسلان" ابن أخى الخان المسمى حسن بغراخان فى أثناء محاربة الأتراك الوثنيين أقيم لهذا الشهيد ضريحان؛ احدهما فى دولة "باق" بالقرب من كاشغر حيث دفن رأسه، والضريح الآخر فى بخارى[٧١].

كما اتسمت معيشة هذه الطبقة بالرفاهية، فلهم مجالس للطرب والغناء فى قصورهم، واهتموا ببناء العديد من المبانى وبخاصة فى بخارى، وعلى رأسهم "شمس ملك نصر"- أول الخانات الذين اتخذوا من بخارى حاضرة لملكهم- ومن أهم إنشاءاته العمرانية إقامة مدينة أطلق عليها اسم شمس آباد تخليداً لمؤسسها، حيث اشترى ضياعاً كثيرة بباب إبراهيم، وأقام حولها بساتين كثيرة وقصوًا وصفت بأنها غاية فى الجمال والروعة، وأنفق الأموال الطائلة فى إقامتها، كما شيد مرعى متصلا بها لدوابه الخاصة وأسماه "الغورق"، وجعل له أسواراً محكمة طولها ميل، وبنى بداخل الغورق قصراً وبرجاً للحمام، وكان يقتنى فى ذلك الغورق الحيوانات المتوحشة[٧٢].

ومن أهم الأدلة على ثراء وبذخ شمس الملك نصر ما قام به من بناء المسجد الجامع ببخارى، والأربطة أو ما عرف بمحاط الرحال؛ أحدها فى طريق بخارى سمرقند ويسمى رباط ملك، ونال شهرة خاصة(٧٣).

وعندما تولى أرسلان خان محمد بن سليمان الحكم فى بخارى سنة٤٩٥هـ/١١٠١م، أمر بإقامة عدة مبانٍ مهمة منها جسر عظيم على نهر سامجن بنى من الآجر، وشيد مسجداً جامعاً من ماله الخاص ورباطاً للغرباء بجانب قرية اسكجكت ببخارى(٧٤)، وقد أورد لنا الترشخي(٧٥) العديد من مبانيه الدالة على تمكن هذه الطبقة من الثراء والغني، وأنه تحت أيديهم مقدرات الأمور وتيسيرها.

وقد أمر أيضاً ببناء دار للملك بدلاً من الدار السابقة فى محلة "دروزه جه"- أى الباب الصغير فى حى بوليث- ولكى تصبح هذه الدار ذات مكانة مميزة كالتى كانت لشمس آباد أمر أرسلان خان ببناء حمام خاص بها وحمام آخر بباب السراي. وقد ظلت هذه السراى، دار الملك سنوات طوالاً، ثم حولت بعد ذلك إلى مدرسة للفقهاء، وأوقفوا الحمام الذى كان على باب السراى والغرف الأخرى عليها، وزيادة فى الفخفخة فقد أمر بإنشاء مصلى للعيد بالقرب من أبواب بخارى حتى لا يتكبد المصلون مشقة الانتقال خارجها.

ولم تتركز الثروة فى يد واحد فقط من الخانات، بل شملت معظمهم، والملاحظ أنهم مالوا جميعاً إلى إظهار البذخ والإسراف فى المباني، فنرى طمغاج خان إبراهيم يهتم ببناء قصر لإقامته فى داخل بخارى، إذ أقام قصراً نفيساً تخليداً لذكراه بين الناس(٧٦)، كذلك عمل أحمد خان- الذى قوبل عهده بالفتن والاضطرابات- على تشييد قصر جديد فى بخارى ظل مسكوناً من بعده ثلاثين عاماً(٧٨).

ومما لا شك فيه أن سعة ثراء الحكام الخانيين لم تقتصر على الخانات وحدهم، بل شاركهم الأمراء الأتراك فى ذلك، فقد قام الأمير عمر أرسلان محمد بن سليمان بتشييد عدة مبانٍ عظيمة فى بيكند(٧٧)، منها دار لنفسه بالغة التكاليف، حفر لها ترعة على حد بيكند، بحيث يصل ماؤها إلى المبانى المقامة، وزيادة فى إشعارنا بمدى الثراء والغنى فقد قيل إن هذه الترعة حفرت فى جبل لأنها تتكلف الجهد والبذل الكثير. وتأكيداً على مبدأ أن الخانيين كانوا حكاماً متمسكين بالدين الإسلامى فقد

أقيمت عدة مساجد جامعة فى بخارى وضواحيها، مثل مسجد ديكرون الصغير، والذى بنى خليطاً من البناء باللبن والآجر، وما يميزه أن قبته قطرها ٦,٥ متر تحملها أربعة أقبية مدببة، والملاحظ فى تخطيط هذا المسجد الميل إلى الصغر والتركيز، ومسجد طلختان بابا، الذى بنى كله بالآجر، وأن فيه الكثير مما يثير الدهشة من الناحية التخطيطية والمعمارية[٧٨].

كما شيد أحد أثرياء قرية اسكجكت ويسمى "خوان سالار" مسجداً من خالص ماله، وأنفق عليه أموالاً طائلة، واستمر هذا المسجد قائماً حتى تولى الحكم "قدر خان جبرائيل بن عمر بن طغرل خان الملقب بكولارتين"، فأمر بهدمه واشترى أخشابه من ورثة "خوان سالار"، وأقام به مدرسة بالقرب من سويقة التقاليد أطلق عليها اسم مدرسة كولارتكين[٧٩].

كذلك جرت عادة الخانات ورسمهم أن يضعوا التيجان المرصعة بالجواهر على رؤوسهم[٨٠]، وقد أسندوا أمر تدبير شئون القصور والإشراف عليها إلى وكيل خاص مهمته الإشراف العام على شئون الخاص والمطابخ والإسطبلات، وهذا الوكيل له مكانه مميزة فى إدارة شئون القصور الخانية، فهو صاحب رأى مسموع من كافة العاملين بالقصر، ومن رسوم القصر أيضاً وجود عدد كبير من العبيد والخدم، فقد حدد عدد الغلمان الذين يقومون بأمور اللباس والسقاية مراعاة لتنظيم أعمالهم وخدماتهم فى قصر كبار الأمراء[٨١].

ومن السمات الاجتماعية البارزة التى مال إليها حكام الخانية فى أثناء حكمهم لبخارى اتخاذهم الألقاب المتصلة بالإسلام والدين مما يدل على تمسكهم بالإسلام وإظهار علاقتهم القوية بالخلافة العباسية السنية فى بغداد، سواء كانت هذه الألقاب ألقابا فخرية أم مسكوكة على العملة، وأول من تلقب بلقب إسلامى بغراخان هارون بن بغراخان الذى لقب بشهاب الدولة[٨٢]، وقد اتخذ هارون بغراخان لنفسه لقب شهاب الدولة عند توليه عرش الخانية، ثم أضاف إلى نفسه لقبا آخر هو ظهير الدعوة[٨٣]. ومن هنا نرى ارتباط الخانية بالألقاب المرتبطة بالدولة وبالدعوة الإسلامية، وبالتالى ارتباطهم بالخلافة العباسية السنية، كذلك نلحظ أن للخليفة العباسى دوراً بارزاً فى اهتمام الخانيين باتخاذهم ألقاباً فخرية، فقد أطلق الخليفة المستظهر بالله على طمغاج خان لقب عماد الدولة، وعلى "أحمد بن أرسلان خان"

لقب نور الدولة، وذلك سنة ٤٩٦هـ/ ١١٠٢م[٨٤]، كما خلعت دار الخلافة على طمغاج خان عدة ألقاب تشريفية مثل عز الأمة، ومؤيد العدل. واتخذ "قلج طمغاج خان" عدة ألقاب براقة منها "سلطان أرض الشرق والغرب، وبرهان خليفة الله، وناصر أمير المؤمنين[٨٥]، وحمل "عثمان خان" آخر خاناتهم فى بلاد ما وراء النهر لقب سلطان السلاطين.

ومن الملاحظ ارتباط ألقاب الخانات بالخلافة العباسية ببغداد وتمسكهم بحملها، لذا كان يرسل مع ولاية العرش الرايات والمراسيم والبنود والألقاب. وفى بادئ الأمر كان السلطان محمود الغزنوى يحرص كل الحرص على ألا يتصل الخانيون بالخلافة إلا عن طريقه، لذلك غضب السلطان من الخليفة القادر بالله عندما رفض أن يزيد فى ألقابه، حيث منحه لقب يمين الدولة، على حين منح الخان ثلاثة ألقاب وهى ظهير الدولة ومعين خليفة الله وملك الشرق والصين[٨٦].

ومن هنا نلحظ محاولة الخانات تقليد أباطرة الصين فى ألقابهم فى محاولة منهم لاتخاذ ألقاب لا تدل بحال من الأحوال على مدى سلطانهم ونفوذهم على الأرض، فعلى سبيل المثال لقب ملك الشرق والصين، وسلطان أرض الشرق والغرب، ولقب سلطان السلاطين تدل على سعة نفوذهم وسيطرتهم على أماكن كثيرة من الأراضي[٨٧]، بينما نرى أن عثمان خان آخر حكامهم المتخذ للقب الأخير وهو سلطان السلاطين لا تتجاوز حدود حكمه عاصمته فقط التى وقعت فى يد علاء الدين محمد خوارزمشاه سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م[٨٨].

ومما لا شك فيه فإن اهتمام الخانيين بسك العملة التى تحمل أسماءهم إلى جانب اسم الخلفاء العباسيين من الأمور التى تدل على مدى ارتباطهم بالخلافة العباسية، فهناك عملة سكت باسم أحمد بن على أيلك خان ظهرت فى بلاد ما وراء النهر فى حدود سنة ٤٠٤هـ/ ١٠١٣م، وهناك عملة أخرى ظهرت باسم الخان السابق على أحد الوجوه وعلى الوجه الآخر اسم طغان خان "الخان الأكبر فى التركستان"[٨٩].

وعندما تولى أرسلان خان الحكم فى بلاد ما وراء النهر خلفاً لطغان خان[٩٠] لم يرد اسمه على أى عملة ظهرت فى ذلك الحين، واسمه التركى هو تكين، وهو الاسم الذى وجد على عملات متعلقة باسم أرسلان خان ضربت فى بخارى فى

أعوام ٤١٢هـ، ٤١٣هـ، ٤١٤هـ، ٤١٥[٩١].

ب- طبقة الدهاقين فى بخارى:-

من أهم الطبقات فى المجتمع البخارى فى عهد الخانيين طبقة الدهاقين، وهم طبقة أرستقراطية زراعية تعددت مكانة أصحابها، وانتشر سلطانهم حتى صارت أسماؤهم تقرن بأسماء الإمارات والمدن القادمين منها، مثل دهقان البوزخان[٩٢]، ودهقان الفارياب، ودهقان مرو الروز، ودهقان مرو الذى كان مطاعا من باقى دهاقين البلاد[٩٣].

اتخذت طبقة الدهاقين لنفسها سمات خاصة تميزها عن غيرها من طبقات المجتمع البخارى من ضمنها ما يخص الملبس، فقد تزى أصحابها فى الغالب بالأقبية والقلانس الفاخرة غالية الثمن[٩٤]، وأقام كبارهم فى القرى الحصينة والقصور الفخمة، منها قلعة أطلق عليها اسم قلعة "أرك" التى اعتبرت مقراً لقادتهم، فوجد بها السجن والدواوين وبيت الحريم والخزائن[٩٥].

وقد أشار الترشخي[٩٦] إلى عدم استجابة هذه الطبقة للدين الإسلامى منذ اللحظة الأولى للفتح الإسلامى، وأن معظمهما بقى على ديانته، وقد انتهجوا منهجاً جديداً هو الخروج بأعوانهم وأسرهم إلى خارج بخارى، لذا قاموا بتخطيط العديد من القصور خارج حدودها مستغلين فى ذلك ما تحت أيديهم من الأموال والثروات، فقد قيل أنهم بنوا سبعمائة قصر على وجه التقريب، إلى جانب بيوت أخرى لأتباعهم وخدمهم حتى يتسنى لهم ممارسة طقوسهم الدينية بحرية كاملة[٩٦].

ولابد أن نشير إلى أن أول من دخل الإسلام من الدهاقين هو الدهقان خينة الذى عبر عن إسلامه بطريقة عملية، فقد غير اسمه إلى اسم مسلم، فأطلق على نفسه اسم أحمد أحد أسماء الرسولﷺ ثم اتبع ذلك دخول طغشاه بن خاتون صاحب الحق فى حكم بخارى قبل فتحها، كذا فإن ردة الفعل لدى القائد قتيبة هى إبقاؤه على حكم بخارى، فاستمرت ما يقرب من اثنين وثلاثين عاماً فى ظل الحكم الإسلامى[٩٧]. ومع مرور الوقت بدأ الإسلام ينتشر فى أرجاء بخارى، حتى عهد الأمير إسماعيل[٩٨] السامانى، أى فى حدود القرون الثلاثة الأولى للهجرة.

لقد كان للدهاقين دور بارز فى تسيير شئون الحكم الإسلامى فى بخارى، فنرى أنهم فى العصر السامانى يقفون مع أمير دون الآخر، فقد استنجدوا بالأمير

نصر بن أحمد السامانى المعروف بالشهيد ضد مطامع القائد عمرو بن الليث الصفار فأيدوه حتى رفع إلى عرش بخارى بالرغم من صغر سنه الذى لم يتعدَّ الثامنة من العمر(٩٩).

كذلك يبرز دور الدهاقين فى إدخال العناصر التركية الخانية إلى حدود بلاد ما وراء النهر- سمرقند وبخارى وذلك فى سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م- فبمجرد أن بدأ الضعف يدب فى كيان الدولة السامانية، تطلع الدهاقين إلى القضاء عليهم، فبدأوا فى الاستنجاد بالعناصر التركية بالتركستان(١٠٠)، وأطمعوهم فى البلاد، وأطلعوهم على عوراتها، وبناء عليه تحرك الخانيون لغزو ممتلكات الدولة السامانية. ويدلل بارتولد(١٠١) على صحة هذه المعلومة بقوله: "إن بغراخان قدم إلى بخارى استجابة لدعوة الدهاقنة المحليين، وإن حقوقهم السياسية فى الحكم قد بعثت من جديد عقب حكم الترك الخانيين". ونضيف إلى ذلك أن المسكوكات التى أصدرت باسم دهقان ايلاق تدل دلالة واضحة على أن الحقوق السياسية للدهاقين قد بعثت من جديد تحت حكم الخانيين مما يوضح أن مكانتهم الاقتصادية والاجتماعية ما زالت مرتفعة فى بخارى فى ذلك العهد.

وإذا حاولنا أن نفسر الأساليب التى دعت الدهاقين للاستنجاد بعناصر خارجية تركية للقدوم لبخارى للتخلص من السامانيين، فإننا نجد إلى جانب ضعف الأمراء فى نهاية عهد دولتهم، أن الدهاقنة كطبقة أرستقراطية حاكمة بعدوا كل البعد ونفروا من اتجاه آل سامان إلى الطبقة الشعبية، وبخاصة الصناع فى بخارى، بالإضافة إلى أن نزعة الاستبداد عند السامانيين أيقظت فكرة التمرد عند الدهاقنة، فأطلعوا خانات الترك على عورات بلادهم ومكنوهم منها(١٠٢).

وبناء على ذلك فقد جنت طبقة الدهاقين فى بخارى تحت حكم خانات الترك الفائدة مضاعفة؛ أولاً: فقد أقام الخانات فى الفترة الأولى لحكمهم لبخارى بعيداً عنها، فهم لم يتخذوا من بخارى عاصمة لدولتهم، بل عادوا إلى عاصمتهم القديمة، كاشغر، ثم انتقلوا إلى أوزكند على حدود ما وراء النهر، ومن ثم أطلقوا أيدى الدهاقنة فى بخارى، ومنحوهم عدة ألقاب تركية(١٠٣).

واستمرت مكانة الدهاقنة كطبقة مميزة أرستقراطية فى بخارى تتمتع بالنفوذ والقوة حتى قيام ثورة شعبية قادها رئيس طائفة الصناع فى المنطقة ضد سيطرتهم،

ومن ثم أسرع رجال الدين إلى الاستنجاد بعناصر تركية وثنية أخرى هم القراخطاي(١٠٤)، ويحدد بارتولد(١٠٥) "التطور الذى طرأ على المجتمع فى بلاد ما وراء النهر، وأن نظام الإقطاع أصاب طبقة الدهاقين بالضعف والتدهور، ومن ثم بدأت طبقتهم فى الاختفاء فى أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادى عشر الميلادي".

وبذلك قل نفوذ الدهاقين فى بخارى، وارتفعت مكانة العناصر الشعبية من الصناع والحرفيين، الأمر الذى أدى إلى تقهقر السلطة السياسية والاقتصادية لهذه الطبقة. وفى حقيقة الأمر فإن اضمحلال سلطة الدهاقنة لم يكن قاصراً على بخارى وحدها، بل إن معظم الدهاقين فى الشرق قد قل نفوذهم وسلطانهم، فبعد أن كان الأمراء يرغبون فى التقرب منهم واتخاذ ألقابهم، تعرض دهاقين غزنة للاضطهاد على يد السلطان مسعود بن محمود الغزنوى، الذى أمر بالقبض على كافة الدهاقين ووكلائهم من المزارعين الأثرياء، ممن ذكرت أسماؤهم فى ديوان الإنشاء، واستولى منهم على أموال كثيرة، وبذلك أذلهم بعد طول عزة(١٠٦). وربما يرجع تدهور هذه الطبقة اجتماعياً واقتصادياً إلى تدهور قيمة الأراضى الزراعية نفسها، ففى هذه الفترة لم يكن أحد يتقبل أراضى ولو على سبيل الهدية(١٠٧).

إن الظروف الاجتماعية التى عاشها الدهاقنة فى بخارى، كطبقة من طبقات المجتمع، جعلت منهم طبقة مسيطرة- فى بادئ الأمر- على مقدرات الحياة الاقتصادية، وأفرز ذلك ظاهرة اجتماعية تنطوى على فجوة عميقة بينهم وبين باقى طبقات المجتمع، فظهروا كطبقة ذات عادات وتقاليد خاصة بهم دون غيرهم، ولهم نظرة تختلف عن باقى الطبقات، فنظروا إلى طبقة الصناع نظرة احتقار باعتبارهم طبقة شعبية فى البلاد(١٠٨)، كما كانت لهم رسوم وتقاليد معينة فى الاحتفال بعيدى النيروز والمهرجان، منها تقديم الحلوى المحشوة المصنوعة من الدوشاب والقنطارى والسمك المملح والطازج(١٠٩).

وكانوا يتهادون فى عيد المهرجان بقدر منزلتهم ومكانتهم، وطريقة التهادى تضم طرائف وعجائب غريبة، مثل دمية على هيئة قصر من فضة أو ذهب، وأباريق وصحاف من ذهب وفضة(١١٠).

أما بالنسبة لفئة المزارعين والفلاحين العاملين فى مزارع الدهاقين، فقد جرت

العادة لديهم فى الاحتفال بعيد النيروز أنهم يتوجهون إلى سوق مدينة ورخشة كل عام لمدة خمسة عشر يوماً، وإذا كان السوق آخر العام يجعلونه عشرين يوماً، وفى اليوم الحادى والعشرين يحتفلون بالعيد، ويسمونه نوروز الفلاحين، لذلك يحافظ فلاحو بخارى على حسابه سنويا(١١١). ويشير بارتولد(١١٢) إلى عيد آخر للمزارعين يقام فى قرية ورخشى ببخارى يطلق عليه عيد المزارعين (نوروز كشاورزان) وذلك قبل خمسة أيام من عيد العام الجديد (النوروز) بالنسبة للمجوس.

ج- طبقة العلماء والتجار والعامة:-

تمتع علماء بخارى على طول تاريخها الإسلامى بالمنزلة الكبيرة والدرجة الرفيعة والحظوة، والشهرة الواسعة، ونالوا تقديراً واحتراماً من جانب الحكومات الإسلامية المتعاقبة على بلادهم، ومن جانب رجال التعليم والدين فى البلدان الإسلامية الأخرى. وكان علماء بخارى لا يكلفون بتقبيل الأرض بين يدى الأمير الساماني، ويختار من بين الفقهاء أكثرهم علماً وأرفعهم مكانة، لتصدر الأمور عن رأيه، وتقضى حوائجه، ويعين العمال وفقاً لمشورته. ويعادل الشيخ المفتى أو شيخ الإسلام والذى حمل فى الفترات اللاحقة اللقب الفارسى أستاذ.

وفى عهد الدولة الخانية اهتم حكامهم بالتقرب من العلماء والشعراء، وأولوا عنايتهم بعقد المجالس العلمية فى قصورهم، كما أغدقوا الأموال والعطايا عليهم تشجيعاً للعلم وأهله، فاشتهر بغراخان بحبه الشديد للعلم، وألف له كتاب باللغة التركية يسمى "قوتا دغوبيليك" بمعنى العلم السعيد، ألفه حاجب بلاطه المسمى يوسف فى حدود سنة ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩-١٠٧٠م(١١٣)، وهو قصيدة تعليمية تقع فى ٦٦٤٥ بيتاً من الشعر، والقسم الأكبر منها قصيدة تمثيلية، حيث يقدم فيها عالم فاضل دروساً وعظات للحاكم وصديقه فى كيفية إقامة العدل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجتناب الخمر ولعب القمار. ويشكل قوتا دغوبيليك تراثا مهما فى الأدب الإسلامى- لأنه يتحدث عن تشكيلات الدولة الخانية- ويوضح مستواها الاجتماعى والثقافي، وتظهر فيه المؤثرات الإسلامية بشكل واضح، فقد ورد فيه على سبيل المثال: من لا خير للناس فيه غير جدير بالحياة، وفضائل الإنسان لا تظهر إلا بين الناس(١١٤).

كما اهتم طمغاج خان بالعلم، فألف له كتاب باللغة الفارسية يسمى سندباد

نامه[١١٥]، حيث قام رئيس ديوان الرسائل فى عهده المسمى بهاء الدين محمد بـــن على بن محمد الحسن الظهيرى الكاتب بتهذيب هذا الكتاب وإهدائه للخان[١١٦]. كما ألف فى نفس العهد كتاب فى التاريخ يسمى تاريخ ملوك تركستان أعده مجد الـــدين محمد بن[١١٦] عدنان.

ويظهر بوضوح اهتمام الخانيين بالعلم، وأن بعضهم كان من زمرة العلمـــاء، حيث نرى شمس الملك نصر خان يدرس الحديث ويكتب بخطه المصاحف، ويعتبر خطيباً مفوهاً على المنابر، يهتم بأفاضل العلماء والفقهاء فى بخـــارى[١١٧]؛ حيـــث أغدق على بعض الفقهاء ضياعاً قريبة من قرية كارك علويان ببخارى تيسر لهـــم سبل العيش الشريف[١١٨].

كذلك شجع خضر خان إبراهيم الشعراء، وأغدق عليهم الهبات والعطايا مـــن أمثال الشاعر عمق الملقب بأمير الشعراء، والشاعر عبد الله الرشيدى وغيرهم[١١٩].

لقد حظى العلماء والفقهاء بالمكانة الرفيعة فى الدولة الخانية ببخارى، فأنشئت لهم المدارس لتدريس العلوم الدينية والدنيوية على حد سواء، كالمدرسة التى شيدها "أرسلان خان" وأوقف عليها ضياع القرى المجاورة، وحمامـــاً كـــان علـــى بـــاب السراى[١٢٠].

كما شيدت المدرسة الخانية ببخارى بأمر "قدر خان جبرئيل بن طغرل خان"، وأنفق عليها من ماله الخاص[١٢١].

وتعد طبقة العلماء من الطبقات العليا لقربها من الحكام وكبار الأمراء، حيث دارت فى فلكهم، وارتبطت بهم ارتباطاً شديداً من حيث التكوين الاجتماعى والمكانة الرفيعة.

أما عن طبقة الأعيان من كبار التجار فى بخارى فهم مـــن ســـكان الـــبلاد الأصليين الذين كانوا يعتبرون من الطبقة الشعبية فى بداية الفتح الإسلامى، وفـــى عصر السامانيين استعان بهم الأمراء ورفعوا من قدرهم فى البلاد، لذا بدأت ترتفع مكانتهم، وصاروا من الأثرياء[١٢٢].

وقد اختصت عدة عائلات بعينها بالاشتغال بالتجارة، سواء أكانـــت تجـــارة داخلية أم خارجية، مثل أسرة آل كثكثة المشهورين بالثراء الفاحش، ومعظمهم مـــن قرية بيكند، فقد جنوا أموالاً طائلة من وراء اتجارهم مع أهالى الصين[١٢٣] ، وفـــى

عهد الدولة الخانية قام آل كشكثة بدور مهم ومؤثر فى الحياة الاقتصادية لتمكنهم من الأموال، لذا أصبحت لهم كلمة مسموعة ورأى يعمل به فى كافة الأوساط الاجتماعية فى بخارى.

أما عن طبقة العامة فى بخارى، فإنها تمثل القاعدة العريضة فى تكوين المجتمع، وتضم خليطاً كبيراً من سكان البلاد مع اختلاف دياناتهم وعناصرهم، وهى تمثل الطبقة البسيطة فى المجتمع، والتى تعيش حياة تكاد تصل إلى حد الحرمان من متطلبات الحياة اليومية من الطعام والملبس والمسكن وغيرها، ويعد العيارون فئة من فئات الطبقة العامة فى بخارى، حيث زاد نشاطهم مستغلين حالة عدم الاستقرار السياسى والفوضى فى أواخر حكم الخانيين، فتوسعوا فى سرقة الأغنياء ونهب السلع، وهددوا التجار فى الأسواق(١٢٤). ولطائفة العيارين رئيس يتزعمهم وهو دائماً أكبرهم سناً، وهو الذى يحبك ويخطط لهم المؤامرات، وهم يأتمرون بأمره فى كل صغيرة وكبيرة من التعليمات(١٢٥).

أما عن أزياء طبقة العامة من الرجال فكانت عبارة عن القمصان والدراعات والسراويل البيضاء المذيلة، والعمائم من فوط ملونة، ويلبسون النعال فى أرجلهم. أما بالنسبة للنساء فكن يرتدين المطرف؛ وهو رداء طويل له طرف، والقمصان، أما النقاب فترتديه المسلمات فى بخارى، كما لبسن الزوابيل وهو نوع من الخفاف(١٢٦). أما عن مساكنهم فكانت ضيقة ومتلاصقة بجوار بعضها البعض، بسيطة الأثاث، مبنية من الحجر، ولا تتعدى الطابق الواحد(١٢٧).

د- طبقة الجوارى والعبيد:-

احتفظت العلية من الحكام والأمراء والدهاقنة فى قصورهم بكثير من الجوارى والرقيق والغلمان للخدمة(١٢٨)، والقيام بالأعمال المنزلية، وغيرها من المهام التى تستوجب وجود هذه الفئة فى القصور، واستخدمت نساء الأغنياء الجوارى لمساعدتهن فى شئون الزينة وإدارة القصور. ولقد كان الرقيق يجلبون إلى بخارى من بلدان الترك المحيطة بها، وتعتبر سمرقند أكبر سوق للرقيق فى بلاد ما وراء النهر، فهى مشهورة بأن رقيقها من خير الرقيق(١٢٩) من حيث جمال المظهر ولين الجانب، وما يتميزون به من صفات خلقية وجسدية، وبذلك أصبح من السهل اقتناؤهم.

وتشير المصادر التى بين أيدينا إلى أن "أحمد خان" كان يمتلك ما يقرب من اثنى عشر ألف غلام فى قصره(١٣٠)، وإن كان هذا العدد فيه كثير من المبالغة فإن ما يدل عليه هو كثرة جلب الرقيق والغلمان إلى الدولة الخانية ببخارى، حيث وفدت أعداد كبيرة من بلاد التركستان فى عهدهم، وإن كان لشراء العبيد شروط كثيرة ومواصفات معينة(١٣١).

ولم يقتصر دور الجوارى والعبيد والغلمان فى بخارى على كونهم خدماً فى قصور السادة، بل بعضهم تحول- فى بعض الأحيان- من هذه الطبقة المتواضعة إلى الطبقة الأعلى نتيجة لاتجاههم إلى العلم والتطلع إلى رفع مستواهم المعيشي، أو عن طريق زواج بعض المحظيات من علية القوم وأغنيائهم.

ثالثاً: الطوائف الدينية فى بخارى فى عهد الدولة الخانية:-

حفلت مدينة بخارى بعدة طوائف دينية خلال عهد الخانيين كالمسلمين من أهل السنة والشيعة والمتصوفة، بالإضافة إلى أهل الذمة من اليهود والنصارى، فضلاً عن بقايا المجوس من زرداشتية وبوذية. والملفت للنظر أن لكل طائفة من هذه الطوائف الدينية عاداتها ونظمها المختلفة، حيث عاشت كل طائفة على حدة فى عزلة اجتماعية عن غيرها.

أولاً: المسلمون:-

أ-طائفة الحنفية:

وهى طائفة من طوائف المسلمين السنة فى بخارى، ويمثلها بصورة واضحة أسرة آل مازة، وهى من الأسر الدينية البارزة، التى تبوأت مكانة عالية فى السلطة والنفوذ أواخر حكم الخانيين لبخارى، إذ ظهرت فى القرن السادس حوالى ٥٣٥هـ/ ١١٤١م كوعاظ ورجال دين على منابر بخارى، وعرفت باسم آل برهان الدين، واشتهرت بالبذل والجود والكرم والرياسة والمجد والعظمة، وكانت فيها رياسة جماعة الحنفية ووعاظها، الذى هو مذهب أهالى بلاد ما وراء النهر عامة وبخارى خاصة(١٣٢)، وينتهى نسبها إلى عمر بن عبد العزيز بن مروان، وقد توارثت تربية العلماء كابراً عن كابر، ويربو عدد فقهائها على أربعة آلاف فقيه(١٣٣).

أما نسبتها إلى آل برهان فترجع إلى أول فرد اشتهر منها وهو الإمام برهان

الدين عبد العزيز بن مازة البخارى الحنفي[١٣٤]. والمعروف أن هذه الأسرة توارثت لقب "صدر جهان"، وذلك لسيادتها الطبقات الشعبية فى بخارى فى فترة سيطرة القراخطاى على بلاد ما وراء النهر، وتسير شئون بخارى لزعامتها للمذهب الحنفى؛ فقد سيطر الكورخان الخطائى على بخارى عن طريق نائب له يسمى أتمتكين، مع الاستعانة بأفراد أسرة آل برهان فى الإشراف ومتابعة هذا النائب وذلك منذ عهد أحمد خان الملقب بنور الإسلام[١٣٥]، وعلى ذلك أصبح تاج الإسلام أحمد بن عبد العزيز بن مازة أول من تولى منصب الرئاسة فى هذه الأسرة تابعاً للقراخطائيين، واستمر هذا اللقب "صدر جهان" يحمله أفراد الأسرة حتى نهايتها سنة٦١٣هـ/١٢١٦م[١٣٦].

وقد عاش أفراد هذه الأسرة عيشة رغدة، وامتلكوا الأموال والأراضى الزراعية، وكانت لهم مصادر دخل واسعة، فقد قيل عن برهان الدين محمد بن أحمد مازة أنه عندما أدى فريضة الحج خرج إلى مكة المكرمة بكثير من مظاهر الأبهة محمولاً على محفة، ومتاعه محمول على أكثر من مائة بعير، وفى معيته عدد كبير من رجال العلم، وبذلك كانت ثروته تضارع الأمراء الحاكمين، فكان ينفق على ستة آلاف من الفقهاء[١٣٧].

وجاءت نهاية هذه الأسرة على يد السلطان علاء الدين خوارزمشاه عندما اتحد مع عثمان خان- آخر حكام الدولة الخانية فى بخارى- لمحاربة القراخطاى فى سنة ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م، وبذلك دارت الدائرة على الخطا، وقُتل منهم عدد كبير، وأسر ملكهم المسمى طاينكو[١٣٨] ، وحمل إلى خوارزم، حيث كان موضع عناية الخوارزميين وتكريمهم. وقد ارتبط عثمان خان برباط المصاهرة مع الخوارزمية بزواجه من إحدى بنات السلطان علاء الدين المسماة "سلطان خان"، ولكن لسوء الحظ حدث خلاف بينهما أدى إلى خلع عثمان خان طاعة الخوارزمية وثار على السلطان، وشرع فى قتل زوجته، إلا أنه عدل عن ذلك فى اللحظات الأخيرة[١٣٩]، وإمعاناً فى إذلالها تزوج عليها من ابنة الكورخان الخطائي، وأجبرها على أن تخدم فى حفل زواجه الجديد[١٤٠].

وعلى ذلك أعلن السلطان الخوارزمى الجهاد ضد "عثمان خان"، وزحف إلى بخارى سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م، وقبض على عثمان خان وأمر بقتله، وبذلك انتهت

الدولة الخانية في بلاد ما وراء النهر كلها[١٤١]، كما قبض على بقايا أسرة برهان الدين وأمر بنقلهم معه إلى خوارزم خشية إثارة الفتنة فى البلاد. وحين قصد السلطان العراق لقتال الخليفة الناصر لدين الله رأى أن من الحزم أن يضعهم في سجون خوارزم، فظلوا بها حتى عزمت السيدة تركان خاتون أم السلطان علاء الدين الخوارزمى على الفرار خوفا من جيش المغول، فأمرت بقتل جميع من كانوا فى خوارزم من آل برهان[١٤٢].

ب-الشيعة:

أما الطائفة الدينية الثانية من المسلمين في بخارى على عهد الخانية فكانت طائفة الشيعة، والمعلوم أن الدعوة الشيعية لم تنقطع أبداً في خراسان وبلاد ما وراء النهر، حيث كانت أكبر مشاهد الشيعة، وتمتعت سلالة على بن أبى طالب هناك بنفوذ كبير بين الأهالي؛ ففي ولاية عبد الله بن طاهر كانت الخطبة بنيسابور تقرأ باسم أحد العلويين، وهو أبو الحسين محمد بن أحمد، ومع مرور الوقت نشطت الدعوة الشيعية نتيجة لقيام الدولة الفاطمية في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادى في المغرب ومصر، وتوجيه الدعاة إلى المناطق الشرقية من الخلافة الإسلامية. وقد استطاع هؤلاء الدعاة أن يجذبوا إلى صفوفهم الشيخ الحسين بن على المروزي، ومن بعده الشيخ محمد بن أحمد النسفي، الذى نقل نشاطه إلى بلاد ما وراء النهر تنفيذاً لوصية أستاذه، وبذلك تمكن النسفى من ضم بعض الأعيان إلى مذهب الشيعة وعلى رأسهم رئيس بلدية بخارى وصاحب خراجها، وحاكم منطقة أيلاق المسمى "حسين ملك" من طبقة الدهاقين[١٤٣]، وهذا مما ساعد على انتشار المذهب الشيعي فى بخارى بصورة واضحة، وضم إليه العديد من الأهالي. وعلى ذلك ارتفعت مكانة الشيعيين فى المجتمع البخاري، ومثلت طائفتهم الدين فى التكوين الاجتماعى للبلاد.

وقد لعب الشيعيون فى عهد الدولة الخانية دوراً بارزاً في إثارة الفتن والثورات ضد حكامهم، ويظهر ذلك بوضوح فى سنة ٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م فى عهد بغراخان هارون، حيث اندلعت حركة شيعية فى بخارى، استطاع دعاتها أن يغروا الأهالى بمبايعة الخليفة المستنصر بالله الفاطمي، وقد تأثر الخان من جراء تلك الحركة، ولكى يتمكن من القضاء عليها تظاهر بقبول تعاليمهم حتى يطمئنوا إليه،

وبذلك أصبح على علم برؤساء الفتنة فأمر بذبحهم فى بخارى، وأرسل أوامر مماثلة لباقى المدن لفعل ذلك[١٤٤]، وهذا يدل على مدى الارتباط الروحى بين الخانات فى بخارى والخلافة العباسية فى بغداد.

وتجددت ثورات الشيعة فى بخارى مرة أخرى فى عهد "محمد أرسلان خان" حيث ثار شيخ العلويين المسمى الأشرف محمد بن أبى شجاع ورئيس البلدة ضد نائب الخان الأكبر على بخارى المسمى "نصر خان"، وتمكنوا من قتله، مما ألجأ الخان محمد أرسلان إلى طلب المساعدة من السلطان سنجر السلجوقي خوفاً من استفحال أمرهم، والقضاء على هيبة الحكم فى البلاد[١٤٥]. ومن الملاحظ أنه سرعان ما ندم الخان على استدعاء السلطان السلجوقي، وبادر بإرسال رسول يسأله العودة إلى خراسان مما ترتب عليه تفجير الموقف بينهما، وانتهى الأمر بمحاصرة السلطان لبخارى والقبض على الخان وأسره، وتعيين أحد أبناء الأسرة الخانية على العرش وهو حسن تكين[١٤٦]، وبذلك تسببت ثورة العلويين فى بخارى فى تدخل السلاجقة فى الشئون الداخلية للخانيين وعزل وتعيين حاكم جديد منهم.

أما إذا نظرنا إلى طائفة الشيعة ككيان اجتماعى فى بخارى فإننا نجد أنهم تمتعوا بمميزات كبيرة كطائفة دينية من الأشراف يرجع نسبهم للإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه، ونالوا حظوة وتقدير واحترام، وتمجيد الأهالى لأئمتهم تمجيداً كبيراً، وعملوا على حمايتهم ضد طغيان الخلافة العباسية[١٤٧]؛ فقد كان لطائفة الشيعة نقيب يتولى أمرهم ويدبر شئونهم، ويناط إليه الفصل فى كافة المنازعات التى تقع فيما بين تلك الطائفة وغيرها من طوائف المجتمع فى المدينة، وكان يتم اختيار هذا النقيب وفقاً لمعايير واعتبارات معينة، وقد تمتع بالمنزلة الكبيرة وأقام فى دار خاصة به تعرف بدار النقابة[١٤٨].

ج- المتصوفة:-

من ضمن الطوائف الدينية فى بخارى طائفة المتصوفين. وقد ظهر التصوف الإسلامى بادئ الأمر فى بلدان الخلافة الشرقية، وهو بمعنى السير فى طريق الزهد[١٤٩]، وهناك رأى آخر يرى أصحابه أن الصوفية، نظراً لزهدهم فى الحياة الدنيا، ولأنهم لبسوا لباس الأنبياء وهو الصوف مخالفين فى ذلك لباس الحرير الذى تزين به الخلفاء العباسيون، ومن ثم قيل للرجل صوفى وللجماعة صوفية[١٥٠]، كما

أطلق على المتصوفين اسم الفقراء؛ لأن الفقر شعار الصالحين، وسموا بأطباء النفوس ومرشدى الأخلاق.

وقد نشط التصوف والمتصوفة فى بخارى، وتمتعوا بالنفوذ الكبير بين الطوائف الدينية المختلفة، ومازالوا يحظون بالمكانة العالية وبالأعداد الكبيرة من الأتباع فى تلك المناطق حتى عصرنا الحالي. أما عن علاقة رجال التصوف بخانات الترك فى بخارى؛ فإننا نرى ارتباطاً كبيراً بين أرسلان خان والشيخ الزاهد الحسن بن يوسف البخارى الذى حمل لقب "نمد برش" (أى صاحب الصوف)، وهو الشيخ الصوفى الزاهد الذى عاش ثلاثين عاماً فى زوايته ببخارى يقتات على النباتات المزروعة، وكان الخان يدعو هذا الشيخ بـ "أباه"، وقد توفى هذا الصوفى فى سنة ٥٠٩هـ/ ١١١٢م(١٥١). كذلك برز فى أطراف بخارى أحد المتصوفة ويسمى غربال، اجتمع حوله بعض العامة، فاشتدت شوكتهم به، وكاد الأمر ينتهى بفتنة فى المجتمع، إلا أن تدخل بعض العلماء أنهى الأمر سلماً(١٥٢).

ثانياً: طائفة أهل الذمة والمجوس:-

من الطوائف الدينية فى بخارى فى عهد الدولة الخانية أهل الذمة، الذين تمتعوا يهوداً ونصارى بالتسامح الديني، وأقاموا شعائرهم فى حرية تامة، وكان لهم ما للمسلمين من حقوق وواجبات، فلم تتعرض أى طائفة من تلك الطوائف إلى أى قيود أو ضغوط من قبل السلطات الحاكمة(١٥٣).

وقد ضمت بخارى أعداداً كبيرة من اليهود أكثر بكثير من عدد النصارى بها، وكان لليهود رئيس خاص يطلق عليه ملك، يدفع له أهل ملته الجزية المقررة عليهم. وقد تمتع اليهود بالحرية الدينية والتسامح الديني، والدليل على ذلك إعجاب بنيامين التطيلي(١٥٤) بصورة خاصة بما شاهده فى البلاد الإسلامية من جماعات يهودية كانت يومئذ تنعم بالطمأنينة والرفاهية فى ظل الخلافة الإسلامية، وفى عصر لم يكن يهود أوروبا يعرفون سوى ضروب الإرهاق والاضطهاد الدينى والاقتصادي، فراح لسانه يلهج بمدح خليفة المسلمين وهو يومئذ المستنجد بالله العباسي، فقد كانت لهم حرية تعيين رؤسائهم وهم ما يطلق عليهم الربيون والحزانون (١٥٥) كما ارتبط اليهود فى بخارى بالجالوت(١٥٦) فى بغداد، وهو الذى يمتد نفوذه على جميع طوائف اليهود المنتشرين فى العالم الإسلامى، ويأتمر

الربيون والحزانون بأوامره. وقد مارس الخلفاء العباسيون بعض السلطات على رؤساء اليهود، فقد كانوا يصدرون مراسيم يقرون فيها انتخاب رئيس اليهود، دون التدخل فى شئونهم الداخلية، أو التدخل فى قضاياهم فيما بين رعاياهم، كذلك يظهر دور الخلفاء مرة أخرى وذلك عند تعيين رئيس اليهود حيث يمنحه الخليفة ختم الرئاسة على أبناء ملته، وينصب فى احتفال كبير مشهور، وبالتالى وجب على الخليفة تكريمه بطريقة عملية وهى إرسال إحدى ركائبه السلطانية لنقله إلى قصر الخلافة مع السماح للأمراء والأعيان بالمسير فى الموكب، وكان يأتى للقصر محملاً بالهدايا والتحف النفيسة(١٥٧).

وكان هناك قطاع فى بغداد يسمى خطط اليهود يشمل موقعاً يضم عدة أحياء يهودية، وهو يسمى ألفيا دار اليهود، وقد ذكر بنيامين التطيلى أعداداً مبالغا فيها للتواجد اليهودى فى بغداد، فذكر أن بها أربعين ألف يهودي(١٥٨)، إلا أن المصادر التى بين أيدينا لم تذكر عدد اليهود فى مدينة بخارى. وفى حقيقة الأمر فإن اليهود فى بخارى كما كان دأبهم فى جميع بلدان الخلافة الإسلامية اهتموا بشئون الصرافة والمعاملات المالية، وتركز نشاطهم الاقتصادى فى التجارة الداخلية والخارجية، لذا نؤكد ارتباط اليهود بالأموال فى البلاد الإسلامية، لدرجة أن الجزم بالقول بأنها تكون تحت إشرافهم، وفى متناول أيديهم(١٥٩).

أما عن النصارى فكانوا من الطوائف الدينية فى بخارى على المذهب النسطوري، حيث دخلت النصرانية إلى هناك عن طريق المبشرين، وفضل هؤلاء النصارى العرب على المجوس عباد النار(١٦٠)، وقد تمركز النصارى فى بخارى فى بيعة يطلق عليها اسم كوى زاندان بالشهرستان خلف درب الفساق، ومع دخول الإسلام تحولت هذه البيعة إلى مسجد بنى حنظلة(١٦١).

كما تولى شخص يسمى المطران رئاسة طائفة النصارى فى بخارى، حيث يدير أمورهم، وينظم العلاقات الاجتماعية فيما بينهم، مثل أمور الزواج والميراث والنظر فى المنازعات، ويجمع الجزية المقررة عليهم ليدفعها إلى السلطة الحاكمة فى البلاد(١٦٢).

وبالتالى فقد تركز اهتمام النصارى على العمل بالحرف والصناعات وبخاصة صناعة الخزف وصقله، لما تميزوا به فى هذه الحرفة من مهارة وحذق، وقد أدرت

عليهم أرباحاً لا بأس بها. وقد حرص النصارى على رسم الكثير من الصور المستوحاة من كتابهم المقدس مثل صورة السيد العذراء والسيد المسيح على خزفهم مما يدل على مدى ممارستهم الحرية الدينية، ويؤكد مدى التسامح الديني الذى عاشوا فيه.

كذلك تمتع المجوس بالحرية الدينية فى بخارى حيث كانوا أكثر الطوائف الدينية حرية فى ممارسة طقوسهم، وزاد عددهم خاصة بعد الاعتراف بهم فى القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادى على أنهم أهل ذمة كاليهود والنصارى[١٦٣].

وقد تعددت الديانات المجوسية وعبادة النار قبل الإسلام، فكان هناك البوذيون والزرادشة والمانوية، وعاشوا بأعداد كبيرة فى بخارى وقراها؛ لأن بها ملوكهم وأديانهم وكتبهم، ولم تكن هناك أى قرية خالية من معابدهم، وبخاصة الزرادشتية على طول بلاد ما وراء النهر[١٦٤].

كذلك مارس المجوس شعائرهم الدينية فى عهد الدولة الخانية فى بخارى بحرية واسعة، فعلى الرغم من تحول الكثير من معابدهم إلى مساجد- بعد الفتح الإسلامى للإقليم- إلا أن ما بقى منها كان كافياً للتدليل على بلوغ المجوس درجة كبيرة من الأهمية والحرية الدينية.

ولقد كان للمجوس رئيس يتولى تدبير شئونهم، وينظر فى أمورهم الخاصة، ويتم انتخابه من بينهم ممن لهم الشرف والرياسة، وهو يمثلهم لدى السلطة الحاكمة بالدولة، ويؤدون الجزية المقررة عليهم سنوياً عن طريقه، كذلك عمل المجوس بكافة الأعمال الزراعية والحرف والصناعات، وبلغ بعضهم شأناً عظيماً فى أعماله، وتبوأ درجة عالية بفضل نبوغهم ومهارتهم[١٦٥]. كما كان لهم شارع خاص بهم فى بخارى يطلق عليه شارع المجوس.

واللافت للنظر أن أهل الذمة جميعاً كانوا منفصلين عن بعضهم البعض، فلم تكن ثمة علاقات اجتماعية مشتركة من زواج ونسب ...وغيرها، فلم يتزوج مسيحى من يهودية أو من مجوسية والعكس، واحتفظت كل طائفة بدينها، فلم يكن مسموحاً أن يتحول اليهودى إلى المسيحية أو المجوسية والعكس، وكان التغيير المسموح به والمعترف به رسمياً فى البلاد هو تحول أصحاب هذه الديانات إلى الإسلام ، كما حرم على صاحب أى ديانة أن يرث شخصاً آخر على غير ملته

وطائفته[١٦٦].

وصفوة القول أن تكوين المجتمع البخارى فى فترة حكم الخانيين يبرز الأوضاع الاجتماعية على خير وجه متمثلة فى عناصر السكان من الخانيين الأتراك والعنصر الفارسي، والعنصر العربى الفاتح، كما انقسم المجتمع إلى عدة طبقات تأتى فى مقدمتها طبقة الخانات والأمراء على أساس أنهم حكام البلاد المتمتعون بكل ثرواتها وخيراتها، ثم طبقة الدهاقين على أساس تكوينهم الأرستقراطي، وما جمعوه من ثروة من تملك الإقطاعات والأراضى الزراعية، ثم طبقة العلماء والمثقفين، وأخيراً طبقة الجوارى والعبيد ولا يفوتنا أن نذكر أن الطوائف الدينية فى بخارى فى عهد الدولة الخانية كثرت حيث شملت طائفة المسلمين على المذهب الحنفى وعلى المذهب الشيعى والمتصوفة الزهاد، إلى جانب طائفة أهل الذمة من اليهود والنصارى والمجوس.

ملحق رقم (١)
شعبة الغرب(بخارى)

حكم	
حوالى سنة ٤٠٦هـ.	- جغراتكين أبو على الحسين بغراخان الثاني(حتى سنة ٤٣٣هـ)
سنة ٤٣٣هـ.	- عماد الدولة أبو المظفر إبراهيم طفغاج خان بن نصر
سنة ٤٦٠هـ.	- شمس الملك نصر الثانى بن طفغاج(توفى ٤٧٢هـ)
ذو القعدة سنة ٤٧٢هـ.	- خضر خان بن طفغاج
حوالى سنة ٤٧٣هـ.	- أحمد خان الثانى بن خضر (عامل السلاجقة)
المحرم ٤٨٨هـ	- محمود خان الثانى بن نصر الثاني
سنة ٤٩٠هـ	- قدرخان الثانى جبرائيل بن عمر بن أحمد توفى فى شعبان سنة ٤٩٥هـ.
سنة٤٩٥هـ.	- محمد أرسلان خان الثالث بن سليمان بن داود بن بغرا الثالث
	- أبو المعالى حسين تكين قلج بن على بن عبد المؤمن
سنة ٥٣٦هـ	- ركن الدين محمود خان الثالث بن أرسلان عامل سنحر السلجوقي
حوالى سنة ٥٥٨هـ.	- ركن الدين قلج تفغاج خان بن محمد أرسلان خان
	- معز الدين قلج خان.
سنة ٥٧٨هـ.	- جلال الدين محمد بن نصر
سنة٥٨٢هـ.	- نصرة الدين إبراهيم كوج أرسلان بن الحسين
سنة٥٩٧هـ.(*)	- جلال الدين ألغ سلطان قدر خاقان
	- خوارزمشاه ٦٠٧هـ.

(*) نعمة على مرسي: القرة خانيون الترك، ص ١٤٢.

الهوامش:-

١- بخارى: إقليم فى بلاد ما وراء النهر، يشمل ما يعرف بأرض الصغد، وهى أرض خصبة فيما بين نهرى سيحون وجيحون، والتى كانت تسقيها مياه نهرين هما زرقشان أى نهر الصغد، وعليه كانت تقوم سمرقند وبخارى. (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٣٥٣، طبعة دار صادر بيروت) وتعتبر بخارى من أهم المدن، فيها دار المملكة وموضع الدواوين، وقد مثلت العاصمة الدينية للسامانيين، بينما سمرقند كانت مركزاً للحكم، (كى وقد لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص٥٠٣ ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد مؤسسة الرسالة سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، وتعد بخارى قبلة الإسلام فى البلاد الشرقية، خرج منها عدد كبير من العلماء والفقهاء، واشتقاق بخارى من كلمة بخار وهى باللغة المغانية مجمع العلم، وهذه الكلمة بخارى بلغة الوثنيين الأويغور والختا تعنى موضع الأوثان فى معابدهم، وكان اسم المدينة قبل ذلك "بمجكث". (الجويني: تاريخ جهانكشاي، ج١، ص١١٢، ترجمة محمد التويخي، الطبعة الأولي، طبعة دار الملاح سنة١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).

٢- على أكبر دهجدا: لغت نامه، ج١، ص٦٨٨، دائرة المعارف الإيرانية، عدد مسلسل ١٥، نشر جامعة طهران ١٣٤١هـ.ش.

٣- على أكبر دهجدا: نفس المرجع السابق والجزء، ص٢٨٧، ٢٨٨.

4-FRYE: BUKHARA THE medieval ACHIEVEMENT, p.31.(London,19650).

٥- طبقة الدهاقين: هى الطبقة الأرستقراطية الحاكمة فى بلاد ما وراء النهر، وتعتبر الطبقة المتحكمة فى الأراضى الزراعية والإقطاعات (التنوخي: كتاب الفرج بعد الشدة، ج٤، ص٥٩، تحقيق عبود الشالجي، طبعة دار صادر بيروت، ١٣٩٨، ١٩٧٨م، وقد استخدمت لفظة دهقان فيما بعد كلقب يطلق على ملوك بخارى أنفسهم (نعمة على مرسي: طبقة الدهاقين فى بخارى، ص٥، طبعة دار الأمانة ١٩٩٥م).

٦- النرشخي: تاريخ بخارى، ص٢١، ترجمة وتحقيق أمين عبد المجيد بدوى ونصر الله مبشر الطرازي، مطبعة دار المعارف بمصر سنة١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

٧- النرشخي: نفس المصدر السابق، ص٤١ ، ٤٢، لسترنج: بلدان الخلافة،٥٠٤.

٨- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٣٥٣، بارتولد: تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، ترجمة صلاح الدين عثمان، ص١٦٣، طبعة الكويت١٩٨١م.

٩- انظر ملحق رقم١، الخاص بأسماء الأمراء الخانيين فى بخارى.

الخانيون: عرفوا فى التاريخ باسم القراخانيين، والقرا باللغة التركية بمعنى أسود، والخان بمعنى ملك أو الحاكم، ويرجع بعض المؤرخين أصلهم إلى البطل الأسطورى أفراسياب. وقد قامت هذه الدولة بدور كبير فى نشر الإسلام بين بنى جنسها من الأتراك الشرقيين،

فقد تحمس الخانيون للدين الإسلامى، وللمذهب السنى مذهب الخلافة العباسية.
(نظامى عروض السمرقندي: جهار مقاله، ص١٤١، ترجمة عبد الوهاب غرام ويحيى الخشاب الطبعة الأولى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٨هـ/ ١٩٤٩م،

HOWORTH: THE NORTHEN FRONTAGERS OF CHINA, P.466- JOURNAL OF THE ROYAL ASIALIC SOCIETY, (London, 1989).

١٠- ظهرت قوة رجال الدولة السامانية بتولية ابن سيمجور قيادة جيش خراسان، وانتهى عهد الوزراء الأقوياء بوفاة الوزير العتبى

FRY: BAKGara, p.p.40,67.

١١- العتبي: تاريخ اليميني، ج٢، ص١٦٣.
فقد نفر الدهاقون من اتجاه السامانيين إلى الطبقة الشعبية، فأطلعوهم على عورات البلاد، يؤيد ذلك أن الدهاقين جنوا الفائدة مضاعفة بعد أن تمت للخانيين السيطرة على بخارى، حيث أطلقوا أيديهم فى حكم البلاد، وحملوا ألقاباً تركية.
(Barthold: four studies on the history of central asia, vol.I, p.21).

١٢- بلاساغون: بلدة عظيمة فى ثغور الترك فيما وراء النهر، قريبة من مدينة كاشغر (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٣٢٠).

١٣-البيهقي: تاريخ البيهقي، ص٢١٤، بارتولد: تاريخ الترك، ص٨٢، حسن محمود: الإسلام فى آسيا، ص١٨٤، د. نعمة على مرسي: القره خانيون الترك، ص٣٥، دار الهداية سنة ١٩٨٧م.

١٤- أمتلك بغراخان بخارى وعدة مدن أخرى مثل كاشغر وبلاساغوى وختن وطراز وغيرها إلى حدود الصين، وذلك سنة ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م، ويعرف بأنه شهاب الدين هارون بن سليمان. (النويري: نهاية الأرب فى فنون الأدب، ج٢٥، ص٣٦١، تحقيق محمد جابر عبد العال الحينى وعبد العزيز الأهواني، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

١٥- قابوس: قابوسنامة، ص٢٠٣، ترجمة محمد صادق نشأت وأمين عبد المجيد بدوي، الطبعة الأولى مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م، العتبي: تاريخ اليمينى المسمى بالفتح الوهبى على تاريخ أبى نصر العتبي، جزءان، القاهرة ١٢٨٦هـ.

١٦- العتبي: تاريخ اليميني، ص٢٣٤، حمد الله مستوفى القزويني: تاريخ كزيده المعروف بالتاريخ المختار، ترجمة محمود محروس قشطة رسالة ماجستير بكلية الآداب جامعة عين شمس سنة ١٩٦٨م، ص٢٦، النويري: نهاية الأرب، ج٢٥، ص٣٦٣.

١٧- توفى بغراخان فى أثناء عودته إلى عاصمته كاشغر، فتولى بدلاً منه أيلك خان، (ابن الأثير: الكامل، ج٩، أحداث سنة ٣٨٣هـ، ص١٠٠ ، طبعة صادر بيروت سنة

١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، وقد دفن بغراخان فى المسجد المقام فى آرتيش شمال كاشغر.

(howorth: the northern frotagers of china, p.470.)

١٨- القزويني: تاريخ كزيده، ص٢٨، النويري: نهاية الأرب، ج٥٢، ص٣٦٣، د. نعمة على مرسي: القره خانيون الترك، ص٤٢.

١٩- سبكتكين: من غلمان ألبتكين الذى يعتبر المؤسس الحقيقى لمملكة غزنة، بيع كعبد تركى للأمير أحمد بن إسماعيل السامانى (الجويني: تاريخ جهانكشاي، ج١، ص٢٥٥)، وتدرج فى حرسه الخاص، واكتسب نفوذاً كبيراً فى عهد الأمير عبد الملك بن نوح

Naziv: the life and the time of soltun Mohmad of Gazna of Arcmard by the late sir tomes Arnold, p.24 (cambridge 1931).

تمكن ألتبكين من الاستيلاء على غزنه التى آلت مؤخراً إلى ابنه أبو إسحق إبراهيم، ومنه إلى سبكتكين سنة ٣٥٢هـ/ ٩٧١م، الذى قيل إنه كان عبداً تركياً مشترى من أسواق النخاسة بالتركستان (النرشخي: تاريخ بخارى، ص ١٣٢، نظام الملك الطوسي: سياست نامة، ص١٤٨، ترجمة السيد محمد العزاوي، الناشر دار الرائد العربي، القاهرة سنة ١٨٩٨م، بدواني: منتخب التواريخ، ج١، ص١٠، بتصحيح مولوى أحمد على صاحب، طبعة كلكتة ١٩٨٩م،

Nazim: Ibid, p.p25,26.

وقد خلف محمود أبيه سبكتكين فى حكم غزنة، ولقبه الخليفة القادر بالله يمين الدولة أمين الملة، وضم إليه مدينتى بلخ وهرات فى سنة ٣٧٨هـ/ ٩٩٧م.

(بدواني: نفس المصدر السابق والجزء ، ص١٠، خليل الله خليلي: سلطنت غزنويان، ص٥، طبعة كابل، ١٣٣٣هـ.ش،

narin: Ibid, p.26.

٢٠- بادية قطوان: قرية من قرى سمرقند على بعد خمسة فراسخ منها (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٦٢).

٢١- العتبي: تاريخ اليميني، ص٢٤١.

٢٢- الكرديزي: زين الأخبار، ص٢٨٨ ، ترجمة عفاف السيد زيدان، الطبعة الأولي، القاهرة سنة١٩٨٢،

Howorth: the Northern, p. 478.

٢٣- البيهقي: تاريخ البيهقي، ص٧٤٢ ، ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية سنة١٣٥٦، ١٩٥٥م، د. نعمة على مرسي: القره خانيون الترك، ص٤٦.

٢٤- أوزكند: إحدى مدن الحدود الواقعة إلى الشرق من فرغانة لها سور وقهندز وعدة أبواب (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ، ص ٣٦).

25- Howorth: the Northern, p. 478.

٢٦- استخدم الخانيون فى بداية عهدهم فى تركستان عاصمة لهم فى بلاساغون ثم كاشغر، ثم نقل أيلك خان عاصمته إلى أوزكند التى هى أكثر أمانا وأقل خطراً من بلاد ما وراء النهر.

(Barthold: four studies on the histry central asia,(liden brill, 1962) vol.I,p.22).

٢٧- النرشخي: تاريخ بخارى، ص ٤٩.

28-howorth: the northern, p. 489.

٢٩- وفد الأتراك على بخارى بعدة طرق؛ أولها كطبقة حاكمة متمثلة فى الأسرة الخانية الحاكمة، وثانيها عن طريق إهداء الأمراء والولاة بعضهم البعض الغلمان الأتراك من التركستان، وثالثها عن طريق الشراء من أسواق النخاسة فقد كانت تجارة الرقيق الأبيض منتشرة بصورة كبيرة فى تلك المناطق لما تميزوا به من صفات خلقية وجسدية، فكانت بلاد ما وراء النهر سوقاً كبيراً ومركزاً رئيسياً لتدريبهم وتربيتهم. (ابن حوقل: صورة الأرض، ص٤٩٢، الطبعة الثانية، طبعة ليدن ١٩٣٩م).

٣٠- بارتولد: تركستان، ص٤٥٢.

٣١- الأصفهاني: تاريخ آل سلجوق، ص١١، اختصار الفتح البنداري، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٨م.

٣٢- يعتبر الأمير "تانع كادحو" الذى امتد نفوذه السياسى إلى سمرقند وبخارى وبلاد القفجاق فيما بين عامى ٥٨٩م : ٩٠٥م، وقام على تحصيل الخراج من حكامها وفقاً لرضاهم عن حكمه وسيادته عليهم من أهم حكام الصين الذى أقام علاقات بالخانية فى بداية أمرهم بكاشغر. (بدر الدين حى الصيني: العلاقات بين العرب والصين، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة المصرية، ١٣٧٠هـ/ ١٩٥٠م، ص٣٠، ٣١).

٣٣- فامبري: تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر، ص١٢٠، ترجمه من اللغة التركية أحمد محمود الساداتي، ويحيى الخشاب، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، نعمة على مرسي: القره خانيون الترك، ص١٣.

٣٤- تاريخ الترك فى العصور الوسطي، ص١٠٨، ترجمة أحمد السعيد سليمان، مراجعة إبراهيم صبري، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٨م.

٣٥- نظامى عروض السمرقندي: جهار مقالـه، ص١٠٤، بن الأثير: الكامل، ج٩، أحداث٤٠٣هـ، ص٢٤٠، فامبري: تاريخ بخارى، هامش٢، ص١٢٠.

Howorth: The northern, p.468.

٣٦- لقد نشر السامانيون الإسلام بين القبائل التركية الوثنية، ووجهوا حملات عسكرية لإخضاعهم شرق نهر جيحون، وقادوا حملات تجارية تجاه الخزر والبلغار والروس،

(Frye: bakhare, p.72.)

٣٧- نظامى عروض السمرقندي: جهار مقاله، ص٣٤، حسن محمود: الإسلام فى آسيا

الوسطى بين الفتحين العربى والتركي، ص١٧٣ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة١٩٧٢م،

Barthold: four studies, p.488

٣٨- نظامى عروض السمرقندي: نفس المصدر السابق، ص١٠٨، بارتولد: تركستان، ص٥٢٣،

Howorth: the northern, p.501

٣٩- نظام الملك الطوسي: سياست نامه، ص١٦٥، بارتولد: تركستان، ص٤٥٨، نعمة على مرسي: القره خانيون الترك، ص١١٠.

٤٠- نظامى عروض السمرقندي: جهار مقاله، ص٥٥.

٤١- نظامى عروض السمرقندي: نفس المصدر السابق، ص٥٤ ،٥٥.

٤٢- ضم بلاط خضر خان عدداً كبيراً من الشعراء العظام من أمثال الرشيدى ونجيب الفرغانى وبخار الساغرجي، وعلى البابنذي، وكانت تقام بينهم مناظرات فى داخل القصر، وبخاصة بين الأمير عمعق أمير الشعراء والشاعر الرشيد. (محمد عوفي: لباب الألباب، ج٢، ص١٨٦ تصحيح إدوار ديروز انكليش، طبعة بريل، مدينة ليدن ١٩٠٣م، فرهنك أدبيات فارس دري، ص٢٣٢، تهران بنياد فرهنك إيران.

نسب إلى الشاعر الرشيدى منظومة شعرية تسمى قهروونا- بمعنى الحب والوفاء- يعتقد أنها نظمت فى إحدى نساء البيت الخاني، وهى السيدة زينب، كما برع الشاعر الرشيدى فى كتابة المقالات البلاغية. (فرهنك أدبيات فارس دري، ص٢٣٣).

٤٣- الراوندي: راحة الصدور وآية السرور، ص٢٦٠، ترجمة إبراهيم أمين الشواربى وعبد النعيم محمد حسنين، وفؤاد الصياد، طبعة دار العلم القاهرة سنة ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م.

زندنجيا نسبة إلى قرية زندية من قرى بخارى، وإلى هذه القرية تنسب الثياب الزندنجية وهى ثياب مشهورة، أما الثياب العنابى فتنسب إلى مخترعها وهو يعرف باسم العناب. (الراوندي: نفس المصدر السابق، هامش٣ ،٥، ص٢٦٠).

٤٤- ميرخواند: روضة الصفا فى سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، ص١٤٤، ترجمة أحمد عبد القادر الشاذلي، الدار المصرية للكتاب، ١٩٨٨م.

٤٥- بارتولد: تركستان، ص٤٦٠.

٤٦- ميرخواند: روضة الصفا، ص١٣٨ ،١٣٩، عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية فى نهاية الدولة القاجارية، ترجمة محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة والنشر والتوزيع بالقاهرة.

٤٧- بارتولد: تركستان، ص ٤٥٩.

٤٨- القراخطائيون: ينسب هؤلاء إلى مجموعة من القبائل التركية الوثنية التى تدين بالبوذية، أقاموا على حدود تركستان، وأسسوا دولتهم فى حدود سنة ٥١٨هـ/ ١١٢٤م، ويعتبر

الملك نيكو من أول ملوكهم (البناكتي: روضة أولى الألباب فى معرفة التواريخ والأنساب المشهورة بتاريخ البناكتي، ترجمة محمود عبد الكريم على، ص٣٧٩، طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، سنة ٢٠٠٨م)، أصلهم من جملة المعتبرين والمشاهير، وشملت منطقتهم ما بين مملكة الخوارزمية فى الغرب، ومساكن المغول فى الشرق، وأطلق على ملوكهم لقب كورخان، أى خان الخانات (نظامى عروض السمرقندي: جهار مقاله، ص١٠٨، الجويني: تاريخ جهانكشاي، ج١، ص٣٢٩)، وبدأوا يمارسون الزراعة،والتجارة وإقامة الأسواق فى الصحارى، وقيل إن الأمير لن تايزو استولى على البلاد وأصبح ملكا، وزحف على بلاد الصين (البناكتي: تاريخ البناكتي، ص٣٨١ ،٣٩٤).

٤٩- ابن الأثير: الكامل، ج١٠، أحداث سنة٥٣٦هـ، ص٨٥.

٥٠- بارتولد: تاريخ الترك،ص١٥٧ ،١٥٨.

٥١- الأصفهاني: تاريخ آل سلجوق، ص٢٥٣، نعمة على مرسي: القره خانيون، ص٨٥.

٥٢- الجويني: تاريخ جهانكشاي، ج١، ص٣٣٢، بارتولد: تاريخ الترك، ص١٢٧ ،١٣٢.

٥٣- نظامى عروض السمرقندي: جهار مقاله، ص١١٠.

٥٤- بارتولد: تاريخ الترك،ص١٥٠.

٥٥- القرديزي: زين الأخبار، ص١٧٩.

مر فتح بخارى بعدة محاولات، إذ هاجمها قتيبة بن مسلم بأربع حملات متتالية حتى تمكن من إتمام الفتح، كما اتبع عدة وسائل منها بناء المساجد لنشر الدين الإسلامى (كى لسترنج: بلدان الخلافة، ص٥٠٥ ،٥٠٦).

كما عمل على التقارب بين العرب والأهالى بإسكانهم بين جنباتهم، فحرص على أن تكون بيوت العرب داخل بخارى فى جهة باب المجوس.

(النرشخي: تاريخ بخارى، ص٨٥، بطروشوفسكي: الإسلام فى إيران، ص٧٦، ترجمة السباعى محمد السباعى، الطبعة الثانية، دار الزهراء للنشر، سنة ١٩٩٣م.

٥٦- الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٧، ص٧٦، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بالقاهرة.

٥٧- حسن محمود: الإسلام فى آسيا، ص١٢٤.

٥٨- بطروشوفسكي: الإسلام فى إيران، ص٨١، فامبري: تاريخ بخارى، ص٥٠.

٥٩- النرشخي: تاريخ بخارى، ص٨٠.

٦٠- النرشخي: نفس المصدر السابق، ص٨٤. (انظر: الخريطة الخاصة بخطط بخارى حيث تظهر فيها أماكن إقامة العرب من باب الحديد إلى باب السوق).

٦١- البيهقي: تاريخ البيهقي، ص١٦٩.

٦٢- بارتولد: تركستان، ص٧٢.

٦٣- بارتولد: نفس المرجع السابق، ص٦٠.
٦٤- بنتسب السامانيون إلى بهرام جور الفارسى (ميرخواند: روضة الصفا، ص٧٩)، وأنهم من قرية سامان من القرى القريبة من سمرقند، وكانوا على الزرادشتية فى بداية عهدهم (عباس إقبال: تاريخ إيران، ص١٣٣).
٦٥- ميرخواند: روضة الصفا، ص٨٢،

Frye: Bakhare, p.38

٦٦- عباس إقبال: تاريخ إيران، ص١٣٧.
٦٧- فامبري: تاريخ بخارى، ص١٠٩.
٦٨- بارتولد: تركستان، ص٧٤ ، ٧٥.
٦٩- محمد أحمد محمد: بخارى فى صدر الإسلام، ص١٠٠، الطبعة الأولي، طبعة دار الفكر العربى ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
٧٠- نظامى عروض السمرقندي: جهار مقالة، ص٥٠، بارتولد: تركستان، ص٤٦٤.
٧١- بارتولد: تاريخ الترك، ص١٠٧.

72-houorth: the northorn, p.473.

٧٣- النرشخي: تاريخ بخارى، ص٤٩.
٧٤- أوقطاى آصلان أب: فنون الترك وعمائرهم، ترجمة أحمد محمد عيسي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، أسطنبول سنة ١٩٨٧، ص١٨.

75--Howorth: Ibid, p.492.

٧٦- النرشخي: تاريخ بخارى، ص٤٩ ،٧٧.
٧٧- بارتولد: تركستان، ص٤٦٣، زياد محمد هواشي: القراخانيون فى تركستان، ص٩.
٧٨- بيكند: بلدة بين بخارى ونهر جيحون على بعد مرحلة، كثيرة العلماء، بها كثير من الرباطات أكثر من ألف رباط، ولها سور حصين، ومسجد جامع. (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٢٠٣).
٧٩- أوقطاى آصلان أب: فنون الترك وعمائرهم، ص١١ ،١٢.
٨٠- النرشخي: تاريخ بخارى، ص٣٥، ٣٩، ٧٦.
٨١- الراوندي: راحة الصدور، ص٢١٧.
٨٢- نظام الملك الطوسي: سياست نامه، ص١٢٥، ١٤٤.
٨٣- نظام عروض السمرقندي: جهار مقاله، ص١٠٤،

Howorth: The Northern, p. 468.

٨٤- العتبي: تاريخ اليميني، ج١، ص١٦٣، نظام عروض السمرقندي: جهار مقاله، ص١١٤، بارتولد: تاريخ الترك، ص١٣٤، زياد محمد هواش: القراخانيون فى تركستان، ص١.

٨٥- ابن الأثير: الكامل، ج٩، أحداث سنة ٤٠٨، ص٣٠٠، بارتولد: تاريخ الترك، ص١٥١، Howorth: the northern,p.468،

بارتولد: تركستان، ص٤٦٢.

٨٦- الظهيري السمرقندي: سندباد نامه، ص٣٣. ترجمة أمين عبد المجيد بدوي، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٧٢م.

والظهيري: هو بهاء الدين محمد بن علي بن محمد الحسن، يعتبر شاهد عيان على عهد قلج طمغاج خان، فهو صاحب ديوان الرسائل فى الخانية، ومؤلف كتاب سندباد نامه، فى سنة ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م. (الظهيري: نفس المصدر السابق، ص٤٠، (Howorth: the northern,p 499).

٨٧- نظام الملك الطوسي: سياست نامه، ص١٨٨، ١٨٩، بدواني: منتخب التواريخ، ج١، ص١٠.

٨٨- بارتولد: تركستان، ص ٤٥٠.

٨٩- ابن الأثير: الكامل، ج١٣، أحداث سنة ٦٠٤هـ، ص٧٢، نعمة على مرسي: القره خانيون، ص٢١.

90- Howorth: the northern,p.p 479- 480.

91- ابن الأثير: الكامل، ج٩، أحداث سنة ٤٠٨هـ، ص٢٩٨.

92- بارتولد: تركستان، ص٥٠٨، Howorth: the northern,p.482.

٩٣- ابن الأثير: الكامل، ج٥، أحدث سنة ١١٦هـ، ص٣٢.

٩٤- الكرديزي: زين الأخبار، ص١٦٨.

ومن الجدير بالذكر أن الدهاقين كانت لهم اليد الطولى فى بخارى والنفوذ الواسع عند مقدم القائد العربى قتيبة بن مسلم لفتح تلك المناطق، فربما فقد الأمراء سلطتهم كحكام، فيحل محلهم طبقة الدهاقين، وقيل أنهم مثلوا دولة داخل الدولة نفسها.

(التنوخي: كتاب الفرج بعد الشدة، ج٤، ص٥٩، بارتولد: تاريخ الترك، ص٨٢، نعمة على مرسي: طبقة الدهاقين فى بخارى، ص٦).

٩٥- محمد أحمد محمد: بخارى فى صدر الإسلام، ص٨.

٩٦- النرشخي: تاريخ بخارى، ص٤١، ٤٢، كى لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص٥٠٤.

٩٧- نفس المصدر السابق، ص٥٠.

٩٨- فامبري: تاريخ بخارى، ص ٤٠.

٩٩- ميرخواند: روضة الصفا ، ص٨١، عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام، ص١٦٧.

١٠٠- الكرديزي: زين الأخبار، ص٢٣٩.

١٠١- البيهقي: تاريخ البيهقي، ص٢١٤،

Howorth: The Northern, p. 471.

١٠٢- تاريخ الترك، ص٨٢، ٨٣.

١٠٣- العتبي: تاريخ اليميني، ج١، ص١٦٣، بارتولد: تاريخ الترك، ص٨٣.

١٠٤- حسن محمود: الإسلام فى آسيا، ص١٨٤.

١٠٥- نظامى عروض السمرقندي: جهار مقاله، ص١٠٨،

Howorth: the northern,p.495.

١٠٦- تركستان، ص٣٩.

١٠٧- البيهقي: تاريخ البيهقي، ص٣٩.

١٠٨- بارتولد: تركستان، ص٤٥٥.

١٠٩- بارتولد: تاريخ الترك، ص١٥٠، محمد أحمد محمد: بخارى فى صدر الإسلام، ص١٥.

١١٠- النرشخي: تاريخ بخارى، ص٣٠.

١١١- نعمة على مرسي: طبقة الدهاقين فى بخارى، ص٨٤.

١١٢- النرشخي: تاريخ بخارى، ص٣٤.

١١٣- تركستان، ص٢١٤.

١١٤- بارتولد: نفس المرجع، ص٣٦١.

١١٥- زياد محمد هواش: القرا خانيون فى تركستان، ص٧.

١١٦- ألف كتاب سندباد نامه باللغة الفهلوية قبل الإسلام بعدة قرون، وينسب تأليفه إلى حكيم هندى يسمى سندباد، وكانت النسخة الفهلوية موجودة حتى زمن السامانيين فى القرن الرابع الهجري، فنقله العميد أبو الفوارس القناوزى إلى اللغة الفارسية المبسطة الخالية من الصناعة البديعية بأمر من الأمير ناصر الدين بن محمد بن نصر، ثم أعاد الظهيرى السمرقندى كتابته فى القرن السادس الهجري. (الظهيري: سندباد نامه، ٥، ٦).

١١٧- محمد عوفي: لباب الألباب، ج١، ص٩٢.

١١٨- نظامى عروض السمرقندي: جهار مقاله، ص١٤٤.

١١٩- النرشخي: تاريخ بخارى، ص٤٨.

١٢٠- نظامى عروض السمرقندي: جهار مقاله، ص٥٣، ٥٤.

١٢١- النرشخي: تاريخ بخارى، ص٥٧.

١٢٢- الجويني: تاريخ جهانكشاي، ج١، ص١٢٠، بارتولد: تركستان، ص٦٧٠.

١٢٣- بارتولد: تاريخ الترك، ٨٣.

١٢٤- بدر الدين حى الصيني: العلاقات بين العرب والصين، ص٢٢.

١٢٥- القزويني: آثار البلاد، ص٣٧٦، طبعة دار بيروت للطباعة والنشر، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

١٢٦- عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطي، ص١٠٦، ١١٨، ١١٩، الطبعة الخامسة، مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٨٦م.

١٢٧- كي لسترنج: بلدان الخلافة، ص٥٠٥.

١٢٨- آدم متز: تاريخ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج٢، ص١٢٨، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة، الطبعة الثالثة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م.

١٢٩- آدم متز: نفس المرجع السابق والجزء، ص١٢٧.

١٣٠- الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية، ص٩٢.

١٣١-قابوس: قابوس نامه، ص١٢٦.

١٣٢- نظامي عروض السمرقندي: جهار مقاله، ص١٠٩.

١٣٣- القزويني: آثار البلاد، ص٥١٠.

١٣٤- نظامي عروض السمرقندي: جهار مقاله، ص١٠٩.

١٣٥- Howorth: the northern ,p. 495.

١٣٦- بارتولد: تركستان، ص٤٧٦، ٤٧٧.

١٣٧- نظامي عروض السمرقندي، جهار مقاله، ص١١١.

١٣٨- ابن الأثير: الكامل، ج١٢، أحداث سنة ٦٠٤هـ، ص٧٢، الجويني: تاريخ جهانكشاي، ج١، ص٢٢٩.

139- houorth: the northern,p.p 500,501.

١٤٠- الجويني: تاريخ جهانكشاي، ج١، ص٣١٧، ٣٣٣، بارتولد: تركستان، ص٥٢٥.

١٤١- ابن الأثير: الكامل، ج١٢، أحداث سنة ٦٠٤هـ، ص٧٢.

١٤٢- نظامي عروض السمرقندي: جهار مقاله، ص١١١.

١٤٣- بارتولد: تركستان ص٣٧٤.

١٤٤- ابن الأثير: الكامل، ج٩، أحداث سنة ٤٣٦هـ، ص٥٢٤، بارتولد: تركستان، ص٤٥١.

١٤٥- ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج١٠، أحداث سنة ٥٢٤هـ، ص٦٦١.

146- Howorth: the Northern ,p .493.

١٤٧- آدم متز: الحضارة الإسلامية، ج٢، ص٢١٢، ٢١٨.

١٤٨- محسن الأمين العاملي: أعيان الشيعة، ج٥، ص٧٠٠، الطبعة الأولي، طبعة الترقي، دمشق سنة ١٩٣٦م.

١٤٩- نيكلسون: الصوفية في الإسلام، ص١١، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، الطبعة الثانية: مطبعة مؤسسة الرسالة، سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

١٥٠- الطوسي: اللمع، ص٤٠، تحقيق عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، طبعة دار

الكتب الحديثة سنة ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م.

١٥١- بارتولد: تركستان، ص٤٦٩.

١٥٢- الجويني: تاريخ جهانكشاي، ج١، ص١٢٠.

١٥٣- نظام الملك الطوسي: سياست نامه، ص٢١٧.

١٥٤- رحلة بنيامين التطيلي، ص ١٤٢، ترجمة عزرا حداد، تقديم عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٢م.

١٥٥- الربيون: جمع كلمة الربى أو الراب وهى كلمة عبرية بمعنى السيد أو الأستاذ، أما الحزانون، مفردها الحزان، وهو الخطيب الذى يرتقى المنبر ويصلى بالجماعة. (زبيدة محمد عطا: اليهود فى العالم الإسلامى، ج١، ص ١٥٤)، الطبعة الأولى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، ٢٠٠٣م.

١٥٦- رأس الجالوت: وهو الرئيس العام لليهود، وهو منصب وراثي، ومقره بغداد، وقد حظى بمكانة مميزة ومنزلة رفيعة فى العراق (زبيدة محمد عطا: اليهود فى العالم العربي، ج١، ص١٥٤)، كان يخرج فى موكب كبير للقاء الخليفة فيه الفرسان من اليهود، وكان يتقدم هذا الموكب منادي ينادى الناس بإفساح الطريق له، ويسير فى الطرقات وهو راكب جواد عليه حلة من حرير وقصب، وعلى رأسه عمامة كبيرة تتدلى منها قطعة قماش مربوطة بسلسلة منقوشة عليها شعار الخليفة، وتقضى بالتقاليد المرعية بين اليهود والمسلمين بالنهوض أمام رأس الجالوت احتراماً. (بنيامين التطيلي: نفس المصدر السابق، ص٢٩٨، ٣٠١).

١٥٧- بنامين التطيلي: نفس المرجع السابق، ص ٣٠٠.

١٥٨- زبيدة محمد عطا: اليهود فى العالم العربي، ج١، ص١٥٤.

١٥٩- بارتولد: تركستان، ص ٣٠٩.

١٦٠- بطروشوفسكي: الإسلام فى إيران، ص٨٠.

١٦١- بارتولد: تركستان، ص٣٠٩.

١٦٢- آدم متز: الحضارة الإسلامية، ج٢، ص٦٠.

١٦٣- آدم متز: نفس المرجع السابق والجزء، ص٥٥.

١٦٤- النرشخي: تاريخ بخارى، ص٨، ٤٠، بطروشوفسكي: الإسلام فى إيران، ص٨٢.

١٦٥- آدم متز: الحضارة الإسلامية، ج٢، ص٦٠، ٦٥.

١٦٦- آدم متز: نفس المرجع والجزء، ص٥٩.

أسماء المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية:-

١- ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٨م): أبو الحسن على بن محمد أبو المكرم "الكامل فى التاريخ"، ١٢ جزءاً، طبعة صادر بيروت سنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٢- بدر الدين حى الصينى : " العلاقات بين العرب والصين"، الطبعة الأولي، مكتبة النهضة المصرية ١٣٧٠هـ/ ١٩٥٠م.

٣- بنامين التطليلي: (ت٥٦٩هـ/ ١١٧٣) : بنيامين بن يونه التطيلى النبارى الأندلسى "رحلة بنيامين"، ترجمة عزرا حداد ، دراسة وتقديم عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الإمارات العربية المتحدة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٢م.

٤- التنوخى (ت٣٨٤هـ/ ٩٩٦م): أبو على المحسن بن على، "كتاب الفرج بعد الشدة"، ج٤، تحقيق عبود الشالجي، طبعة دار صادر، بيروت ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

٥- حسن أحمد محمود: "الإسلام فى آسيا الوسطى بين الفتحين العربى والتركي"، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٢م.

٦- ابن حوقل (ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م): أبو القاسم محمد بن على، " صورة الأرض"، الطبعة الثانية، ليدن سنة١٩٣٩م.

٧- زبيدة محمد عطا: "اليهود فى العالم العربي، ج١، الطبعة الأولى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٣م.

٨- الطبرى (ت٣١٠هـ/ ٩٢١م): أبو جعفر محمد بن جرير، "تاريخ الرسل والملوك"، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، ج٧، طبعة دار المعارف بالقاهرة.

٩- الطوسى (ت٣٧٨هـ/ ٩٨٨م): عبد الله بن على السراج، "اللمع"، تحقيق عبد الحليم محمود وطه عبد الباقى سرور، طبعة دار الكتب الحديثة سنة ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م.

١٠- القزوينى (ت٦٨٢هـ/ ١٢٨٠م): زكريا بن محمد بن محمود، "آثار البلاد وأخبار العباد"، طبعة دار بيروت للطباعة والنشر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

١١- عبد المنعم ماجد: "تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطي"، الطبعة الخامسة، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٦م.
١٢- محسن الأمين العاملي: "أعيان الشيعة"، ج٥، الطبعة الأولى، طبعة الترقي، دمشق ١٩٣٦م.
١٣- محمد أحمد محمد: "بخارى فى صدر الإسلام"، الطبعة الأولى، طبعة دار الفكر العربي، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
١٤- نعمة على مرسي: طبقة الدهاقين فى بخارى، مطبعة الأمانة ١٩٩٥م
١٥- نعمة على مرسي: القره خانيون الترك، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع سنة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.
١٦- النويرى (ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٠م): شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، "نهاية الأرب فى فنون الأدب"، ج٢٥، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني، وعبد العزيز الأهواني، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
١٧- ياقوت الحموي(ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م): شهاب الدين أبو عبد الله، "معجم البلدان"، خمسة أجزاء، طبعة دار صادر، بيروت، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

ثانياً: المصادر والمراجع الفارسية:-

١٨- الأصفهانى (ت ٥٩٧هـ/ ١٠١٧م): عماد الدين بن محمد بن حامد، "تاريخ آل سلجوق"، اختصار الفتح بن على بن محمد البنداري، الطبعة الثانية، طبعة بيروت، ١٩٨٧م.
١٩- أوقطاى آصلان أب: فنون الترك وعمائرهم "ترجمة أحمد محمد عيسى، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، استانبول ١٩٨٧م.
٢٠- بدواني: "منتخب التواريخ" ، ج١، تصحيح مولوى أحمد على صاحب طبعة كلكته ١٨٩٨م.
٢١- بطروشوفسكي: "الإسلام فى إيران، ترجمة السباعى محمد السباعي، الطبعة الثانية، الناشر دار الزهراء للنشر سنة ١٩٩٣م.
٢٢- البناكتي: أبو سليمان داود بن أبو الفضل محمد، روضة أولى الألباب فى

معرفة التواريخ والأنساب المشهور بتاريخ البناكتي، ترجمة محمود عبد الكريم علي، طبعة الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة ٢٠٠٨م.

٢٣- البيهقى (ت ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م): أبو الفضل محمد بن حسن، "تاريخ البيهقي"، ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية، سنة ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٥م.

٢٤- الجوينى (ت ٦٥٨هـ/ ١٢٨٣م): علاء الدين عطا ملك، "تاريخ جهانكشاي، المجلد الأول، ترجمة محمد التويخي، الطبعة الأولى، طبعة دار الملاح للطباعة والنشر، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٢٥- خليل الله خليلي: "سلطنت غزنوبان"، كابل ١٣٣٣هـ.ش.

٢٦- الراوندى (ت٥٩٩هـ/١٢١٢م): محمد بن على بن سليمان، "راحة الصدور آية السرور"، ترجمة إبراهيم أيمن الشواربى وعبد النعيم محمد حسنين وفؤاد الصياد، دار العلم بالقاهرة سنة ١٩٦٠م.

٢٧- زياد محمد هواشي: القراخانيون فى تركستان، تاريخ منسى وحضارة باقية، أستاذ وباحث بجامعة محمود الكاشغرى للدراسات الشرقية بشكيك.

٢٨- الظهيرى السمرقندى (ت ٥٥٠هـ/ ١٣٦٨م): بهاء الدين محمد بن على بن محمد، "سندباد نامه"، ترجمة أمين عبد المجيد بدوي، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٢م.

٢٩- عباس إقبال: "تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية"، ترجمة محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة.

٣٠- العتبى (ت٤٢٨هـ/ ١٠٣٦م): أبو نصر محمد بن عبد الجبار، "تاريخ اليمينى المسمى بالفتح الوهبى على تاريخ أبى نصر العتبي"، جزءان، القاهرة ١٢٨٦هـ.

٣١- على أكبر دهخدا: "لغت نامه"، دائرة المعارف الإيرانية، عند مسلسل١٥، نشر جامعة طهران ١٣٤١هـ.ش.

٣٢- فرهنك أدبيات فارس دري، تهران بنياد فرهنك إيران.

٣٣- قابوس (ت ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م): عنصر المعالى كيكاوس بن اسكندر، "قابوسنامة المعروف بكتاب النصيحة، ترجمة محمد صادق نشأت وأمين عبد المجيد بدوي، الطبعة الأولى، مكتبة الأنجلو المصرية ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م.

٣٤- القزوينى (ت ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م): حمد الله مستوفي، "تاريخ كزيده" المعروف بالتاريخ المختار، ترجمة محمود محروس قشطة، ضمن رسالة ماجستير بكلية الآداب جامعة عين شمس ١٩٦٨م.

٣٥- الكرديزى ((ت ٤٤٢هـ/ ١٠٥١م): أبو سعيد عبد الحى بن الضحاك محمود، "زين الأخبار"، ترجمة عفاف السيد زيدان، الطبعة الأولي، القاهرة ١٩٨٢م.

٣٦- محمد عوفى (ت فى النصف الأول من القرن ٧هـ/ ١٣م): محمد نور الدين، "لباب الألباب"، جزءان، تصحيح إدوار ديروز انكلش، طبعة بريل، مدينة ليدن سنة ١٩٠٣م.

٣٧- ميرخواند (ت٩٠٣هـ/ ١٤٩٩م): محمد بن خواند شاه، "روضة الصفا فى سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء"، ترجمة أحمد عبد القادر الشاذلي، طبعة الدار المصرية للكتاب ١٩٨٨م.

٣٨- النرشخى (ت ٣٤٨هـ/ ٩٥٩م): أبو بكر محمد بن جعفر، "تاريخ بخارى"، ترجمة وتحقيق أيمن عبد المجيد بدوى ونصر الله مبشر الطرازي، طبعة دار المعارف بمصر ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

٣٩- نظام الملك الطوسى (ت ٤٨٦هـ/ ١٠٩٢م): الحسن بن إسحاق بن العباس، "سياست نامه"، ترجمة سيد محمد العزاوي، الناشر دار الرائد العربي، القاهرة سنة ١٩٧٥م.

٤٠- نظامى عروض السمرقندى (ت ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م): أحمد بن عمر النظامي، "جهار مقاله"، وعليه حواشى العلامة محمد بن عبد الوهاب القزويني، ترجمة عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب، الطبعة الأولى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م.

ثالثاً: أسماء المراجع الأجنبية والمعربة:-

٤١- آدم متز: "الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى أو عصر النهضة فى

الإسلام"، ج٢، نقله إلى العربية محمد عبد الهادى أبو ريدة، الطبعة الثالثة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م.

٤٢- بارتولد: "تاريخ الترك فى العصور الوسطي"، ترجمة أحمد السعيد سليمان، مراجعة إبراهيم صبري، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٨م.

٤٣- بارتولد: "تركستان من الفتح العربى إلى الغزو والمغول"، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، طبعة الكويت ١٩٨١م.

44- Barthold: four studies on the history of central Asia, (liden Brill, 1962).

٤٥- فامبري: "تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر"، ترجمه من اللغة التركية د. أحمد محمود الساداتي، ويحيى الخشاب، مطابع شركة الإعلانات الشرقية.

46- -Frye: Bukhara the medieval achievement, (London, 1965).

47- Howorth: the Northern frontagers of china, journal of the royal asialic society, (London, 1989).

٤٨- كى لسترنج: "بلدان الخلافة الشرقية"، نقله للعربية بشير فرنسيس وكوركيس عواد، الطبعة الثانية، مطبعة مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

49- Nazim: the life and the time of Mahomed of ghazn of arcward by the late sir, tomes Arnold, (Cambridge, 1931).

٥٠- نيكلسون: "الصوفية فى الإسلام"، ترجمة نور الدين شريبة، الطبعة الثانية، الناشر مكتبة الخانجى بالقاهرة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

بحوث
فى التاريخ القديم



دراسة مقارنة بين
منهج ابن خلدون ومنهج المؤرخ الإغريقى ثوكوديديس

أ. د/ محمد حمدى إبراهيم

أ- منهج ثوكوديديس التاريخي:

لاحظت أن هناك تقاربا فى منهج البحث التاريخى عند كل من ثوكوديديس المؤرخ الإغريقى النابه، وعند ابن خلدون المؤرخ العربى ذى الصيت الذائع؛ ذلك أن منهج ثوكوديديس فى كتابة التاريخ يعتمد على المعاينة والمشاهدة، ولا يعول على السماع وتصديق الروايات الشفهية؛ إذ يعتقد هذا المؤرخ المدقق أن الناس فى عصره كانوا يتقبلون دون تفنيد أو تمحيص الروايات الشفاهية التى تتحدث عن أحداث فترات الماضى السالف، حتى ولو كانت هذه الأحداث قد وقعت فى مدينتهم أو فى بلدهم ذاته. ومن هنا يؤمن ثوكوديديس أن هناك أحداثا كثيرة -حتى من تلك الأحداث التى وقعت فى الحاضر أو فى الماضى القريب - قد طواها النسيان بفعل مرور السنين، ولم يعد الإغريق يتبينون مغزاها الحقيقى أو يدركون أسبابها على وجه اليقين، والسبب فى ذلك - فى تصوره - هو أن الناس لا تبذل من الجهد أو العناء سوى أقله فى التقصى والتدقيق وتوخى الحقيقة التى لا يسعى لنشدانها سوى قلة مصطفاة من البشر. (الجزء الأول، فصل ٢٠).

ويقول ثوكوديديس إننا لو افترضنا أن هناك من البراهين برهانا يمكن تصديقه أو التعويل على مصداقيته، فإن المؤرخ النابه ينبغى أن يربأ بنفسه عن الاعتقاد فى صحة ما سرده نفر من الشعراء - من أمثال هوميروس - بطريقة تزخر بالمبالغة وتنم عن التهويل، أو عن تصديق ما أورده المؤرخون السابقون - من أمثال هيرودوتوس - وصاغوه بأسلوب طلى جذاب يستميل الآذان ولكنه أبعد ما يكون عن إقناع العقول. ومن رأى ثوكوديديس أن الموضوعات التى ذكرها

هؤلاء الشعراء أو هؤلاء المؤرخون وأمثالهم لا يوجد برهان ينهض على صحتها أو ينم عن صدقها، كما أن معظم المعلومات الواردة فى أعمال هؤلاء قد تبدو خيالية أو مختلقة مع مرور السنين وتقادم العهد بها، حتى ولو اعتبرها البعض بفعل هذا التقادم معلومات يوثق فى صحتها. (الجزء الأول، فصل ٢١).

ويرى ثوكوديديس أنه لابد لنا من أن نستوثق من صحة ما قيل على لسان الشخصيات التاريخية، أو نسب إليها أنها قالته فى مؤلفات المؤرخين السابقين، سواء وهم على وشك خوض غمار الحرب أو بعد عودتهم من ساحتها ظافرين أو مدحورين. وهو يعلل ذلك بأنه وجد اختلافا بين ما سمعه بأذنيه من أقوال، وبين ما رواه البعض عنها ممن زعموا أنهم سمعوها مثله، وبالتالى فإن هؤلاء الزاعمين قد رووا هذه الأقوال إجمالا بمعناها الكلى دون تدقيق، فى حين أنه بوصفه مؤرخاً قد نقلها وسجل تفاصيلها فى تاريخه كما سمعت أذناه بكل دقة. (الجزء الأول، فصل ٢٢).

أما بالنسبة إلى الحقائق المتعلقة بما حدث فى الحروب البيلوبونيسية التى دارت رحاها بين أثينا واسبرطة، فنجد أن المؤرخ ثوكوديديس يربأ بنفسه عن أن يعرضها أو يسردها اعتمادا على الروايات الشفهية التى تناهت إلى أسماعه من الرواة، بل يجعل مناط اهتمامه أن يسردها بوصفه شاهداً عاين الأحداث. وهو يقول فى هذا الصدد إنه حينما يسمع رواية من الآخرين لا يصدقها من فوره – مهما بدت له معقولة أو محتملة – بل يقوم بإخضاع هذه الرواية للاختبار الدقيق فى كل جزئية من جزئياتها على قدر ما تسمح به الطاقة البشرية. وهذا يعنى أنه عند تعذر المشاهدة أو المعاينة ينبغى على المؤرخ تمحيص الروايات التى أدلى بها من شاهدوا الأحداث بأعينهم، ثم إخضاعها للاختبار والفحص والتفنيد قدر المستطاع. ويتطلب هذا الإجراء قدرا كبيرا من الجهد والعناء بغية التحقق من صدق الروايات، نظرا لأن من يزعمون أنهم شاهدوا الأحداث أو عاينوها بأنفسهم يتضاربون ويقعون فى الخطأ عند رواية كل واحد منهم للتفاصيل، وتأتى روايات بعضهم مخالفة لروايات البعض الآخر عن الحادثة ذاتها، ويعود السبب فى ذلك – فى رأى ثوكوديديس – إلى أن فريقا منهم ينحاز إلى صف حزب بعينه، أو لأن فريقا آخر منهم قد نسى شطرا من التفاصيل التى سبق له أن عاينها أو رآها رأى العين.

(الجزء الأول، فصل ٢٢).

ويذكرنا هذا بما ذكره المؤرخ اليهودى يوسيفــوس (القــرن الأول الميلادى) فى كتابه "ضد أبيون contra Apionem"، ومؤداه أن صدق الرواية التاريخية يكمن فى اتفاق جميع من قاموا بروايتها على تفاصيل الأحداث ذاتها، وبالتالى فإن ثوكوديديس يرى أن تضارب الروايات واختلاف الرواة عند سرد الحادثة نفسها إنما يعود إلى انحياز البعض منهم لطرف من الأطراف، أو يرجع إلى قوة ذاكرته أو ضعفها عند قيامه بسرد التفاصيل المتعلقة بهذه الحادثة. (الجزء الأول، فصل ٢٢).

ومن رأى المؤرخ ثوكوديديس أنه عند سماعنا للروايات المختلفة التى تلقى على مسامعنا قد نحس أن طبيعة العمل التاريخى الذى يفتقر إلى الخيال وإلى الجاذبية والطلاوة، تصبح سبباً فى بعده عن اهتمامنا، أو فى جعله قاصرا عن إمتاعنا. ولكن حيث إن الغاية من وراء تأليف الأعمال التاريخية هى الاهتداء إلى حقيقة ما حدث أو ما سوف يحدث، فإن الصدق يكون حينئذ أكثر أهمية من المتعة، كما أن جفاف الموضوع مع صدقه ودقته أفضل بالتأكيد من مجرد الإقناع اللحظي، الذى يجذبنا دون مراعاة للحقيقة التاريخية أو توخ للموضوعية، ومع ذلك فإن مثل هذا الإقناع سيظل متوافرا وكافيا؛ لأنه يعتمد على "قيمة خالدة ستظل باقية ما بقى الدهر ktêma eis aiei" (الجزء الأول، فصل ٢٢).

ولقد أدى تبنى ثوكوديديس لهذا المنهج إلى أنه ساق سببا وجيهاً لم يسبقه إليه أحد ولم يخالفه فيه أحد ممن كتبوا بعده، ألا وهو سبب نشوب الحروب البيلوبونيسية التى ظلت سنوات طويلة مستعرة بين أثينا واسبرطة، فهو يعتقد كمؤرخ أن تعاظم قوة الأثينيين قد أصبح مصدر خطر يتهدد الاسبرطيين، الأمر الذى دفع اسبرطة إلى التحرش بأثينا واختلاق الذرائع للشكوى والتبرم منها، والاستناد إلى هذه الذرائع كمسوغ لشن الحرب على الأثينيين. ومن رأى ثوكوديديس أن هذا السبب هو أهم الأسباب فى نشوب هذه الحرب الضروس، رغم أن أحدا من الفريقين المتصارعين كليهما لا يصرح به بالكلمات، وإن كان يضمره فى قرارة نفسه خوفا من التصريح به. (الجزء الأول، فصل ٢٣).

ب- منهج ابن خلدون التاريخي:

أما المؤرخ المتألق ابن خلدون فيعتقد أن كتابة التاريخ تحتاج من المؤرخ إلى معرفة وخبرة في ميادين عديدة، كما تحتاج منه إلى حصافة فكرية ومقدرة على التحقق وعلى الاستوثاق لكي يصل إلى الحقيقة المنشودة أو يهتدي إليها، وكذا لكي يتحاشى التردي في مثالب وأخطاء جمة. ومن رأى ابن خلدون أن المؤرخ يمكن أن يتنكب الصواب، وأن ينزلق إلى ارتكاب أخطاء واضحة للعيان، وإلى استنتاجات مغلوطة تبتعد به عن الحقيقة لو أنه تناول الأحداث من المصادر والسجلات، واقتصر دوره على سردها دون تحقيق أو تدقيق، ولو أنه لم يخضع وقوع هذه الأحداث للقوانين التي تتحكم في العادات والسياسات وطبيعة النمو والعمران، ولو أنه لم يقارنها بأحداث الماضي السابق أو أحداث الحاضر الراهن. ولقد بلغ من دقة ابن خلدون أنه انبرى لانتقاد بعض ما جاء في كتاب السياسة لأرسطو، إذ يقول إن ذلك الكتاب المنسوب إلى أرسطو في ميدان السياسة - وهو كتاب تمت قراءته على نطاق واسع بين الناس - يعتبر جزئياً كتاباً جيداً، ولكنه بوجه عام ليس شاملاً، ويفتقر إلى عديد من الحجج والبراهين، فضلا عن كونه مزيجا (غير متناسق) يضم بين جنباته أعمالا أخري. ويذهب ابن خلدون إلى أن بوسعه أن يفسر في مقدمته موضوعات مماثلة للموضوعات التي عالجها أرسطو ولكن بطريقة أفضل منه، وبدون الاستناد على الإطلاق إلى آراء أرسطو أو معتقداته. (المقدمة، ص ١٤٠).

ويرى ابن خلدون أن الإنسان قد كُرم على سائر المخلوقات وفُضل على كثير ممن خلقهم الله بالصفات التالية:

١- بالفضيلة والعقل وبمعرفة العلوم والفنون التي استطاع أن يكتسبها عن طريق التفكير.

٢- باحتياجه إلى حاكم قوي، لأنه بدون وجود مثل هذا الحاكم لا يمكن وجود مجتمعات (متحضرة).

٣- ببحثه الدائب عن وسائل العيش وسبل الحياة، مما يمكن أن يقيم أوده ويلبى حاجاته.

٤- برغبته فى أن يحيا وسط سائر المواطنين من بنى جلدته، وهو الأمر الذى يؤدى على المدى البعيد إلى إقامة مراكز للعمران الدائم فى شكل مدن أو بلدان (المقدمة، ص ١٤١ وما بعدها).

ويعتقد ابن خلدون أن التاريخ ليس مجرد سجل للأحداث والوقائع، كما أنه ليس سردا أو رواية لما حدث فى أزمان ولت وانصرمت، ولكنه علم لابد من دراسته وإتقانه؛ لأنه يمكننا من معرفة طرائق حياة القدماء وعاداتهم وأخلاقهم فى العصور الماضية. ولذا فإن التاريخ يجب أن يعالج التطور الاجتماعى والسياسى للشعوب وللناس على بكرة أبيهم، وألا يقتصر دوره على تناول أحداث تقوم بها حفنة من الأفراد.

جـ- آراء ثوكوديديس فى صراع القوى والصدام السياسي:

يذهب خبراء الاستراتيجية إلى أن تعدد القوى هو الذى يهيئ الفرصة لوجود الصراع، وأنه ينبغى أن يكون هناك تكافؤ - ولا أقول مساواة - بين هذه القوى فى فاعليتها. ويبينون أن الصراع حينما يستمر يسفر عن صدام، وبالصدام تتحطم إحدى القوتين المتصارعتين أو كلتاهما، بحيث يغدو لزاما عليهما معا بعد انتهاء الصدام أن يفكرا بعمق فى الصيغة التى سوف يتبناها كل طرف منهما من أجل نبذ الصراع أو إرجائه، وبالتالى إبعاد شبح الصدام حتى يتم تفادى الدمار الشامل.

ويرى المؤرخ ثوكوديديس أن جميع دويلات بلاد اليونان كانت فى مبدأ الأمر ترتدى الدروع وتتمنطق بالسلاح، والسبب فى ذلك أن مساكن المواطنين كانت غير محمية، واتصال الدويلات ببعضها كان غير آمن. وترتب على ذلك أنهم كانوا يعيشون حتى وهم يمارسون حياتهم اليومية بصحبة السلاح، مثلهم فى ذلك مثل الأجانب. ويعتقد ثوكوديديس أن الأثينيين - وهم بنو جلدته - كانوا أول من تخلص من حمل السلاح، وعندئذ تغير أسلوب حياتهم إلى الأسهل، وأدى هذا إلى انغماسهم فى الترف والرفاهية، وبالتالى توقف الكهول والمسنون منهم عن ارتداء الملابس الخشنة واستعاضوا عنها بالملابس الناعمة. ولكن ثوكوديديس يلاحظ أن قدامى الإغريق كانوا يعيشون حياتهم وفق طريقة مشابهة لطرائق حياة الأجانب barbaroi (أى الأعاجم الذين كانوا لا يتحدثون باللغة اليونانية) إبان تلك الحقبة

الزمنية الغابرة. (الجزء الأول، فصل ٦).

ثم تمكن سكان المناطق الساحلية فى بلاد اليونان من أن يحظوا بالثروة، وأن يعيشوا حياة مستقرة، ولجأ بعضهم إلى تشييد أسوار حول مدنهم كما فعل الأثينيون، فغدوا بالتالى أكثر ثراء مما كانوا عليه قبلا؛ وخضعت لسلطانهم الطبقات الأدنى وغدا أفرادها عبيداً لهم. ومع مرور الزمن استطاعت الدويلات الأقوى عدة والأوفر ثراء احتلال الدويلات الأضعف قوة والأصغر حجما أو أقل ثراء واستعباد مواطنيها. ويستنتج ثوكوديديس من هذا أن أجاممنون، قائد حملة الإغريق ضد طروادة، ما كان يتسنى له جمع مثل هذا الجيش الذى حاصر به طروادة لولا أنه تفوق على الناس كافة فى عصره، وبزهم فى القوة والمنعة. (الجزء الأول ، فصول ٨-٩).

ولكن بعد انصرام حقبة زمنية طويلة بدأت الأجيال الأصغر ترتاب فى مدى قوتها بالقياس إلى ما تحقق لها من شهرة، وبدا الأمر كما لو كان هناك اختلاف بين مظهر الدولة وحقيقتها. ويرى ثوكوديديس أن قلة عدد المحاربين الإغريق فى الحملة التى أرسلت إلى طروادة لا تعود إلى نقص الرجال، بل ترجع إلى نقص المال. (الجزء الأول، فصول ١٠-١١).

ثم يخبرنا ثوكوديديس أن بلاد اليونان ظلت بعد الحرب التى خاضتها ضد طروادة فى حالة تقدم نحو الاستقرار، ولكن قادة الدويلات اليونانية وزعماءها أدركوا أنه لن يتسنى لمدنهم زيادة قوتها لو أن الناس فيها ركنوا إلى الراحة، ومالوا إلى الاستقرار؛ نظراً لأن رجوع المحاربين الإغريق بعد انتهاء الحرب قد نجمت عنه اضطرابات وقلاقل وثورات هزت هذا الاستقرار. ولقد أدت هذه القلاقل والاضطرابات إلى قيام السلطات فى هذه الدويلات بنفى طائفة من المواطنين، الذين شقوا عصا الطاعة عليهم، أو تمردوا ضد القوانين السائدة؛ فأقدم هؤلاء المواطنون المنفيون على إقامة دويلات أخرى فى المناطق التى نفوا إليها، وباتوا يهددون المدن التى نفتهم خارج حدودها. وبعد انتهاء هذه المصاعب التى استمرت فترة زمنية طويلة نعمت بلاد اليونان بالسلام والاستقرار، وتوقفت الهجرات التى كانت تفد إليها من البلدان المجاورة، واتجهت الدويلات إلى إنشاء المستعمرات خارج

حدودها، لكى يستوطن فيها المواطنون الذين ضاقت بهم سبل العيش فى وطنهم الأم، ولكى يجدوا فيها الرزق الوفير والعيش الرغد. (الجزء الأول، فصل ١٢).

وبعد أن أصبحت بلاد اليونان أكثر ثراء ووفرة فى مواردها عن ذى قبل، وتدفقت إليها الأموال الوفيرة، بدأ عصر جديد عرف باسم عصر الطغاة tyrannoi ؛ ونعنى بهم الحكام المنفردين بالسلطة دون الاستناد إلى شرعية تبرر جلوسهم على العرش، أو الحكام الذين انقلبوا على الملوك الشرعيين واغتصبوا عروشهم. ولما أصبحت البلاد تحت حكم العواهل من هذه الطغمة – الذين كان أكثرهم من المستبدين، والقليل منهم من ذوى الفكر الراجح ومن محبى العدل والإنصاف – أخذ هؤلاء ينفقون الأموال الطائلة التى تراكمت لديهم من دخل الدويلات حتى يروجوا لحكمهم، ويقدموا المسوغ لشرعيته، حيث إن الحكم قبلهم كان فى أيدى النبلاء والملوك الذين كانوا يتوارثونه أبا عن جد وكابراً عن كابر (الجزء الأول، فصل ١٣).

ولقد اعتمدت قوة الإغريق فى معظم الدويلات على امتلاك الأساطيل ta nautika ـ وذلك على غرار ما فعلته مدينة أثينا ـ وذلك منذ زمن الحرب الطروادية وحتى وضعت الحروب الفارسية أوزارها؛ وكانت الدول التى تمتلك أسطولاً أكبر حجماً هى الدول التى تحظى بالسلطة الأقوى والنفوذ الأوفر، وهى التى تستحوذ بالمثل على الدخل المالى الأكبر، وبالتالى تصبح لها السيادة على ما سواها من الدويلات الأخرى. نظراً لأن هذه الدولة كانت تمخر بأسطولها عباب البحر، وتحتل ما تيسر لها من الجزر، ثم تخضعها لسلطتها أو تضمها إلى حوزتها. ولكن على النقيض من ذلك، لم يكن للإغريق باع يذكر فى الحروب البرية آنذاك، كما لم يكن لهم القدح المعلى فى تشكيل قوات المشاة إلا بقدر محدود، ولم يكن يتسنى للدويلة التى تملك جيشاً بريا فقط أن تحظى بقوة ذات بال، باستثناء مدينة اسبرطة التى ذاع صيتها فى العالمين، واكتسبت المنعة والقوة بسبب حب مواطنيها للحرب والطعان. ولكن الإغريق مع هذا لم يعتادوا أن يجهزوا جيوشاً متفرغة للمعارك والقتال، أو ليخوضوا بها حروبا ضد أى بلد أجنبى بعيد عن بلادهم – كما هو الحال مع جيوش الدول هذه الأيام – بغية احتلال هذا البلد أو استعماره أو ضمه لسلطانهم. فقد كان المواطن الأثينى يزرع فى وقت السلم الحقول، ولكن عندما

تنشب الحرب كان يترك الزراعة، ويرتدى عدته الحربية، ويمتطى صهوة فرسه، ويتوجه لميدان القتال. ولقد كانت جميع الحروب التى نشبت فى بلاد اليونان أو خاضتها الدويلات اليونانية ـ باستثناء حرب طروادة ـ حروبا إقليمية بين بعض المدن وبعضها الآخر, أو حروباً للدفاع عن النفس ورد غائلة المعتدين الغازين كما هو الحال فى الحروب الفارسية. (الجزء الأول، فصول ١٤ – ١٥).

وكان الحكام الطغاة الذين حكموا الدويلات اليونانية إبان القرنين السادس والخامس ق.م. حريصين على حماية أنفسهم وممتلكاتهم، وعلى ضمان بقاء الحكم فى أيدى عائلاتهم من بعدهم؛ ولذا فقد كانوا أميل للحذر واتخاذ الحيطة فى حكم البلدان التى نجحوا فى الاستحواذ على مقعد الحكم فيها، وترتب على ذلك أنهم لم يحققوا أى توسع يذكر فى عهدهم؛ لأن كل همهم كان المحافظة على ممتلكاتهم وعدم فقدانها فحسب، وإن كان طغاة صقلية خلال القرن الخامس ق.م. قد حازوا من القوة والثراء قدراً أكبر مما توفر لنظرائهم. وربما كان هذا فى رأينا هو ما دفع أفلاطون وغيره من الفلاسفة إلى خطب ودهم أو الإقامة فى بلاطهم لكى ينعموا بالمال الوفير أو النفوذ القوى. (الجزء الأول، فصول١٦ـ١٧).

أما مدينة اسبرطة، فقد كانت ـ بعد أن استقر بها المهاجرون الدوريون Doreis ـ ممزقة الأوصال بالعصبيات المتشاحنة وبالأحزاب المتناحرة لفترة زمنية أطول من أية دويلة إغريقية أخرى، ولكنها رغم ذلك استطاعت أن تنعم منذ بداية تاريخها بقوانين تشريعية ممتازة، ولم يستطع أى طاغية أن يثب فيها إلى كرسى الحكم كما حدث فى غيرها من الدويلات. ومن ميزات اسبرطة ـ فى رأى ثوكوديديس ـ أنها ظلت زهاء أربعمائة عام أو يزيد، منذ بداية بزوغ نجمها حتى نشوب الحروب البيلوبونيسية، تحظى بنظام حكم أوليجاركى (أى حكم القلة المصطفاة) مستقر ذى مواصفات واحدة تقريباً؛ وهذا هو ما جعل الاسبرطيين ـ فى تصور المؤرخ ثوكوديديس ـ أقوياء فى الحرب وفى الشكيمة، وذوى شهرة بين سائر الإغريق فى عصرهم. ونحن لا نندهش هنا من مدح المؤرخ ثوكوديديس لمن هم بالنسبة له بمثابة الأعداء، وذلك لأنه مؤرخ موضوعى يلتزم بالحياد على قدر الطاقة البشرية. ولو تطلب الأمر أن يثنى على أعدائه وينحى باللائمة على

مواطنيه وبنى جلدته ــ كما يقول المؤرخ الإغريقى النابه بوليبيوس Polybios ــ فإنه يفعل ذلك بدون أدنى تردد. (الجزء الأول، فصل ١٨).

وبعد نشوب الحرب الفارسية وزوال فترة حكم الطغاة فى بلاد اليونان حدثت موقعة برية شهيرة عرفت باسم موقعة ماراثون Marathôn، التى دارت رحى الحرب فيها بين الجنود الأثينيين وبين الفرس (الميديين)، وترتب على هذه الموقعة الفاصلة تولد إحساس لدى باقى الإغريق بالخطر المحدق بهم والمهدد لوجودهم كافة، ولذا انضم الاسبرطيون إلى صفوف الأثينيين وباقى الإغريق ونسوا خلافاتهم الشخصية ونزاعاتهم، وتوحدوا معاً فى تحالف ضد الفرس الغازين، وقاد الاسبرطيون ــ بغير غضاضة من جانب الدويلات الأخرى - الإغريق جميعاً فى هذا التحالف الذى قام ضد الفرس، وذلك بحكم أن الاسبرطيين بشهادة الكافة كانوا أقوى الإغريق وأشجعهم وأثبتهم جناناً. (الجزء الأول، فصل١٨).

وبفضل قوة اسبرطة البرية وقوة أثينا البحرية استطاع الإغريق ــ وهم فئة قليلة العدد ــ إنزال الهزيمة الفادحة بالفرس ــ وهم أصحاب جيش جرار عرمرم ــ وأجبروهم على الانسحاب من بلاد اليونان مدحورين مقهورين. ومن رأينا أن إحساس اليونان بالفخر ــ وبالذات مدينة أثينا ــ كان بسبب انتصار نظامهم الديمقراطي على نظام الفرس الأوتوقراطى، وبسبب اعتقادهم بأن هذا العامل هو الذى رجح كفتهم فى الصراع، وقلب موازين الأمور الراسخة فى استراتيجية الحروب قديماً، غير أن هذه الحرب الضروس ــ من ناحية أخرى ــ مزقت الإغريق أثناء نشوبها شر ممزق، وجعلتهم أشياعاً متفرقين، حيث انضم فريق منهم إلى صفوف الفرس فى حربهم ضد بنى جلدتهم، بينما حارب فريق آخر تحت لواء الإغريق ضد الملك الفارسي. وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، تفرق هؤلاء المنشقون، وحذا حذوهم المناصرون، وانقسموا إلى أحزاب يتربص كل منها بالحزب الآخر؛ فانضمت طائفة منهم إلى مدينة أثينا وانضمت الطائفة الأخرى إلى مدينة اسبرطة؛ وكانت كلتا المدينتين آنذاك أقوى مدينتين فى بلاد اليونان، حيث إن أولاهما وهى أثينا كانت تمتلك زمام البحر، وثانيتهما وهى اسبرطة تمتلك ناصية البر. ولقد دفع ذلك الوضع كل دويلة منهما إلى عقد تحالف مع الدويلة الأخرى

رغبة منها فى إزالة مخاوفها واستمالتها إلى صفها، وهرباً من الجهر بمعاداتها، ولكن الصراع الذى استمر بينهما واستفحل أمره أدى فيما بعد إلى نشدان الاستحواذ على الدويلات الأصغر، أو السيطرة عليها، أو الارتباط معها بتحالف لا تنفصم عراه رغبة منهما فى بناء إمبراطورية كبرى تماثل إمبراطورية الفرس أو لا تقل عنها إلا قليلاً. وهذا – فى رأيى – هو عين ما فعله الإسكندر الأكبر عقب انهيار الدويلات اليونانية وأفول نجمها أو زوالها، بعد أن أُثخنت بالجراح وبالحروب الأهلية. ولقد أدى هذا كله إلى انهيار التحالف الذى ظل قائماً بين أثينا واسبرطة سنين عدداً، كما أسفر عن نشوب حرب ضروس ظلت سجالاً بينهما، واستمرت ردحاً طويلاً من الزمن، وعرفت باسم الحروب البيلوبونيسية. (الجزء الأول، فصل ١٨).

ولقد كانت سياسة اسبرطة – إزاء الدويلات التى أخضعتها لسلطتها – تتلخص فى تركها لحالها دون التدخل فى شئون حكمها أو فى أمورها الداخلية (مثـــل نظام الكومنويلث commonwealth الذى طبقته انجلترا فى بعض مستعمراتها)، ولم تكن تفرض على هذه الدويلات الخاضعة لها أو المرتبطة معها بتحالف سوى أن تقوم بها حكومة أوليجاركية، على غرار الحكومة القائمة فى مدينة اسبرطة ذاتها. أما أثينا فكانت – على العكس من ذلك – تجبر الدويلات التى تؤول إلى سلطتها على دفع جزية مالية مقابل قيام أثينا بحمايتها والدفاع عنها. وقد يذكرنا هذا الأمر بسياسة الدولة الإسلامية إزاء البلاد التى فتحها المسلمون حينما خيرت الناس فيها بين الإسلام أو دفع الجزية. وقد ترتب على هذا الإجراء ازدياد موارد أثينا المالية بصورة أكبر مما كان سائداً قبل انعقاد التحالف أو الإخضاع للسيطرة. وقد يذكرنا موقف مدينة اسبرطة إزاء مستعمراتها بموقف الاتحاد السوڤيتى السابق، حيث إن كليهما كان يهتم فى المقام الأول بنشر أفكاره السياسية، وبث إيديولوجيته فى البلاد التى آلت إلى سلطته قبل أى أمر آخر؛ كما يذكرنا – فضلاً عن ذلك – بموقف فرنسا وإنجلترا من البلاد التى استعمراها، أو تلك التى كانت تابعة لهما؛ إذ كانت فرنسا – ولا تزال – تهتم بنشر فكرها ولغتها وثقافتها فى المقام الأول، بينما كانت انجلترا تهتم بالحصول على أكبر عائد مادى من مستعمراتها قبل أى هدف آخر.

د – آراء ابن خلدون فى تطور المجتمع والصراع السياسى وصراع القوى :

يرى ابن خلدون أن الجماعات البدوية أكثر قدرة على التطور وعلى اكتساب المعرفة من المجتمعات العمرانية أو المتمدينة، لأن الأخيرة اعتادت على الحياة الميسورة أو الفاخرة، وجنحت فى مسلكها إلى الإفراط، وبعدت عن حد الاعتدال الذى يحكم كافة المجتمعات البدوية البسيطة. وفضلاً عن هذا، فإن ابن خلدون يعتقد أن الجماعات البدوية أكثر جسارة وبسالة، مثلها فى ذلك مثل الحيوانات البرية عند مقارنتها بالحيوانات الأليفة أو المستأنسة. وفى تصوره أنه لو قدر لهؤلاء البدو أن يعيشوا فى المدن، وأن يستقروا بها أمداً من الزمن، فإنهم يفقدون بالتدريج خصالهم المميزة مثلما تفقد الحيوانات البرية خصائصها التى شبت عليها عندما يتم ترويضها. ومع ذلك فإن ابن خلدون يذهب إلى أن الهدف الذى يناضل الناس على بكرة أبيهم من أجل التوصل إليه هو تحقيق الحياة المتمدينة ونشر الثقافة فى ربوعها وأوساطها، ولكن هذا النوع من الحياة المرفهة الحافلة بالاسترخاء – فى رأيه – يؤدى مع مرور الوقت إلى الفساد، حيث إنه يرفع حدة التنافس بين الأفراد وبعضهم، أو بينهم وبين الدولة من ناحية، أو بين الدولة والدول المتنافسة معها من ناحية أخرى، ويؤدى فى النهاية إلى الصراع والتناحر والصدام وسفك الدماء والقتل والمهالك.(المقدمة، ص ص ٤٢ وما بعدها).

ويذهب ابن خلدون إلى ضرورة توافر عدة خصال متميزة فى الحاكم يأتى على رأسها سعيه الدائم لتحقيق السلوك الخير والمعاملات الطيبة بين الرعية؛ لأن البشر – فى رأيه – جبلوا على تجنب الخصال الشريرة المذمومة التى اكتسبوها من طبيعتهم البرية أو المتوحشة التى لا تزال كامنة بداخلهم، والتى لا تزال موجودة لدى فصائل الحيوان. ويأتى فى المرتبة الثانية بعد ذلك تعويل الحاكم على سيادة القوانين ونشر العدالة؛ لأن هذا المسلك يلقى الثناء عند الرعية، ويعتبر مسلكاً خليقاً بالحاكم العادل وجديراً بالعاهل المستنير. ويتصور ابن خلدون أنه لو غابت قوة الحكم عن أمة من الأمم فإن هذه القوة تذهب إلى أمة أخرى سواها شريطة أن تحظى الأمة الأخيرة بما أطلق عليه ابن خلدون اصطلاحاً العصبية، وهو يعنى بهذا المصطلح مؤازرة الفكر الجماعى لبنى الجلدة. وهو يخبرنا فى هذا الصدد أنه كان

من عادة الحكام – بعد فتح الأمصار، ودحر قوات الدول المنافسة، وتكوين الممالك أو الإمبراطوريات – أن ينغمسوا فى الترف والرفاهية، وأن هذا من شأنه أن يؤدى بهم إلى التخلى عن قدر كبير من سلطاتهم للآخرين كى يتولونها نيابة عنهم. وبالتالي، فإن هذا يسفر عن فقدهم للقوة التى كانت سمة لحكمهم، ومن ثم فإنهم يفقدون الحكم ذاته. ذلك أن الممالك تضعف ويذهب ريحها عندما تنغمس فى الملذات الحسية أو تركن لحياة الترف والرفاهية، والأمثلة على ذلك قائمة أمام أبصار العرب المسلمين، وممثلة فى ممالك الفرس والروم والرومان وغيرهم من أصحاب الممالك والإمبراطوريات، التى بادت واندثرت بعد أن كانت تبسط سلطانها على العالمين. ومن رأى ابن خلدون أن المدحور أو المهزوم يميل بطبعه إلى محاكاة الغزاة القاهرين والفاتحين المنتصرين فى كل منحى من مناحى الحياة، سواء فى الملبس أو فى الزى أو فى العادات والتقاليد أو فى أنواع الأسلحة المختلفة وما إلى ذلك. ويستشهد ابن خلدون فى هذا الصدد بقول مأثور، هو: "الناس على دين ملوكهم"، ومن رأى هذا المؤرخ النابه أن الدول تسقط حينما تهزم، أو حينما يتم إخضاعها وتدمير قوتها وكسر شوكتها. (المقدمة، ص ص ٧٢ وما بعدها).

وأهم ما يميز القبيلة – فى رأى ابن خلدون – هو العصبية بكل تجلياتها، والعصبية عنده مؤسسة على الشعور بالتفوق الخلقى والامتياز الروحى للبدو الرحل من سكان الصحراء، حيث إن هؤلاء البدو الرحل معتادون على الحياة الشاقة العنيفة، وهم دائمًا على استعداد لصد الهجوم الذى يشن عليهم ما بين الفينة والأخرى؛ وبالتالى فإن طبيعتهم تكون خشنة، ويميل سلوكهم فى أغلب الأحيان إلى الفظاظة والعنف. ويرى ابن خلدون أن سجاياهم هذه لا تلبث أن تتوارى أو تنوى عندما تستقر القبيلة فى مكان ما وتتخذ منه مقراً ثابتاً أو وطناً دائماً. (المقدمة، ص ١٠٩).

وعندما تتبنى القبائل البدوية عادات مستقرة، وتكون أممًا أو دولاً، فإن العصبية تستمر بين ظهرانيهم بفعل احتياج الأفراد إلى القيام بوظائفهم وواجباتهم التى يفرضها عليهم الحاكم، خاصة لو كان هذا الحاكم ذا قبضة قوية باطشة، أو يجنح فى حكمه إلى الاستبداد والانفراد بالسلطة، ولكن لو أن الحاكم تبنى فى سياسته مبدأ التمسك بالعدالة وتوخى تحقيقها بين الرعية فإن خصال الأفراد المتمثلة

فى الحرية والشجاعة تتدعم وتترسخ، فتكتسب الدولة بذلك القوة والمنعة. (المقدمة، ص ١٢٣).

ويرى ابن خلدون أن الدولة تقوم على مبدأين هما: العصبية، والدين، ذلك أن رسالة الرسول عليه الصلاة والسلام قد أوجدت قوة ملزمة قاهرة، وخلقت شكلاً من أشكال العصبية أدى فيما بعد إلى قيام الدولة الإسلامية. ويعتقد ابن خلدون – رغم ذلك – أن الدين مجرد واحد من القوى الملزمة التى تساعد على إنشاء الدولة، أما المُلك – سواء أكان دنيويًا أو شبه دنيوى (لاحظ أنه لم يقل دينيًا) – فهو الذى يشكل أساس هذه الدولة. وأما العصبية فلابد أن تكون نوعًا من الإحساس بالاتحاد، وأن تؤدى إلى الإصرار على العمل مع الجماعة من أجل هدف محدد، وأن تمضى قدماً تجاه إيجاد أمة قوية حرة. ويمكن إرجاع العصبية فى صورتها الأولى إلى الأسرة أو إلى القبيلة التى تجمع بين أفرادها علاقة الدم، ولكن مع نمو القبائل وزيادة رقعة أراضيها ومع ميلاد الدول فإن كل مجموعة من المواطنين تشرع فى الاتحاد، ثم الانضمام إلى تجمع ذى مشاعر مشتركة بحيث يختلف عن أى تجمع أو أية جماعة أخرى، ولكن يصبح من المحتم على هذه العصبيات نتيجة لذلك أن تتصارع، ثم تتصادم وتتقاتل، وهنا يصل الأمر إلى انتصار عنصر واحد من عناصر الدولة على بقية العناصر الأخرى، فيقوم هذا العنصر المنتصر ببسط سيادته ونفوذه على الدولة بأسرها. (المقدمة، ص ١٢٥ وما بعدها).

ومن الآراء السديدة التى توصل إليها ابن خلدون – وهى كثيرة – أن العبودية تقتل الروح، وتبدد الملكات التى يحظى بها الأفراد من بنى البشر، وهنا أتذكر قولاً مأثورًا فى هذا الصدد مفاده أن من يستعبد يفقد نصف روحه فيهون عليه النصف الآخر. ويذهب ابن خلدون إلى أن الإنسان يود بطبعه أن يكون رئيسًا أو حاكمًا، أى سيدًا، ولكنه حينما يتم إخضاعه أو استعباده يصبح فى حالة إحباط تام ويأس مرير. ومن رأى ابن خلدون أنه رغم عنف الأعراب أو البدو الرحل ورغم قوة شكيمتهم إلا أنهم بحاجة إلى الثقافة المستمدة من حضارات الأمم الراقية؛ وذلك لأنهم فى حياتهم البدوية الخشنة لا يحظون بأى نوع من الفنون أو الآداب أو العلوم أو النظام السياسى الراسخ. ومن رأيه أيضا أن الأمم تمتلك زمام الحكم عن طريق

التزود بالقوة المادية، وعن طريق الانتصار على الخصوم فى الحرب، ولكن حينما تتحقق لهذه الأمم المنعة وتحظى بالنصر فإنها تصل إلى نهايتها؛ لأن من يمثلون القوة فيها يركنون إلى الدعة والاسترخاء، ويفضلون التمتع بالترف والرفاهية، إلى أن تدول دولتهم، ويسقط سلطانهم، ويفقدون كل شيء. (المقدمة، ص١٣٠) .

والدولة عند ابن خلدون تنشد المجد فى المقام الأول، وتحاول جاهدة أن تحوزه بشتى الطرق، ولذا فإنها تقدم من أجل الحصول عليه على محاربة الأمم الأخرى أملاً فى هزيمتها والظفر بالسلطان والعرش؛ وبالتالى فإن الناس فى هذه الدولة يعتبرون الموت ثمنًا زهيدًا فى سبيل تحقيق أهدافهم والظفر بهذا المجد المنشود، ولكنهم حينما يفلحون فى تحقيق مآربهم ويحوزون المجد المأمول يصبحون أكثر تراخياً وطراوة، فيميلون إلى الكسل ولا يطمحون فى مزيد من الغزوات، ويتقاعسون عن شن الحروب؛ ثم يشب الجيل الثانى من بعدهم وهو ينتهج النهج ذاته، فيبدأ فى تجنب ملاقاة الموت بأى ثمن، حيث إن الأفراد فيه يخشون فقد ثرواتهم أو مواردهم التى تراكمت أو نفوذهم لو أنهم لاقوا فى ساحة الوغى الموت وذاقوا كأس الحمام، وكلما ازدادوا غنى وثراء كلما غدوا أوهن وأضعف، حيث إن فقيرهم يغدو أكثر احتياجاً، أما الأثرياء منهم فينغمسون فى الملذات ويستمتعون بثرواتهم حتى الثمالة، ثم تدرك الأجيال التالية لهذا الجيل أن احتياجاتها قد صارت أكبر بكثير من مواردها، وهنا يبدأ أولو الأمر فى هذه الدولة فى فرض مزيد من الضرائب للحصول على أوفر قدر من المال لتلبية الاحتياجات المتزايدة للناس. ومعنى هذا أن الترف والرفاهية يجلبان مزيدًا من الضعف والخور، إذ يتقلص الجيش، وتنكمش القوة، ويتضاءل العزم، ويتجرأ الناس على الحكومة ولا يخشونها، ولا يهابون القوانين، فضلاً عن أن الدول المجاورة تشرع فى الانقضاض على هذه الدولة والهجوم عليها إلى أن تتمكن من دحرها والقضاء عليها. (المقدمة، ص ١٣٢) .

ومن رأى ابن خلدون أن الرفاهية تنزل أبلغ الضرر بالأخلاقيات؛ لأن النفس الإنسانية حينما تغدو فريسة للترف تصبح أكثر ميلاً للشر والحقد والحسد، وأشد انغماسًا فى حياة التراخى والكسل، وبالتالى أشد بعدًا عن البسالة والشجاعة؛ لأن

الراحة تضعف من البأس، وتؤثر بالسلب فى المنعة، ذلك لأن الدولة – مثلها فى ذلك مثل الإنسان – تحظى بعمر أو أجل محدود. ومتوسط عمر الإنسان – كما يقول ابن خلدون – أربعون عامًا، وهو ما نسميه بالجيل، أما متوسط عمر الدولة فهو ثلاثة أجيال، أى حوالى مائة وعشرين عامًا. (المقدمة، ص ١٣٥).

وكل قوة أو ملك له خمس مراحل، هي:

١- مرحلة النشأة: وهى مرحلة البداية الأولى التى يطمح فيها الناس إلى الفتح والغزو لتكوين ملكهم أو دولتهم.

٢- مرحلة النمو: وهى المرحلة التى يفلح فيها الحاكم فى تحقيق القوة وامتلاك الأرض، فيشرع فى إخضاع مواطنيه وفى التقاتل معهم من أجل تجميع السلطة كلها فى شخصه وحده، وهو فى سبيل تحقيق هذا الهدف يحابى البعض وينحاز لهم، ويعادى البعض الآخر أو يتحامل عليهم.

٣- مرحلة الازدهار: وهى مرحلة الوصول إلى أوج الترف، حيث ينغمس الناس فى حياة الترف، ويؤثرون الملذات المادية على ما سواها، ويجنون ثمار ازدهار الملك. وفى هذه المرحلة يتم تشييد المبانى الضخمة السامقة، وصرف النفقات الطائلة على المشروعات العمرانية من أجل أن يحظى الحاكم بمظهر ينم عن المجد والسؤدد، فيكتسب رضا رعيته وينال إعجابهم.

٤- مرحلة التدهور: وهى مرحلة التشبع، وفيها يركن الناس إلى ضمان سلامتهم الشخصية قبل كل شيء، فيهابون الأعداء؛ وفيها يقلد الحاكم أسلافه من العواهل العظام، ولكنه لا يكون من البسالة والإقدام بحيث يقوم على اتخاذ إجراءات أو خطوات مخالفة لمنهجهم.

٥- مرحلة السقوط: وهى آخر المراحل حيث يسود الإسراف والتبذير، وفيها يمضى الحاكم قدمًا فى تبديد ما آل إليه من ثراء عن طريق أسلافه، وفى بعثرة الأموال والموارد التى تعبوا وكدوا حتى حظوا بها، والتى اقتصدوا فى إنفاقها بعد حيازتها، وهى مرحلة مدمرة مهلكة؛ لأنها تجلب معها التدهور وتجر المجتمع إلى الدمار والتهلكة. (المقدمة، ص ١٤٠ وما بعدها).

ويعتقد ابن خلدون أن الحرب خصلة مميزة للبشر منذ بداية وجودهم فى الحياة، وهو يتفق فى هذا الرأى مع ما قال به المؤرخ الإغريقى ثوكوديديس كما أسلفنا؛ لذا فهو يبين لنا أن البشر بطبعهم يحبون الانتقام، ويحبذون التمييز العرقي. ومن رأيه أن هناك أسبابًا كثيرة لميل البشر إلى الانتقام، منها الغيرة والتنافس والحسد والغضب والرغبة فى الاستحواذ على السلطة. والحروب عنده نوعان؛ الأول: حروب شريرة تقوم من أجل الطمع والرغبة فى الاستحواذ على المال والسلطة، والثاني: حروب قوامها الجهاد والدفاع المشروع عن النفس وعن كل ما هو عادل أو يتعلق بالدين. ويتصور ابن خلدون أن الحاكم حينما يفشل فى الحفاظ على قوته يصبح هاجسه الأوحد هو ممارسة سلطته بأية وسيلة، فيلجأ إلى الظلم من خلال طرائق مختلفة. والظلم – فى نظر ابن خلدون – هو نقيض العدل، أما العدل فهو القانون الذى منحه الله سبحانه وتعالى للبشر. ويرى ابن خلدون أن ممارسة الظلم – مع مرور الزمن – تجلب على الدولة الدمار، وتجر عليها الوبال، وكأنها كارثه ماحقة ، فيؤدى هذا إلى هزيمة الدولة هزيمة نكراء. والظلم لا يقتصر عند ابن خلدون على سلب المال من المواطنين عن طريق العنف والبطش والقسوة، بل إنه قد يوجد بسبب فرض ضرائب غير عادلة على الناس، أو بسبب اغتصاب السلطات لممتلكات المواطنين دون وجه حق ودون الاحتكام إلى الشرائع والقوانين، أو بسبب غش الآخرين والتدليس عليهم بغية سلب ممتلكاتهم، أو بسبب الاحتكار واستعباد الأفراد وجعلهم يعملون سخرة دون أجر. ومن هنا فإن الناس يشرعون – إزاء ذلك – فى السخط والتذمر ويصبحون أكثر عدوانية وأشد قسوة وعنفاً. (المقدمة، ص ص ١٤٥ وما بعدها).

ويذهب ابن خلدون إلى أن المرحلة الثانية (من المراحل الخمس سالفة الذكر) التى تمر بها الدولة أفضل بكثير من المرحلة الثالثة، وذلك لأن ذكرى السنوات المزدهرة للدولة تكون خلالها ما زالت ماثلة فى الأذهان، ولأن الناس يكونون قد أمضوا خلالها شطرًا من أعمارهم فى حقبة التقدم والازدهار، ولكنهم يغدون فى المرحلة الثالثة أكثر ليونة وطراوة، فيضطر الحاكم إلى إحاطة نفسه بالعبيد والمرتزقة والمعتقين الوافدين من أقطار أخرى، ويجزل لهم العطاء بسخاء بغية حماية الدولة من السقوط فى أيدى الأجانب، وإزاء ما يشهده من تراخى المواطنين

فى الدفاع عن دولتهم بسبب حبهم للترف وانغماسهم فى الملذات؛ وسرعان ما تأتى النهاية وتسقط الدولة فريسة لكل هؤلاء الطامعين. (المقدمة، ص ١٤٨).

أما الأمم فتتميز أيضًا – وفقا لرأى ابن خلدون – بأربع مراحل فى تطورها، هي:

١- مرحلة التأسيس: وفيها يشارك المواطنون بكل ما يملكون من قوة فى بناء الدولة.

٢- مرحلة القيادة: وفيها يستتب الأمر للحاكم، فيمارس سلطته على الناس فى الأمة.

٣- مرحلة الحكم الاستبدادي: وفيها تتركز جميع المسئوليات والسلطات فى يد شخص واحد لا سواه هو الحاكم، وهذه المرحلة تعرف فى عصرنا الحديث باسم مرحلة الحكم الأوطوقراطي.

٤- مرحلة التدهور: وفيها يشرع الناس إما فى الانغماس فى حياة الترف والرفاهية، ويركنون إلى الدعة والتراخي، أو يهبون ساخطين للمطالبة بحقوقهم التى سلبت منهم.

ويذهب ابن خلدون – فى هذا الصدد – إلى أن المجتمع يحتاج إلى حاكم لفرض القوانين، ولإرساء العدالة بين الناس بغية أن يكون حُكْم هذا الحاكم مؤسسًا على القوانين البشرية المتفق عليها بين الناس، أو قائمًا على الحق الدينى وعلى قانون السماء. (المقدمة، ص١٥٠).

هـ- مقارنة بين المنهجين :

وبعد عرض آراء كل مؤرخ من المؤرخين على هذا النحو الموجز، فإن لنا أن نعتقد أن هناك نقاطاً للتشابه تجمع بين كليهما فيما يخص منهج البحث التاريخي، فالمؤرخ ثوكوديديس يرى وجوب تحرى الدقة وعدم الاستناد إلى الروايات الشفهية غير الموثقة، وتمحيص كل هذه الروايات وتحقيقها فى حالة الاعتماد عليها. ولكن ابن خلدون يتجاوز هذا المنهج دون أن ينسخه بطبيعة الحال، ولكنه يبين فى ألمعية

الشروط الواجب توافرها فى المؤرخ، ويلمح إلى أهمية تكوينه الثقافى وحصافته الفكرية، ويؤكد على ضرورة توافر مقدرته على التحقق والتوثيق؛ كما يبين ابن خلدون أن التاريخ علم لابد فيه من التزود بالدراسة والثقافة، حيث إنه علم يشمل التطور الاجتماعى والسياسى ولا يقتصر على الأحداث الفردية. وبالتالى فإن ابن خلدون ينال القدح المعلى على زميله الإغريقي، وهذا من طبائع الأمور بفعل الحقبة الزمنية الطويلة التى تفصل بين المؤرخين، وبفعل ازدياد المعرفة وتراكمها، وبفعل الخبرة الذاتية والحصافة الفكرية التى أتيحت لابن خلدون على وجه الخصوص.

ولقد اطلعنا فيما سبق على آراء كل مؤرخ منهما فى تطور المجتمع والصراع السياسى وصراع القوى، واتضح من ذلك العرض أن هناك مواطن يتفق فيها المؤرخان على أن القوة بحاجة إلى متانة الاقتصاد، وأن التوسع ينجم عنه الثراء، وأن ازدياد القوة يؤدى إلى الصدام، وأن الصراع يأتى نتيجة لاستمرار هذا الصراع. ويذهب ثوكوديديس فى هذا الصدد إلى الإقرار بأن تفوق النخبة السياسية ينجم عنه الانتصار فى ميدان القتال، وإلى أن امتلاك الأسطول أقوى من امتلاك الجيوش البرية وحدها، وإلى أن الزعامة تتأتى لمن يحظى باستقرار سياسى طويل الأمد. وفضلاً عن ذلك، فإن ثوكوديديس يعتقد أن القوة المحلية أو الإقليمية لابد لكى تتنامى أن توسع حدودها، وتمد أراضيها، وتسيطر على ما سواها من قوى أصغر أو أضعف منها.

أما مؤرخنا النابه ابن خلدون فيرى – كما أسلفنا – أن الدولة تقوم على مبدأين هما: العصبية والدين، وأن العصبية تكون على أقوى نحو حينما ترتبط بالبداوة، وأنها تقل كلما زادت المدنية وانتشرت الرفاهية بين الناس. وهناك رؤى واجتهادات خلاقة توصل إليها ابن خلدون، منها أن العبودية تقتل الروح، وأن الحاكم يزداد بطشًا كلما ضعفت قوته، وأن الناس يزدادون ضعفاً وخوراً واستمتاعاً بالملذات كلما ازدادت مواردهم، وأنهم قد يصبحون أكثر عنفاً وقسوة وميلاً إلى التمرد كلما زاد الظلم والاستبداد، وكلما تم فرض مزيد من الضرائب على نحو يتسم بالتعسف والقهر. كما بين هذا المؤرخ العظيم أن دورة حياة الدولة من علو

النجم والازدهار لا تزيد فيما ندر عن ثلاثة أجيال؛ أى مائة وعشرين عاماً. وهناك آراء أخرى سديدة صائبة تم ذكرها فيما سبق لا نجد مدعاة لتكرارها.

ومن رأينا أن هذه الآراء القيمة التى توصل إليها ابن خلدون عن ازدهار الأمم وعلو شأنها، ثم عن أفول نجمها وانهيارها، إنما هى آراء لم يتوصل إليها أحد قبله من المؤرخين، أو يتسنى له عرضها على هذه الصورة الرائعة، وأنه بفضل رؤيته الثاقبة التى تجمع بين الدين والسياسة والاقتصاد وعلم الاجتماع قد نال القدح المعلى على ما سواه. وما كان قصدنا هنا من مقارنته بالمؤرخ الإغريقى ثوكوديديس إلا الرغبة فى تبيان مواطن تميزه فى مقابل هذا المؤرخ العظيم الذى نال الثناء قديماً، وظل موضع إعجاب على مر العصور، واعتبرته الحضارة الأوروبية واحداً من أعظم المؤرخين فى العالم. من الإنصاف إذن أن يعرف الباحثون الغربيون المعاصرون حقيقة منزلة ابن خلدون، ومقدار قامته السامقة، حتى ينال ما هو خليق به من تكريم وتقدير. والحق إن ابن خلدون يعد بمنهجه هذا أحد المؤرخين ذوى الكعب العالى فى العالم بأسره؛ لأنه جعل موضوع بحثه – كما ذكرنا – نشأة المجتمعات الإنسانية ونموها وازدهارها ثم تدهورها وسقوطها، ووضع قانوناً للازدهار والتقدم، وكذا للانهيار والسقوط.

ويرجع الفضل إلى ابن خلدون فى أنه عدد أنواع الحكومات، ووضع أسساً يقوم عليها النقد التاريخي، كما تكمن عظمته فى أنه فرق كمفكر بعمق بين المجتمعات العمرانية (أى المدنية) والمجتمعات البدوية (ولا نقول البدائية)، وبين لنا اختلاف طرائقها فى الحياة، فضلاً عن أنه كان أول من صك لفظ العصبية (= الفكر الجماعي)، وجعله دلالة على القوة الدافعة أو المحركة للنشاط السياسى والإنسانى على السواء. ولقد وصف ابن خلدون الإسلام بأنه حضارة إنسانية ذات رؤية متميزة للعالم، فظل هذا الوصف لصيقاً به حتى الآن، كما دعا إلى وجوب تفاعل العوامل الاقتصادية والعسكرية والثقافية والدينية كل منها مع الآخر، وبين أنها مرتبطة فيما بينها. كذلك فرق بين الدولة المؤسسة على احتياج بشرى إلى وجود الترابط الاجتماعي، والدولة القائمة على نظرية مؤداها أن الرسول هو واهب القوانين السماوية، واعتبر بذكاء أن المُلك الإسلامى قام على كل من الشريعة

السماوية والقوانين البشرية سواء بسواء.

ومن أجل هذا كله يزداد اهتمام الباحثين فى العالم - شرقه وغربه على السواء - بفكر ابن خلدون الذى يجمع فى شخصه بين المؤرخ المدقق الموثق صاحب النظرية، وبين عالم الاجتماع الفذ الذى أسس علمًا لم يكن معروفاً قبله على هذا النحو من التدقيق والتنظير.

عروض الكتب

" الدولة العثمانية تاريخ وحضارة"

إشراف وتقديم: أكمل الدين إحسان أوغلي

(عرض ونقد)

شيماء فرغلي

الكتاب الذي نعرض له هو المجلد الأول من كتاب " الدولة العثمانية تـــاريخ وحضارة" وهو الجزء الخاص بالدولة والمجتمع والاقتصاد. صدر هذا الكتاب عن مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية بإستانبول سنة ١٩٩٩م في ٨٩٠ صفحة من القطع المتوسط. وقام بالإشراف والتقديم له الأستاذ الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلي الأمين العام الحالي لمنظمة المؤتمر الإسلامي. وقد صـــدر الكتـــاب أولا باللغة التركية ثم قام بترجمته إلى العربية الأستاذ صـــالح ســـعداوي ونـــشره المركز نفسه.

وهذا الكتاب ثمرة جيدة لفريق عمل متكامل من ثمانية باحثين ينتمون لخمس جامعات تركية في تخصصات مختلفة تتوزع على العلوم والآداب والحقوق والعلوم السياسية. والقاريء للكتاب يستشعر الترابط والوحدة الجامعة لأبوابه وفصوله وفقا لمنهج واضح المعالم.

ينقسم الكتاب إلى سبعة أبواب في ثمانية وعشرين فصلا. تناول الباب الأول بفصليه التاريخ السياسي للدولة العثمانية. وقام بكتابته أستاذين بكلية الآداب بجامعة إستانبول وهما الدكتور فريدون آمجن، والدكتور كمال بكديللي، كتـــب الأول عـــن التاريخ السياسي منذ قيام الدولة حتى معاهدة قينارجـــة الـــصغرى ســـنة ١٧٧٤م، وأكمل الثاني هذا التاريخ حتى انهيار الدولة العثمانية وإلغاء الخلافة الإسلامية فـــي مايو ١٩٢٤م.

ثم انتقل الكتاب إلى بابه الثاني الخاص بنظم الدولة العثمانية. تعرض في فصلٍ لنظم السراي العثماني، وفي فصل آخر للتشكيلات المركزية، وفي الفصل الثالث تطرق إلى نظم الإدارة في الإيالات خارج إستانبول، أما في الفصل الأخير من هذا الباب فكان عن الهيئة العلمية والنظام القضائي، ومظاهر الضعف في هذه الهيئة والمحاولات التي جرت لإصلاحها.

أما النظم الإدارية والعسكرية والقانونية فكانت الموضوعات التي تضمنتها الأبواب الثلاث التالية؛ تناول النظم الإدارية فيها الدكتور إيلبر أورطايلي الأستاذ بكلية العلوم السياسية بجامعة أنقرة، وتحدث عن النظم العسكرية الدكتور عبد القادر أوزجان الأستاذ بكلية العلوم والآداب بجامعة المعمار سنان. وثالث هذه الأبواب ـــ النظم القانونية في الدولة العثمانية ـــ كتبه الدكتور محمد عاكف آيدين الأستاذ بكلية الحقوق بجامعة مرمرة.

وبقي من هذا الكتاب المهم بابان وهما: الباب السادس عن المجتمع العثماني وكتبه الدكتور بهاء الدين يدي يلديز الأستاذ بكلية الآداب بجامعة حاجت تبه. والباب السابع والذي تم تخصيصه عن البنية الاقتصادية في الدولة العثمانية كتبته الدكتورة مُباهات كوتوك أوغلي الأستاذة بكلية الآداب بجامعة إستانبول.

وبعد هذا العرض السريع لموضوعات هذا المجلد من الكتاب يتبين أنه يُعد موسوعة علمية عن تاريخ الدولة العثمانية وحضارتها، من كافة الجوانب السياسية والعسكرية والإدارية والقانونية والاجتماعية والاقتصادية وغير ذلك. وهو بهذا الشكل يسد فراغًا كبيرًا في مجال الدراسات العثمانية.

ومما يُضاف لمزايا الكتاب الواضحة ذلك الثبت الزمني الدقيق المرفق به والخاص بأحداث التاريخ العثماني منذ فاتحة التاريخ العثماني سنة ١٢٩٩م إلى نهاية العثمانيين وإلغاء الخلافة الإسلامية وطرد العائلة السلطانية خارج البلاد في الثالث من مارس سنة ١٩٢٤م.

وأيضًا من الواجب التنويه بأهمية الصور والرسوم والمنمنمات المدرجة في الكتاب وهي تقرب من مائة وخمسين صورة؛ و قد لا نجدها في الكتب الأخرى عن

الدولة العثمانية، حيث أن معظمها تم تصويره من المتاحف والأرشيفات التركيـــة؛ والتي لا يتيسر للباحثين ــ خاصة العرب ــ الاطلاع عليها. هذا بالإضــافة إلــى الخرائط العديدة والجداول والرسوم البيانية التي تتخلل مباحث الكتاب المختلفة.

وبالإضافة إلى ذلك هناك أمر في غاية الأهمية لمن يريد التصدي لدراسة أي موضوع خاص بتاريخ الدولة العثمانية، وهو تلك القائمة الضافية عن مراجع هــذا التاريخ والموجودة بالكتاب في أكثر من ستين صفحة؛ فهي تُعد خير مرشد ودليــل للباحثين في الدراسات العثمانية.

وبالرغم من كل مزايا الكتاب التي أشرنا إلى بعضها في عجالة إلا أن هناك ملاحظة يسيرة عليه وهي أنه بالرغم من أهميته إلا أنه وقع فــي فــخ المركزيــة التركية؛ فلم يرجع إلى أي من الكتابات العربية العديدة عن الدولة العثمانية ســواء القديمة منها ككتابات ابن إياس وابن أبي السرور البكري وأحمد شلبي عبد الغنــي والجبرتي، أوالحديثة منها ككتابات محمد فريد وشفيق غربال وشكيب أرسلان وعبد العزيز الشناوي ومحمد أنيس وعبد الرحيم عبد الرحمن وعبــد الكــريم رافــق... وغيرهم.

وهذا الأمر قد يعكس عدم متابعة الأتراك ومعرفتهم بجهود المدارس العربية المختلفة حول التاريخ العثماني، والذي قد يرجع في رأينا المتواضــع إلــى عــدم التواصل العلمي بين الجانبين التركي والعربي من ناحية، ومن ناحية أخرى فــإن حاجز اللغة وصعوبة الإمكانات المادية دفع بالكثيرين من الباحثين العــرب إلــى الاقتصارعلى التاريخ المحلي لبلادهم فقط مثل تاريخ مصر أو الشام فــي العــصر العثماني دون وجود تخصص عميق في تاريخ الدولة العثمانية ذاتها وهو محــور اهتمام المؤرخين الأتراك؛ الأمر الذي أدى إلى ضعف الصلات الأكاديميــة بــين الجانبين، ويبدو أن هذا الأمر ربما شهد تحولات مهمة في السنوات الأخيرة عكستها الندوات العديدة التي تعاون فيها الباحثون الأتراك والمصريين والعرب بشكل عام.

وهذه الملاحظة السابقة لا تقلل من دور الكتاب الذي بين أيدينا من حيث كونه معلمًا واضحًا للقدرات الكبيرة للمدرسة التركية في التأريخ للدولة العثمانية، ولعــل ترجمته للعربية في السنوات الأخيرة يكون جسرًا و نقطة انطلاق جديدة للدراسات

العثمانية في إحداث التواصل المنشود بين المؤرخين العرب والأتراك. وهو الأمر الذي يُحمد لمركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (إرسيكا) في إستانبول ومؤسسه الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو.

وفي نهاية هذا التعريف الموجز بالكتاب نرى أنه إذا تم رصدٍ ما لأهم الكتب التي أصدرها الأتراك عن الدولة العثمانية لاشك أن هذا الكتاب سيأتي في صـــدارة هذه الكتب؛ لما توفر له من ميزات قلما نجدها اجتمعت في كتاب واحد.

على هامش المستبد العادل

(عرض ونقد لكتاب الدكتور محمد عفيفي)

حسام احمد عبد الظاهر

يُعد كتاب "المستبد العادل ـ دراسة في الزعامة العربية في القرن العشرين": تأليف الدكتور محمد عفيفي، أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر في جامعة القاهرة واحدًا من أهم الكتب الصادرة مؤخرًا. صدر الكتاب عن المجلس الأعلي للثقافة في مصر سنة ٢٠٠٨م، ويقع في ٩٤ صفحة من القطع الكبير.

يحاول الكتاب رصد فكرة المستبد العادل وتتبعها ومناقشتها، وهي الفكرة التي أثارت جدلاً كبيرًا في أوساط الإصلاح السياسي منذ القرن التاسع عشر حتي الآن، وهو يحدد هدفه من ذلك في مقدمة الكتاب بقوله أنه يسعى به إلى تحطيم هذه الفكرة " فـكيف يكون المستبد عادلاً في الوقت نفسه.. لما تنطوي عليه الصفتان من تناقض".

في الفصل الأول والذي جاء بعنوان "الأستاذ وصناعة الوهم" يرى المؤلف أن الإمام محمد عبده (ت١٣٢٣هـ/١٩٠٥م) هو الذي رسخ هذه الفكرة من خلال مقاله الذي أرسله لمجلة الجامعة العثمانية في مايو ١٨٩٩ ، بعنوان "إنما ينهض بالشرق مستبد عادل"، قاصدًا به الرد على من يقولون بأن صلاح الشرق يكون بالأخذ بالحياة النيابية، وأن ذلك لو حدث دون تدرج تربوي كاف للوصول إلى هذه الغاية يؤدي إلى حدوث انتكاسة خطيرة، وهذا التدرج المنشود يقوم به مستبد عادل خلال فترة زمنية تقدر بخمسة عشر عامًا أو على حد قول الإمام : "هل يعدم الشرق كله مستبدًا من أهله عادلاً في قومه يتمكن به العدل أن يصنع في خمس عشرة سنة ما لا يصنع العقل وحده في خمسة عشر قرنا؟". ويضع الإمام برنامجًا تدريجيًا لتحقيق الإصلاح الديموقراطى يبدأ بالمجالس البلدية، فمجالس الإدارات، وصولاً إلى المجالس النيابية.

وينتقل الكتاب إلى الفصل الثاني ويوضح فيه كيف تصدي أحمد لطفي السيد (ت ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م) لفكرة المستبد العادل، إذ رفض فكرة الجمع بين الاستبداد والعدل في نموذج واحد، ورأى أن هذا الجمع أمرًا خياليًا ولا سند له من وقائع التاريخ، وحلمًا غير واقعي تلجأ إليه الأمة في لحظات الوهن. ويقول الدكتور عفيفي أن لطفي السيد رصد مبكرًا أبرز أسباب انتشار أسطورة المستبد العادل وهو فشل المشروع الليبرالي في الشرق، والذي استبدلت به الشعوب العربية نظرية المستبد العادل أو الزعيم على سبيل الاستسهال.

وفي مقابل رفض لطفي السيد في مصر لفكرة المستبد العادل، وجدت الفكرة في بلاد الشام أنصارًا لها ومدافعين عنها مثل السياسي السوري عبد الرحمن الشهبندر(ت١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م) في ثلاثينيات القرن العشرين، وهو ما يتناوله الدكتور عفيفي في الفصل الثالث. وخلاصة رأي الشهبندر في ذلك أن الحياة النيابية مهمة بالنسبة للأمم الواقعة تحت الانتداب والاستعمار، أما بعد استقلالها وحصولها على حريتها، فإنها تحتاج إلى مستبد عادل ينقذها من فوضى مرحلة ما بعد الاستقلال.

ويرى المؤلف في الفصل الرابع من كتابه أن النصف الثاني من القرن العشرين شهد تحولاً مهمًا في مسيرة فكرة المستبد العادل؛ حيث تحولت من النظرية إلى التطبيق مع حضور نموذج جمال عبد الناصر، وهي نتيجة يخلص إليها مستندًا إلى مذكرات ثروت عكاشة وزير الثقافة في العهد الناصري، وهو أحد الضباط الأحرار وواحدًا من أكثر رجال عبد الناصر وفاءً له. وتوصل عفيفي من خلال هذه المذكرات إلى ما يؤكد اطلاع عبد الناصر على نظرية المستبد العادل أوتأثره بها وأنه كان تلميذًا مخلصًا لهذه النظرية، ولذلك سعى لتجسيدها من خلال حرصه على ضرورة تمركز السلطة في يديه ليكون له حق اتخاذ القرار منفردًا. كما أن عبد الناصر أخذ بمبدأ الفترة الانتقالية التي دعا إليها منظرو نظرية المستبد العادل والتي تهدف إلى لم شمل الجماهير، ووحدة الصف، والتدرج عبر مجالس وهيئات شبه نيابية، حتي يتدرب الشعب علي الأسلوب الديموقراطي.

أخيرا يأتي الفصل الخامس من الكتاب بعنوان "نزار قباني المستبد العادل

الضحية". ويتحدث فيه مؤلف الكتاب عن الكيفية التى تناول بها الشاعر نزار قبانى الفكرة وعبر عنها فى قصائده، كما يقدم تحليلاً تاريخيًا لبعض أشعار نزار قباني يوضح فيها أن نهاية عبد الناصر ونظامه جاءت من قيام الجماهير بتكبيله بحلم المستبد العادل قبل هزيمة يونيو ١٩٦٧م وبعدها في ٩و١٠ يونيو؛ فالمؤلف هنا يوجه اتهامه للجماهير بأنها هي التي اغتالت عبد الناصر الذي راح ضحية الحلم المُصطنع "المستبد العادل"، أي أن العقل العربي ــ في رأي المؤلف ــ صنع أسطورة المستبد العادل واعتنقها جيل عبد الناصر وراح هو ضحيتها.

وبعد هذا العرض الموجز لفصول الكتاب تبقى هوامش ستة عليه وهي:

<u>هامش أول:</u> يجب أن أذكر في البداية أن مالفت انتباهي لهذا الكتاب البالغ الأهمية الذي يتناول دراسة إحدى الأفكار السياسية في القرن العشرين هو أمر يرتبط بتخصصي في التاريخ الإسلامي من ناحيتين: الأولى منهما هي الفكرة القائلة بأن مقولة "المستبد العادل" لم تأت في الفكر العربي الإسلامي إلا في ضوء سطوة الحكم المعروفة لدى الشرقيين والتي وضحت في العصور الوسطى الإسلامية، وهي التي جعلت الرضى بالاستبداد أمرًا مألوفا لديهم، وعدم تصور حكم آخر في غير أجوائه، ولذلك أصبح الأمل ــ طالما أن الاستبداد لا يمكن الفكاك منه ــ هو أن يكون المستبد عادلاً.

أما الناحية الثانية التي جعلتني أهتم بهذا الموضوع هو ما أشار إليه أحمد لطفي السيد في مقالته الشهيرة "حقوق الأمة" ــ التي قام بدراستها وتحليلها الدكتور عفيفي في كتابه ــ حين قال: " كانت الحكومات المرضية كحكومة الخلفاء في صدر الإسلام، بعيد عليها أن تكون مستبدة". ولكن للأسف استمر الكثيرون بعد ذلك في إدراج الخلفاء الراشدين خاصة عمر بن الخطاب في ظل هذه الأكذوبة الفاسدة "المستبد العادل". وهو تفسير جائر وتسويغ مضلل يتناقض تمامًا مع ما عُرف عن عمر بن الخطاب من عدم استبداد وضح في خطابه في أول خلافته الذي قال فيه:" أيها الناس من رأى منكم فيّ اعوجاجا فليقومني" ، كما أن عمر هو الذي استبعد رأيه في مسألة المهور في مقابل رأي عارضته به امرأة وقال عندها مقولته الشهيرة: " أصابت امرأة وأخطأ عمر"، و كان عمر دائم استشارة الآخرين والأخذ

بالحق وفي ذلك كان يقول:" كل الناس أفقه منك يا عمر"، كما أنه هو الذي رفض أن يكون ابنه خليفة من بعده ولم يفرض على المسلمين خليفة بعينه وإنما وضع آلية للاختيار وترك للناس اختيار من يرونه صالحًا. وهذه المواقف تنفي الاستبداد ـــ بمفهومنا الآن ـــ عن عمر؛ فالمستبد الذي يقصده المفكرين السياسيين الآن هو الذي لا يرى إلا رأيه ويحتقر الآخرين وآرائهم وهذا يجره بطبيعة الحال إلى عدم تحقق العدالة في حكمه وأحكامه.

<u>هامش ثان:</u> يطرح المؤلف في الصفحة الأولى من كتابه (المستبد العادل) هذا السؤال: "لماذا انتقل العقل العربي من عبادة الأصنام في الجاهلية الأولى إلى عبادة المستبد العادل في الجاهلية الثانية؟". وقد لا يوافقه كثيرون ـــ وأنا منهم ـــ على استخدام تعبير "الجاهلية" في التوصيف التاريخي لأي فترة زمنية قديمة كانت أو حديثة، وأنه يجب ألا يتجاوز هذا التعبير المصطلح الديني المحدود الخاص به.

<u>هامش ثالث:</u> لا يمكن الركون إلى كلمة واحدة للإمام محمد عبده قيلت في مناسبة واحدة في الخروج بموقف مبدئي ثابت لهذا المصلح الكبير. وهذا يرجع لسببين: أولهما أن الإمام محمد عبده قد لا يعني بالاستبداد في مقولته إلا بعض مفاهيم الكلمة في التراث العربي ودلالاتها في اللغة العربية؛ أي الحزم والقدرة على التصرف وسرعة اتخاذ القرار وعدم التردد فيه والأخذ في الشيء وعدم تركه إلا بعد إتمامه. وفي ضوء ذلك يمكن القول بأن محمد عبده لم يقصد بالاستبداد في مقولته الانفراد بالرأي والسلطة من دون أن تكون هذه السلطة خاضعة للقانون ومن دون النظر إلى رأي المحكومين.

والسبب الثاني ـــ وهو ما يؤكد ما سبق ـــ أن من يراجع الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده سيجد آراء نقدية للاستبداد وتبيانًا لمخاطره على الأمة والنهضة والتقدم، وهو ما يفيد بأنه كانت لديه كراهية لكل ألوان الاستبداد، وهو ما أشار له الدكتور عفيفي نفسه بقوله: " إن المتتبع لتاريخ الأستاذ الإمام يستغرب من هذه المقالة الغريبة على فكره، فهو الرافض دائمًا للاستبداد، الساعي دائمًا وراء الحرية، وتحكيم العقل".

<u>هامش رابع:</u> هناك أمر بالغ الأهمية يجب التنبه إليه وهو التاريخ الذي قال

فيه محمد عبده هذه الفكرة، إن محمد عبده في خطابه لفرح أنطون (ت١٣٤٠هـ/١٩٢٢م) الذي أرسله له لينشر مقالة "إنما ينهض بالشرق مستبد عادل " يقول له أنه قال هذا الكلام منذ اثنتين وعشرين سنة، ويطلب منه عدم ذكر أنه هو الذي أرسله لينشر في مجلة الجامعة العثمانية وإنما ينشره على أنه كلام سمعه عنه وحفظه البعض وأرسلوه لمجلة الجامعة [راجع: الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ١/٨٤٤]. ويفهم من ذلك أن تاريخ الفكرة عند محمد عبده يرجع إلى سنة ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م، وهو تاريخ مبكر جدًا لا تتناسب معه بعض تحليلات الدكتور عفيفي الخاصة بالربط بين مقالة محمد عبده وفشل الثورة العرابية سنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م وسقوط نموذج المثقف الثائر جمال الدين الأفغاني(ت١٣١٥هـ/١٨٩٧م)، كما أنه لا تتناسب معه التحليلات الخاصة بتفسير تقديم محمد عبده لمقالته في إطار اجتهاد عقلي بحت وعدم احتوائها على غطاء ديني أو تأطير إسلامي بأن ذلك يرجع إلى تأثر محمد عبده ــ بحكم إقامته في أوروبا ــ بنظرية الرجل العظيم أو المصلح كنابليون أو بسمارك في ألمانيا؛ فإقامة محمد عبده في أوربا لم تكن إلا بعد فشل الثورة العرابية ونفيه إلى بلاد الشام.

وإذا لم يصح ذلك التاريخ الذي قدمه محمد عبده لمقالته فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو ما الذي دفع الإمام إلى نسبة المقال لزمن يسبق نشره بما يقرب من ربع قرن؟ أعتقد أن تفسير ذلك قد يرجع إلى أن هذه المقالة لم تكن إلا محاولة من الإمام المصلح لتحريك النقاش والجدل حول الفكرة؛ خاصة مع موقفه المعروف من الاستبداد.

<u>هامش خامس:</u> ليس محمد عبده هو أول من ذكر هذا المصطلح " المستبد العادل "؛ فقد تعرض قبله لهذه المقولة جمال الدين الأفغاني ؛ حيث يرد في أعماله الكاملة أنه لما أشيع عنه القول بالمستبد العادل سئل: "إن المتداول بين الناس على لسانك:"يحتاج الشرق إلى مستبد عادل".فقال: هذا من قبيل جمع الأضداد، وكيف يجتمع العدل مع الاستبداد؟! وخير صفات الحاكم: القوة والعدل، ولا خير بالضعيف العادل، كما لا خير في القوي الظالم". ورغم أن الأفغاني قد استبعد بذلك المفهوم الملتبس "المستبد العادل" في مقابل مفهوم آخر هو القوي العادل، إلا أن هذه الرواية

السابقة تشير في الوقت نفسه إلى ترديد البعض لمصطلح "المستبد العادل" قبل الإمام محمد عبده.

<u>هامش سادس:</u> هناك عدة مفكرين بارزين كان لهم إسهامهم الواضح في تأييد فكرة المستبد العادل أو معارضتها والهجوم عليها وهو مالم يتطرق إليه الكتاب: فمن المؤيدين محمد رشيد رضا (ت١٣٥٤هـ/١٩٣٥م) الذي رأى في مقالة له بعنوان "الإصلاح والإسعاد على قدر الاستعداد"، أنه لا مانع من التسليم بوجود القائد الداعي للإصلاح، المستبد العادل، الذي يسوق الناس إلى النهضة والعلياء سوقا، لكونه يحكم "أمة خاملة ورعية جاهلة فيحملها بالقهر والإلزام على ما يطلب ويرام"، فإذا ما عجز هذا الحاكم عن "تغيير سرائر الناس، فإنه لا يعجز عن التصرف في ظواهرهم".

ومن المعارضين للفكرة: عبد الرحمن الكواكبي (ت ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م) وكتابه الشهير "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد"؛ والذي يُعد من أبرز من تناولوا الاستبداد؛ وقاموا بأعظم هجاء له في الثقافة العربية. والأمير شكيب أرسلان (ت ١٣٦٦هـ/١٩٤٦م) والذي قال: "إن الاستبداد لشر مطيّة تمتطيها الحكومة المستبيحة لنفسها التطوّح في البغي والجور والعتو. ولكن بعضهم يقول: هناك "المستبد العادل" النازل من الرعية منزلة الأب من الأسرة ... وإنما جميع ذلك وهم وخيال لا ظل لهما في الحقيقة".

وأخيرًا وليس آخرًا يجدر القول أن هذه الهوامش السابقة وإن حملت في طياتها نقدًا عن بعد لهذا الكتاب المهم "المستبد العادل" للدكتور محمد عفيفي، إلا أن الذي لا شك فيه الإضافة التي يمثلها الكتاب في حقل الفكر السياسي والتاريخي بما تضمنه من تحليلات واستنتاجات عظيمة الأهمية سعت إلى تبديد وهم المستبد العادل في العقل الجمعي العربي، وربما تُشجع هذه المبادرة الهادفة من الدكتور عفيفي على قيام دراسات وبحوث عديدة تحاول نقد الأساطير الأخرى المؤسسة للفكر السياسي العربي في العصر الحديث.





Journal Egyptian Historian

Studies & Researches in History & Civilization

Issued by the Department of History
Faculty of Arts – Cairo University

July 2009





The Concept of Ageing in Roman Egypt; historical and artistic perspectives

Shirin M. Atris

Introduction:

This study explores the concept of age and ageing in Roman art throughout historical and artistic perceptions. It highlights the concept of age as revealed in historical, literary and prsopographical evidence, and complements those interpretations with material evidence as manifested in the form of artistic representations, with emphasis on relief and mummy panel images as well as contemporary royal depictions. The research aims to grasp the notion of the elderly in Roman realms, and investigates how this influenced the societal and artistic representational styles in Rome's mainland and subordinate territories. While the subject of verism versus realism and ageing has been considerably addressed in the Roman Republican era,[(1)] it remains under researched throughout the following and most influential phase, that is Roman Imperial period, although various and rich forms of evidence are in hand for a comprehensive assessment of this quandary. The author initiates this study by looking into the origin of this ageing phenomenon within the context of Roman culture and milieus, but proceeds to highlight related and potential religious and political implications and connotations, and attempts to establish a diachronic prospect for this phenomenon in order to establish a background for the old age occurrence.

Discussing the subject of ageing has become central to the academia in modern societies, where the numbers of aged people are rapidly increasing.[(2)] This has encouraged scholars to search for historical exemplars of this essential matter by looking into antecedents from pre-modern societies, i.e. the ancient and classical worlds. [(3)] This also recalls some related ethical, cultural, religious and societal considerations concerning the image of elderly and ageing in the ancient world, and here I

draw Roman Egypt as a paradigm, which uniquely correlates the oriental and the 'seemingly' pro-western contexts. Documented evidence from Ptolemaic and particularly Roman Egypt's households provides some useful and interesting accounts on the routines and customs of intergenerational norms, and gives what look like minute descriptions of family relationships and ties within the societies under consideration.

The family is believed to have acted as a key institution or a crux, within which the senior and junior members swap roles and responsibilities, and caring for the elderly and/or frail constituents would have usually preceded most of other duties. It was, therefore, customary in Roman Egypt and several of ancient societal communities to consider the interests of the family and household above those of the individual, a concept that may have been attributed to traditions, social expectations, ancestral and kin affection and reciprocity. Although a public formal body in charge of household and intergenerational rights and codes of duties "public social security program" was most likely inexistent, other forms of informal thoughts and conventions seem to have been clearly explicated based on the attributions above, which were most likely reinforced and supplemented by the implementation of appropriate official codes that regulated the procedures of intergenerational sustainability. The structure and regulation of household were themselves highly demanding economic and cultural issues that necessitated the availability of familial associations which were, correspondingly, dependent on some of the most critical factors, especially that those phases experienced soaring mortality rates that produced disproportionate households, containing aged relatives without children and many children orphans in need of long-term care and support. (4)

Thus, the extant study aims to portray the elderly and also to offer insights into intergenerational communications among members of the one family as well as among constituents of the wider Roman populace. (5) As previously noted, this study assumes Roman Egypt as a case study due to the richness of sources material, artistic representations, in the form of reliefs, paintings and sculptures in the round, which, frequently, find eloquent reflections in the accessible thousands of well preserved papyrus

documents providing rare unmediated and comprehensive access to multiple classes of society. The study also draws on interdisciplinary and comparative perspectives. Thus, while this study focuses on the situation in Roman Egypt, it will be necessary in the course of research to look into exemplars of a broader comparative and diachronic historical sociological bent, i.e. from other Roman milieus.

Ageing in literature:

The study of the history of ageing is a fairly recent field in historical studies, beginning in the 1980s. (6) Since then, however, a number of studies have appeared in which historians approach the subject from a literary, demographic and anthropological perspective – for several pre-modern societies as well as for the Greco-Roman world. (7) This recent interest is not surprising if we consider that there are few historical topics that have as much contemporary relevance, such as economic as well as moral issues. A chief theory in this connection is one known as the "golden age", which assumes and advocates that the 'elderly' held a high status in societies of the past due to varying factors, including prevailing moral standards, shortage of aged persona and their hold of wisdom and monetary assets, i.e. inheritance. (8)

Research on the 'elderly' has progressed over the last two decades, as a major branch of socio-historical and anthropological disciplines, revealing that the perception and experience of old age depended on the social class, on regional and economic circumstances, on the specific family situation, on the individual's health and control over property, and last but not least gender. (9) For classical and post-classical antiquity the subject of the 'elderly' has started to catch remarkable consideration over the last few years. (10) Nonetheless, such belated investigation of the ancient world has been compensated by the demographic superiority acquired and indeed by the richness and variety of accessible data. (11) Ahead of the several studies conducted on the 'elderly' concept in ancient and classical societies comes the monograph of Tim Parkin, *Old Age in the Roman World*, (12) which, since its appearance in 2003, has drawn further studies in what we might call the 'age' discipline, ancient and pre-classical, classical and post-classical

eras. Several studies have concentrated on the classical Greek(13) and the Roman family; emphasizing the Roman arenas in Rome, Italy, North Africa, Gaul and Spain,(14) but research on this topic in other Roman provenance, particularly the eastern Mediterranean, including Egypt, despite the depth and breadth of its historical, archaeological and textual sources, is still insufficient. (15)

Notes on sources:

Research on the elderly notion is somewhat controlled by the meagerness of source materials. Archaeological evidence is indeed substantial, but not without imperfections. This is because archeological research and studies cannot fully reveal family matters, which is why realizing the size and composition of a family with its developing and developed, i.e. 'elderly', members from archeological finds only is quite a hardy and problematic task. Moreover, it is fairly uncertain to establish a concrete chronology for the appearance and development of Roman presentations in general, and for those in aged styles in particular, since, as Jackson notes, only images in durable media, i.e. marble, coins, engraved gems, and, occasionally, terracotta survive. Yet, the mass of such figures are unordered, unidentified and undated. In addition, bronze figures were often melted down to be re-used, which leaves us with wax and painted portraits, which were, for the most part, lost. (16) It is for that reasons that papyrological and textual evidence is of substantial significance, since its survived forms, e.g. wills, contracts, private letters, contracts, court proceedings and census lists, do yield invaluable information about life and dynamics of the middle and sub-classes of society, such as workmen, traders and, to be sure, farmers residents of rural villages and the countryside which constituted the vast majority of the population of Roman Egypt. The bulk of the researched papyrological materials, however, originates from the second century AD and come from Middle Egypt, i.e. Arsinoe and Oxyrhynchus, where papyri had a better chance to survive in the dry desert sands while we have almost no evidence for the large part of the population that lived in the Nile Delta and in Alexandria. (17) In the following pages I examine the status of the 'elderly' in Roman Egypt, which is followed by a discussion of the

artistic origin and mode of ageing in Roman art in general and with respect to Roman Egypt.

Historical Overview; the 'elderly' in Roman Egypt:

The Egyptian population in Roman times consisted of Roman citizens, citizens of the Greek cities, metropolitans, freedmen and slaves, and finally the native Egyptians in the small towns and villages who doubtless constituted the vast majority of the population. The Roman government endeavored to endorse this lucid division by an opaque system. [18] It is estimated that two-thirds of the total population lived in the countryside in small towns and villages, whereas the remaining one third resided in the cities. [20] The controlling authoritarian Roman rule of Egypt had typically constituted a highly advanced filing system that accumulate file declarations from individual familial compositions, i.e. family houses, which was obligatory for all members of the laypeople. [21] Bagnall and Firer note that every 14 years the head of each family, who was typically the eldest male, had to compile all census revenues, and was also required to declare his possessions and the members and individuals who lived in it. [21] That often includes statements of the number of members of a family, their names, ages, and relationship with the other peoples within the family home. Several census returns even contain status and profession, and physical descriptions. [23]

The accounts of census returns along with other forms of textual evidence, especially private letters, give vivid indications concerning the details and position of the elderly in the societies of Roman Egypt. These resources tell us that major proportions of old people in the towns and villages of Middle Egypt shared households with their children, and that parents at advanced stages of life were esteemed as senior members of the family, and, accordingly, taking care of the aged individuals was quite highly valued. Huebner notes that in Roman Egypt ageing did not involve neglect and isolation but quite the opposite, denoting that sons did not move out but rather brought their wives into the family house, adding that the number of family members in the household increased as the parents grew

old, and that the transfer of possessions from the father to the children was not permitted before the father's death. (24)

A review of records in the form of census returns from the Delta and the Fayum indicates that the majority of aged individuals shared one major residence with their immediate and extended families. (25) The counts of those old people are not, unsurprisingly, stable, and are sometimes not very precise, with some variations between male and female individuals, which are most likely linked to the variation in demographical ratios as well as to the diversity of marriage customs with respect to gender. Thus, while men were customarily open to the concept of re-marriage, following divorce or death of a partner, women's marital relationship was, in most cases, confined to one single occurrence, which gave rise to numbers of old women recorded as widowed or divorced, a situation that appears very much unusual in the case of old men, who are often noted as having a family, i.e. a spouse and an extended family. (26) This accords well with Herodotus mentions concerning children's responsibility towards their parents, where he says: "Sons are not compelled against their will to support their parents, but daughters must do so even if they are unwilling". (27)

Whilst this may induce a question relating to who held the primary care providing duty, sons or daughters, it seems to set the record straight with respect to the significance of looking after the elderly parents in particular and old people in general. It seems, nonetheless, that sons had the primary duty to invite their elderly lonely parents to co-reside with them, and indeed, to take great care of them, (28) which is attested by means of a rich body of private communications and letters as well as by census returns, which provide abundant instances of children and family members looking after the elderly, as may be attested by the case of Saturnilos from Karanis (the Fayum). This man worked in the military service, as a soldier, and he was sent to the Roman camp of Pselkis in the southern borders, Nubia. (29) Saturnilos' letters bear out the intimate and strong relationship that he had with his family, particularly his elderly widowed mother, as he mentions that this is his fourth letter in three months, and promises his mother that he would search for any chance to return home to visit her.

Saturnilos wishes he could go to the capital Alexandria to apply for a leave or permission to the prefect (governor) to grant him permission to go back home, and he plans to stop midway in Karanis to pay a visit for his mother. Further details in Saturnilos' correspondence explicitly reveal the immense affection and gratitude that he has for his mother and the sense of conscientiousness that he owes to his natal home. [30]

There is also the case of a 75-year-old lady named Sentaos, who lived with her 56-year-old son, his wife, and their two children[31] and the example of a 74-year-old lady named Tasoucharion, also from the village Karanis (the Fayum), who co-resided with her three children, who themselves were in their fifties, and although males did exist within this particular family home, Tasoucharion owned the entire house in which her almost entire family lived, and she took the responsibility of dictating and signing census declarations. [32] In cases where parents had no sons available, daughters were most likely put in charge of the elderly members or heads of the family, such as in the case of a 60-year-old lady named Tatihoes who does not seem to have had any sons, so that she moved in with her married daughter and her family. [33]

A further example is that of Sempronius who lived far away from his widowed elderly mother who co-resided with his brothers and their families within one household, and Sempronius' letters to his brother clearly show how he was concerned about her health and well-being, particularly as he begs his mother to respond to his several communications, by saying "I have sent you so many letters and you have written me none in return, although so many people have sailed down. Please, my lady, write me without fail about your well-being in order that I may be less troubled." [34] Sempronius continues to explain how much he loves and cares about his mother and her health and he concludes his letter by asking his mother to maintain her well-being by saying: "Do keep well for my sake, my lady, at all times." In fact, Sempronius' communications bear out a sense of great admiration, perhaps even veneration for his mother, especially that he tells his bother to do his best to look after their mother, substantiating his wish by noting: "For we ought to reverence her who bore us a god, especially when she is so good.

This I have written to you, brother, since I know the sweetness of dear parents." [35]

Although the above instances of reciprocal care between an elderly parent and his children might appear to compromise the emphasis on the concept of the 'elderly' in the Roman period addressed throughout this study, considering that it may be perceived as aspect of family life, papyrological evidence shows emphatic patterns indicating that care and veneration of the aged individuals were taken as a form of general temper in Roman Egypt. Reading textual data signals that merely a small percentage of old people lived unaccompanied in Roman Egypt and even those were not short off receiving help and company from family associates or community. Examples such as a case of a 60 years old lady named Isidora, are quite indicative in this respect. Although Isidora lived on her own in her house in Tebtunis (the Arsinoite nome), she received care and support from her relatives and slaves and their associates, most appear to have co-resided with her. [36] Most of such registered cases represent wealthy individuals who maintained a source of revenue, such as the example of a 72-year-old lady named Aurelia Demetria who lived on her own in her house without family, and was looked after by her slaves and kinsman.[37] Thermoutharion, a 65-year-old freedwoman from Oxyrhynchus lived together with a second woman of unknown name, age, and status. [38] As previously underlined, the variation in age ratio and cultural norms resulted in greater numbers of elderly women recorded as widowed and/or living alone, yet there is also some minimal reference to elderly men as living alone in Roman Egypt. Such is the case with a 70-yar old freedman living alone in Thelbonton Siphtha in his own house without any family members, lodgers, or slaves.[39] Another instance is that of an 80 year old man named Aurelius Atrainis who was by himself, but was looked after by his freedwoman and a non-related family of five persons. [40]

Ageing in representational sources:

Ageing and Verism:

The representation of the notion of old age is closely linked to the ideal and expression of verism in connection to Roman artistic

representations, many of which clearly assimilate features of agedness to expressions of rigidity, seriousness and power. The stylistic veristic approach is known to have marked a wide array of Roman Republican depictions of both men and women, which appears especially in figures produced towards the end of the late Republic (fig. 1). A central potential cause for the conveying of old age temper is that the Roman art is known of its yielding of energetic viable subjects. This quality seems to have clearly affected the Roman representations, making them appear as part of everyday life themes. Verism is often distinguished as a form of ultra-physical realism that passes up or denies idealized ' superlative' features or advances in favor of authenticity and pragmatism. [41] Versim is that sort of occurrence which aims to accentuate a desirable quality of executing and displaying details and actuality. It may be interpreted as what Richter calls 'dry realism', in that a person is captured in art without idealized 'perfect' features, but rather he or she is shown with defects, like for example warts, scars, wrinkled faces, in addition to clear signs of human actual expressions and state of mind, i.e. looking clam, angry, sad or bored. Thus the manner of verism may be taken up regarding the way features are represented as well as the character conveyed. [42] This subject has been remarkably fascinating for art historians and classicists, who have linked between those veristic and 'realistic' looking depictions and classical, neo-classical and pre-modern artistic trends, which formed the path for modern artistic representational approaches concerned with the manifestation of the *self* and one's conception of the inner and outer personality. The delineation of features such as the furrows, creased skin marks, heavy-lidded eyes and tight thin curt mouth may be interpreted as signs of advanced age, other signs such as the frowning eyebrows, the harsh serious-looking temper and deep eye look have generally be linked to images expressing power and vigor in the Roman thoughts and arts. Due to the abundance of representations of Roman individuals, especially male persons, both of royal, ruling and ordinary status, shown both as aged and in veristic idioms, it has become quite controversial to assess which features belong to this mood or the other.

The origin of Roman 'elderly' and rigorous representations:

Scholars' views of the notion of ageing in Roman context vary; some suggest that features of the 'elderly' directly reflect the insinuation of this stage of life, and how it was perceived in the lives and ideals of Romans. Some advocate that the idiom of ageing is originated in Roman culture, and its reflection in art came, therefore, as a natural expected norm. Several other scholars are, however, inclined to suggest that the 'elderly' materialization was imported or borrowed by the Romans from other cultures and arts, arguing that the Romans did not create or develop the ageing ideal within their artistic or cultural arenas. Hence, in the study of Roman portraiture, traditional exposition of the source of verism in view of the impact of predecessors seems viable. Richter had long proposed the question, is the verism of Roman Republican portraits attributed to Italic, Greek, Etruscan, Egyptian, or simply Roman influence? (43) The assumption that Roman art scrounged veristic and ultimately aged moods from Italic, and Italian arts might be valid, yet, that those well preceded the Roman Republican representations by many centuries lessens the reliability of the reciprocity theory. Some scholars have attributed the verism perceived in Roman representations to Etruscan art, which seems more likely, seeing that Etruscan sculptors are known to have managed realistic appearance which dominates their third and second century BC sculptures. Still, that Etruscan realism seems to have completely passed away by the first century BC onwards, and that Etruscan sculptors rarely worked in marble may cast doubts about the validity of the theory assuming that Etruscan verism instituted the later Roman imagines. (44)

The theory of the influence of Greek, particularly classical and high classical arts seems highly sound, since it is already accepted that Roman artists did not seem to have originated nor solely developed the "elderly' representations, considering that the bulk of art works datable to the early Roman period was largely produced by foreign sculptors, mainly Greeks, whom the Romans patrons commissioned to create their 'seemingly' novel sculptures(45). Such art works, among which are imagines, were naturally ordered to evoke the distinctively Roman styles, i.e. costumes, features,

regalia, representational elements of power and charismatic, if any. It is also known that the Romans, following their conquer of Greece mainland and the previously Greek states in Asia Minor and northern Mediterranean, showed overwhelming fascination with Greek models, figures and sculptures, which was the prime reasons for their reprehensible mission of looting many Greek sculptures and ship them to Italy, and when the Romans' importation of Greek original art works came to an end, they embarked on the famous Roman practice of replicating Greek images of famed persona, i.e. scholars and philosophers. [(46)]

However, the supposition that Roman veristic aged imagines were produced by Greek artists makes us wonder, to what extent the effects of Greek artistic approaches and ideals were undertaken in transmitting those dictated Roman emblems. [(44)] Some scholars argued that the exploitation of Greek art forms and ideas in Roman sculpture may have come up with the verism and aged appearance and ideals under research, though there seem enough reasons to decline such a theory. In reality, the ideal 'calm' representational styles that are known to have considerably dominated Greek sculptural representations of Greeks seem almost entirely absent in Roman Republican sculptures created under effect of Greek art masters. Further, the observation of such Greek 'ideal' artistic approaches would have likely miscarried actual attempts at reinforcing features of verism and advanced age, which, to be sure, do not show any compliance with the concepts of idealism and youth fresh-looking individuals. The most likely scenario, I think, is that elements of verism may have influenced Roman imagines through their copying and imitation of Hellenistic sculptures, many of which are known of their incorporation of pro-realistic features and bodily expressions and idiosyncratic language. [(48)] That Hellenistic portrayals appear to have exceeded the idealized conventional ideals may certainly be attributed to the adaptation of the then newly-introduced concepts concerning the conceiving of naturalism, and may also be linked to the foreign features and influences that could no longer remain separable from or inferior to the realms of Greek world, which are in this case 'eastern'.

Hence, the idea suggested by some scholars, is that the verism aged look characteristic of several Roman imagines may be explained through the Greek 'Hellenistic' artists' observation of attitudes and aspirations of Roman clients, in that those skillful pro-naturalism artists were hired or commanded to work for Roman clienteles, who were practical and had a taste for faithful rendering, which reinforced realism and ultimately verism in the creation of Roman figures. [(49)] Richter goes further by noting that the most important factors responsible for the masterpieces of Republican Roman portraits were the veristic faces of the Romans themselves and the interest of the Greek artists in representing these novel types, which they found incredibly inspiring. She substantiated her view by demonstrating the appearance of Greek realistic-looking ' veristic ' images of rulers as sculptures in the round, in relief as well as on coins, [(50)] notwithstanding that almost all exemplars she noted come from Hellenistic chronology and provenance, which brings back the question of eastern artistic influences, i.e. Hellenistic.

However, it does not seem convincing to ascertain that late Greek or even Hellenistic art was the foundation of Roman Republican and, later, Imperial imagines, and that the naturalistic style evolved by the Greeks was continued, uninterrupted, by the same types of artists who later worked out naturalistic realistic-looking Hellenistic images, who simply changed the conception with the new requirements, allowing the Romans to introduce a new concept which became dominant throughout their vast empire. [(51)] This is because Roman figures look strikingly distinctive and clearly different from Greek antecedents in such a way that does not allow us to think liberally and solely about Greek backgrounds; it would have taken more than that. Hinks underscores an important definition in this respect, as he highlights the crucial differences between Roman Republican aged 'veristic' images and current naturalistic portraits of the late Hellenistic period. He notes that the Hellenistic artists worked towards the effect of representation by analogy with the whole to produce a work that, regardless of its objective pretention, retains an unavoidable degree of subjectivity on the part of the artist. [(52)] On the other hand, the Italian production may be termed veristic because its aim is to reproduce the original subject by literal attention to

detail and by objectively recording each outer facet of peculiarity of the client and transliterating them piecemeal into the language of art. [53] At any rate, Richter's review of the origin of verism in Roman portraiture has attracted significant scholarly attention, and helped pulling together useful and accessible research database on the subject of Roman aged and veristic representations.

The verism look has been more commonly captured in association with sculptures in the round, whereas images of Roman figures on coins tend to show less realism, looking somewhat idealized in compliance with the Greek artistic idealized drill. This encourages Vessberg and his fellow scholars to suggest that artists who produced portraits on Roman coins may have been immigrant Greeks, who carried out the task of representing ideal images of prominent figures such as emperors or philosophers, whose idealized incarnations would have nicely suited their very distinctive 'heroic' attribution and germane identification. [54] Conversely, when those artists were commissioned to work out portraits in other sculptural media, namely marble, they needed to observe actual live models, many of whom represent private individuals, i.e. merchants, senators and suchlike persons, with whom the question of idealism needed not be necessary, but rather there would have been a welcoming emphasis given to the faithful rendering of real features. In short, even if one can confidently concede that Hellenistic artists were involved in the creation of aged representations, the actual physical evidence may tell a different story, since the two styles, the Hellenistic and the Roman, are different to such an extent that one must assume other factors that led to the emergence of the distinctively elderly representations on the Roman side. [55] I like, however, to replace the traditional quandary of the origin of verism with another subject concerning the appreciation of Roman aged and veristic styles in terms of a broader cultural, political and historical context, and here I attempt to approach a reasonable perception of the social code and function of art.

The ancient Romans had an original custom of creating wax portraits of their ancestors which they used to place in their houses and carry in feasts and processions. [56] Scholars' perceptions concerning the influence of this

tradition on the emergence of Roman aged representations vary; some approve it, while several others such as Vessberg and Schwitzer were inclined to disregard the idea that wax portraiture played a significant role in the creation of veristic and aged representations. [57] Wax images were often designed based on moulds from actual faces, and the result is often a minute reproduction of the actual face. However, the technique of wax images seems a little different from realistic-looking aged figures, since wax images were simply created after moulds of real skin tone, so the chances of creativity and potent incarnation of realism would have most likely been discarded and doubted in favor of the idea of direct copying. In essence, a realism that is entirely founded on mere copying does not qualify for the fundamental issue about realism that is honest and faithful self presentations which are not just concerned with skimming the outer facial features, but penetrate deep into the subject to attempt to transmit its individual character and qualities, mainly the age and mood. Nonetheless, the fact that the Romans were used to creating and seeing wax realistic statues in their precincts may well have reinforced the creation of realistic-looking portraits, including aged forms, in stone and other types of material, i.e. coinage, relief and wall paintings. One, however, needs to look more profoundly into the ideas and rationales behind this all; why Romans wanted to represent images of their relatives and elderly? And what implications did these representations have with respect to the several aspects of Romans' life and culture? To answer these queries we need to further look into the evidence attesting to the position that the elderly had had in the Roman conception. In art, the conventional Roman ancestral portraits may work as a core subject in our assessment and awareness of the phenomenon of the elderly in Roman art in general and in Roman Egypt in particular.

The concept of the 'elderly' in Roman tradition:

It is believed that most of the builders of Roman sanctuaries and temples were men of distinguished 'aristocratic' and 'old' families, of which they were truly and intensely proud and ostentatious. Indeed, one of the *modus operandi* through which such Roman aristocrats celebrated and expressed the vanity of their ancestry was that they commissioned imagines

for their ancestors and kept them in wooden cupboards which were customarily placed within their houses, so that they would be able to show them off in related occasions such as celebrations or funerals. [58] This indicates the highly revered and illustrious ideological concept of imagines, and, to be sure, lineage and precursors, and may confirm that the representations of people in advanced stages of life did not emerge as mere realistic rendering, and contradicts with some scholars' view Roman images look old because those Romans had veristic aged faces. [59]

Honorific ancestral imagines:

Creating likenesses of old and senior members of lineages was the approach that Romans, particularly upper-classes, adopted to celebrate their dignified social status. The presence of indigenous localized ancestral portraits in Rome and in Roman sites and territories gives clear indication of the importance of the elderly concept among the elite classes of Roman individuals. The numbers of these sculptures are not clear or consistent, which is why it is useful to integrate other forms of evidence accounting for the forms and functions of these imagines in order to complement our understanding of those productions and further underscore the concept of ageing in the Roman epoch. Literary evidence such as the passages narrated by Pliny (N. H. 35.6) and Polybius (6.53) provide useful accounts on the funerary customs and the cult of the lineage. Polybius states some broad histories of the funeral ceremonies among the elite classes of Romans, many of who had ancestors infiltrated within prestigious social status through claiming of senior offices. [60] Polybius describes Roman mortuary ceremonies as religious rituals and as edifying honorable paradigms to young generation and a way to stimulate public splendor. He goes on to provide minute descriptions of the ceremonies, mentioning that the masks of ancestor is being celebrated and glorified through stating his/her achievements, whereas likenesses of relative ancestors, fully dressed and ornamented, are displayed in small wooden shrines in the *atrium*. [61] The shrines are usually carried by one who looks closely like the deceased ancestor, whilst other family members and audience gather to mark their respect. Pliny's tales quite verify Polybius' accounts; although Pliny,

sorrowfully, speaks of rites, which he misses and describes as long-gone. He proceeds to condemn the excessive arrangements of funerary ceremonies during his own days, in that he disparages the replacement of ancestral masks within wooden shrines, adorning the *atrium*, with 'needlessly' costly sculptures. [62]

Literary accounts reveal many details about these funerary rites, the function and merit of ancestral portraits and related customs, showing them as highly dear, which, in view of the lack of coherent physical evidence, is immensely useful. Such descriptions, however, do not give sufficient interpretation of the forms of these funerary pieces. Polybius refers to images protected by being placed within wooden shrines, which suggests that those images were probably made out of delicate materials such as clay or wax, whereas Pliny includes the term wax *expressi*, thus most likely alluding to cast reproduced from moulds formed closely and directly per the face of the ancestor. [63]

The issue, however, seems to be more than just direct copying of one's dead ancestor by a mould or by close observation, which, supposedly, resulted in realistic-looking physiognomy. The fact that the majority of ancestral figures appear remarkably aged may rather contradict with this copying theory, since, as Jackson points out, imagines were meant to represent the ancestor as a living character, which, understandably, required some adaptation, such as opening the eyes, as well as concealing some other features that typify death peculiar features. In reality, the effect of death on the facial features is to soften the facial lines and other blemishes, and straightens the skin appearance. [64] However, that the ancestral portraits under consideration look distinctively old with all appropriate aged features may suggest that agedness flows over actual physical details for the quality and value of looking and being old in Roman tradition. This may be supported by literary evidence such as Pliny (*N.H.* 35.153) who notes the fourth century BC case of the Roman Lysistratus who commissioned an ancestral portrait for his brother Lysippus by casting directly from the features, producing an imagine that is free from the veristic aged appeal. [65] It may be that by such an early chapter the ideal of agedness and verism had

not been fully appreciated and artistically articulated. In essence, therefore, aged and veristic likenesses are not death masks, and do not appear to have been exclusively based upon straight reading of casted death masks into three-dimensional sculptures.

Direct casting would have certainly helped, but the idea was to produce look-alikes but with emphasis given to age marks, which were likely added to convey the elderly 'honorable' mood. (66) The production of those Roman ancestral masks was particularly central to the historically minded factual Romans, whose striving passion to preserve and display ancestral funerary masks was fundamentally linked to a very ancient social and religious tradition. However, the appearance and forms of these conventional Roman ancestral masks were somewhat modified under the influence of Hellenistic art and culture, as they progressed from the rigid 'waxed' reproduction to assume a deep and thorough ethical and religious context and, accordingly, individualized self-like appearance. (67) It is not definite why wax is particularly and abundantly noted in literary evidence attesting for ancestral portraits especially that, as Jackson appropriately underlines, wax is a fragile medium and its utilization would not have fulfilled the significance attached by the Romans to genealogy, to assume a longing to retain their ancestral portraits forever. (68)

The case of a Roman general named Marius is particularly indicative with regard to the significance of ancestral portraits in the elite spheres. Literary sources tell us that Marius, who did not have a prominent and extended family tree, was harshly criticized and scorned by his patrician peers in the Senate for not having ancestral figures in his residence. (69) With the advent of Greek artists, ancestral sculptural imagines may have been abandoned in favor of less costly but more delicate funerary masks, which are highly perishable. Above all, literary accounts, particularly Polybius, indicate that the function of ancestral figures changed with the abandonment of several civic rites, and their context changed with the change of funerary customs, in that masks no longer fulfilled a specific religious utility. This led to the extinction of ancestral masks, whose subjects were alternatively manifested in marble figures and incorporated into sculpture broadly,(70)

which appears especially in sculptures created towards the end of the Roman Republican period and throughout the Roman Imperial era. Mummy masks and painted mummy portraits may also be deemed amongst extended forms of ancestral portraiture, since they connote the very original concept of celebrating the ancestor, although their forms and functions involved other additional contexts. Seeing that the tradition of creating funerary masks sprang from the earlier tradition of ancestral portraits, and considering that the bulk of those Roman funerary masks come from Egyptian regions, makes the case of aged presentation in Roman Egypt of special importance.

Ageing and superiority:

Ancestral portraiture sculpted in marble and suchlike stones as well as mummy portraits continued the same earlier tradition of parading the ancestor and the elderly, which may be demonstrated by the great numbers of aged representations shown in these portraits. The subjects of these figures were almost entirely men and only occasionally women subjects are represented, but all are shown in advanced age, for, as Kleiner ascertains, generally only elders held power in the Republic. These noble aged individuals did not ask sculptors to represent them younger or refined, but rather they wanted to look brutally old and ultra realistic hence, reinforcing the age quality, which, by itself, seems to have been deemed as prestigious and complementary to their glory. (71) Indeed, looking strikingly old echoes propitious attributes related to being old, equally acquiring seriousness, experience, determination as well as loyalty to state and family, all highly venerable virtues in Roman milieus. (72) What further emphasizes the high status of ageing in Roman perspective is that portraits of non-elite classes do not convey such attribute, since, under Roman law, slaves and former slaves were deprived from the rite of possessing or *enjoying* any lineage imagines, for the reason that their ancestors were conceived as property but not people. Interestingly, therefore, freedmen and their descendants commissioned relief imagines for themselves to adorn their tombs, in an act that would distinguish them as Roman citizens and disperse their former villainous times of yore. (73) .

The exemplar of the Gessi portrayals is useful in this regard. [74] This stone funerary relief shows three images of three people, all named Gessius. The figures on the right and the left represent two freed slaves, Gessius Primus and Gessius Fausta flanking the figure of their former master Publius Gessius, who enjoyed the position of a freeborn citizen. Publius Gessius is represented in the traditional Roman veristic style, looking very old, and wearing a general's cuirass, which marks his high social and political status. This relief was commissioned by the two Gessius freed slaves, [75] who included the image of their former master Publius Gessius as an expression of gratitude for Publius Gessius for granting them the free legal standing and for enabling their stone relief to adorn their tomb façade. [76] This composition is quite interesting, because the figures of the two Gessius look clearly youthful and do not show any age marks, whereas the portrait of Publius Gessius look remarkably old and veristic, which may have been deliberately intended to distinguish Publius Gessius' freeborn position and famed ancestry by showing him aged and experienced. What may further support this view is that the inscription on this tombstone relief states that the relief was funded by the will of Gessius Primus, and directed by Gessius Fausta, the only surviving of the three individuals represented. So, despite the new legal citizen status that the two freed Gessius by then assumed, the aged look was confined to the Publius Gessius who had 'original' legal citizen standing. [77] There appear instances of freedmen occasionally adopting the veristic aged look, which, as Pryce *et al* note, some insist on embracing because they wish to celebrate the right of their families to Roman citizenship following legislation passed under Augustus. However, in such veristic imagines of freedmen emphasis is exclusively given to the impression of ageing, which marked aristocracy and 'good' status, rather than personalized features. [78]

Ageing and verism, in my view, may well be interpreted as a reflection of Roman culture and an indication of contemporary social structure. This is because, as noted by Tanner, the emphasis on the age of persons portrayed is viewed as an evidence of the value placed on age and experience within

Roman culture which is, in turn, codified in the minimum age limits for holding certain positions and offices. Tanner also points out that in the broader context of the Mediterranean Roman world, the depictions of the elderly and veristic held a propagandistic purpose, being most likely planned to express the tough image of Roman officials in contrast with the soft effeminate representations of Hellenistic rulers. (79) In other words, the disparity between Hellenistic ideal and divine-looking images versus the severity and olden looks of Roman politicians might have been designed to symbolize the contrasting philosophies with which the clashes between Hellenistic monarchs and the Romans were initiated and progressed. (80)

Ageing in the Roman Imperial epoch:

Although the general assumption relates verism and aged likenesses specifically to the phases of Roman Republic, those images continued to be made and displayed, throughout Roman Imperial period, only with a trivial change in the materials used. This may be illustrated by the appearance of images of famed politicians such as Julius Caesar who appears on coins casted shortly before his death, ca. 44 BC, and showing him aged with articulately lined face (fig. 2). (81) This seems highly significant, since Julius Caesar is known to be the first to initiate the tradition of placing his own portrait on the Roman coinages during his lifetime. It may be, as Kleiner points out, that the Roman desire to vaunt distinguished ancestry reinforced the placement of illustrious forebears on later Republican coinage, a tradition that went on to be carried out down the following centuries. In fact, it is particularly important to understand the wider significance of that, since the placement of ancestral portraits on Roman coins replaced the former Roman practice, which is taken after Greek tradition, of representing gods and divinities on coins, which might indicate how influential were the Romans' notions towards their ancestry and the 'elderly'. Those newly begun coined ancestral imagines are particularly noteworthy, because, under Roman domination, they were circulated throughout the vast territories of the Roman Empire, and were, consequently, utilized as a propaganda tool used to mold the public opinion in support of the ruler, and also helped further promoting the leading image of the elderly and lineage and its

distinguished whim.[82]

The portraits of Julius Caesar are especially noteworthy, seeing that they mark a transitional point between the Roman Republic imagines and imagines perceived, soon after, in the Roman Empire. Whilst Caesar's portraits uncompromisingly display him in a personal idiosyncratic old look, with wrinkles, hollows, folds of skin, receding hairline and disproportionately large mouth,[83] later imperial imagines such as those of Augustus display an entirely different chronicle. Indeed, portraits of Roman emperors, their wives and associates were introduced within every town throughout the vast empire, where they were placed within or in front of sanctuaries and temples, public squares, baths, and literally anywhere a statue of a royal where to be publically or privately viewed. However, Roman Imperial portraits of rulers and their lineage, and, correspondingly, imagines of contemporary persona, were customarily intended to fulfill certain purposes, i.e. role playing images, and were, therefore, variously represented and uttered.[84]

This is clearly demonstrated by portraits of Augusts, ca. first century BC/AD,[85] which shows him as an armed politician, general, and also as a veiled priest, heroic warrior, and a magistrate with a mantle, and as an associate with/of different Roman divinities, such as Jupiter, Mercury and Apollo, (figs. 3, 3a).[86] More importantly, Augustus appears in so many of his imagines in a strong *'idealized'* glance, expressing his several moments of triumph, and, in this way, he set an artistic tenet that went on to be adopted down the next two to three centuries of the Roman Imperial period, which, as expected, brought the former Roman admirable 'elderly' image to an hasty finale. One must note that these artistic representational swing summarizes and parallels the current state of affairs, because Augustus conquered the fêted couple, Cleopatra and Mark Anthony, and claimed his position as the definite master of the Mediterranean world before reaching 32 years old, which, as noted by Kleiner, signified that the absolute sovereignty by elders that had characterized the Roman Republic for nearly a half millennium came to an abrupt end.[87] A further, and very convincing, theory concerning the abandonment of the aged mode and look is the deified

conception of Roman emperors, which Augustus and several other emperors claimed. Hence, Augustus was not only a youthful triumphant and a sovereign, but he was also commonly known as a son of a god, which is why distinguishing and depicting him as a never-ageing son of a god found extreme support from the Roman public audience at the time, and was later rather taken as an established norm. [88]

The reign of Flavian, ca. 75-79 AD, brought about, once more, veristic aged expressions, or rather retrieved them, though this time portraits appear simply true to nature rather than veristic as former Republican portraits. Reasons for this are not certain, but it may have been Flavian's dictated wills that reinforced the recreation of the Flavian period realistic-looking type of imagines. It is, however, worth noting that portraits sculptures of the Flavian era included other forms of soft silky images, notably those representing noble ladies, [89] and also include imagines of all types and life stages, elderly, youths and children, which, as Kleiner rightly highlights, indicates that the earlier Roman custom of specifically marveling and emphasizing the elderly had by Flavian's time, possibly earlier, passed out. [89]

The representation of the 'elderly' idiom in artistic forms from Roman Egypt:

Despite the 'apparently' particularly 'Italian' Roman notion that this argument seems to pursue, the hypothesis of interrelation between societal cultural norms and art receives support from several Roman milieus outside Rome, especially in the eastern Mediterranean territories and indeed Egypt. These milieus encountered the relationship between the multiple, notably the three principal, parties; the native population, the Roman masters and the Greek immigrants/residents. Roman expansion in those, previously Greek, milieus was followed by a transformation of balance between the Greeks and the Romans, in that it became customary to find statuary dedications by Greek communities or individuals to a Roman recipient, i.e. *patron*. Indeed, the absolute shift of power led to some fundamental behavioral changes on the side of the Romans who then contributed to the mutual elucidation of racially idiosyncratic attitudes of controlling

protectiveness and subservient/deferential reliance, which almost exclusively formed the relationships between members of the ruling Roman elite and subject Greeks. [90] Political and social pressures acted, then, as motivating factors that affected the creation of Roman imagines, and, as Tanner underlines, led to the instituting of clientele relationships and the socio-cultural needs of communiqué that reinforced the creation of expressional psychological likenesses by means of the so-called 'honorific portraits'. As such, the multiple occurrences of Roman *mature* aged imagines may have likely been carved by Greek artists and, probably, dedicated by Greek populations to their protective autocratic new rulers, i.e. the Roman chiefs. [91]

The case of Roman Egypt echoes this very situation in Roman territories in the eastern Mediterranean, where earlier Roman likenesses discovered clearly convey the aged look, whereas the youthful later Roman Imperial imagines attest to the fresh 'heroic' conceptions which were widespread throughout the Roman Empire. However, celebrating the 'elderly' in Roman Egypt may have taken peculiar forms, perhaps even diverse from the conventional honorific types of Rome's Roman ancestral imagines, which, in addition to the swift change in Roman thoughts and representational ideologies outlined above, may be attributed to several other reasons. Firstly, the incorporation of the native religious compulsive ideals, which had readily been tested by Greek norms and populace, into the Roman idols of ageing resulted in some novel interpretation of the admirable age nuance. Secondly and consequently, novel representational forms appeared, displaying unique and distinctive styles, with features that appear rather 'exotic' to the three existent notions, the Egyptian, the Greek and the Roman, which may be attested in the forms and context of mummy painted portraits. [92] Hitherto, and since the majority of Roman aged representations are in sculptural forms, it seems important to compare those with figures in the round from our selected eastern Roman provenance or case study, i.e. Roman Egypt.

Sculptures in the round from Roman Egypt provide further evidence for the progress that the Roman ideals advocating ageing made throughout

time. A substantial portion of images representing administrative and clerical officers are shown with highly veristic and aged appearances (fig. 4), especially those datable to the late Ptolemaic and early Roman epochs.[93] Scholars such as Bianchi and Bothmer have argued that such weary expressions and tough complexions may be attributed to the influence of late Egyptian artistic styles which particularly evolved during the Late Egyptian dynastic rules, i.e. Late Period,[94] whereas other scholars are inclined to advocate the influence of Roman Republican styles and the Roman admiration of the aged furrowed imagines, which seems highly likely, considering that it may be substantiated on chronological and stylistic grounds. [95] Indeed, the styles of sculptures, specifically of male persons, appear to have moved backward and forward to and from the aged forms and the youth 'heroic' representations, and in a place like Egypt, not surprisingly, the idealized styles as well. Seeing that mummy painted portrait came to gradually replace sculptures in the round, it seems expected to find that mummy portraits verbalize that very artistic swing.

These display a wide array of figures including mature, youth and children, male and female imagines, (figs. 5-6, 6a). Clearly, therefore, the 'conventional' emphasis given to the age tenor appears to have lessened, moderated or probably passed out, at least as a prevailing component in artistic representations expressing dominance, authority and power. In other words, the Egyptian ideals of everlasting and, accordingly, the accentuation of the individual's identity, combined with Greek cultural and aesthetic ideologies may have cogently contributed to a certain degree of tapering of the original Roman 'aged' principal in favor of the rise of those artistic-religious individualized forms regardless of age and/or gender. This, likewise, is the case with other forms of representational evidence from Roman Egypt, particularly relief on stelae[96] as well as coinage, [97] which variously display the age tenor, depending on the era of time, the production center and, indeed, the current representational mode.

Actually, it is crucial to underscore the influence of the contemporary Roman prevailing styles, more precisely Imperial forms, on determining the forms and manners of art forms within Rome itself and throughout Roman

provenances, including Egypt as a paramount governorate. It is customary for instance to notice that features such as the costume, hairdo and sometimes attributes of the current Imperial persona, i.e. the emperor and his family associates, particularly spouse, were adopted among and by individuals, particularly high-classes of population, as may be clearly perceived in Roman mummy painted panels of men and women alike. For instance, mummy portraits, form Roman Egypt, showing bearded men, and with articulated eye's pupil and iris, appear to have become common during the first half of the second century AD, in correspondence with the bearded style and expressive eyes adopted for the official images of the emperor Hadiran, which expressed his commitment to Greek culture and tradition, (98) and the Antonine dynasty(fig. 7). (99) Similarly, when aged appearances made strong presence in Roman Imperial images, such is the case with portraits of Marcus Aurelius and Septimius Severus, revealing their advancing age, old imagines also appear in several mummy painted panels from the Fayum regions appropriate to the current Imperial aged imagines (figs.8). (100)

Complementing these representational forms of evidence with prosopographical evidence, discussed above, may further accentuate the 'elderly' concept in Roman art and culture and in Egypt as a Roman provenance. A review of the several forms of evidence indicates that the Romans valued age as a symptom of political authority and social glory. Since art is conceived as a signification of historical and socio-cultural ideologies, it is not unusual to see reflections of those notions in their artistic manifestations which commonly exploit verism and old age subjects.

Notas :

1- Vessberg (1941); Schweitzer (1947); Richter (1955); Jackson (1987)
2- Statistics and predictions anticipate that future decades will witness an unprecedented rise in the percentage of elderly people (70+ years of age) that is expected to be equal to the young proportion of populations in most types of societies, particularly those in the developed world which have experienced great improvement in healthcare and vast progression in medical services, which have ultimately helped saving and prolonging peoples' lives. Less than a century ago, a typical life expectation fitted approximately in the mid-forties in most Europe, which has now reached the late seventies, and is estimated to go up by another 10 years by the middle of the twenty-first century; Maddison (2001) 28-30.
3- A review of historical and collectable genetic evidence shows that normal existence expectation among people of the ancient world's societies was something between the early twenties and early thirties, subject to people's welfare and social status as well as medical and environmental conditions; Frier (2000) 787-816 and Livi-Bacci (1992) 31; Scheidel (2001a) 1-26; Scheidel (2001b) 118-162. For a survey of this topic with reference to Roman Egypt see Bagnall and Frier (2006) 87-8.
4- Bagnall and Frier (2006) 87ff.
5- Huebner (2010) and (2009)
6- Stearns (1982) 1.
7- Finley (1981) 156-171; Kertzer and Laslett (1995).
8- Stearns (1982); Parkin (2003) 61-7.
9- Stearns (1982); Hajnal (1983) 65-104; Laslett (1983) 513-63; Brettel (1991) 444.
10- Parkin (2003) and Parkin (1992); Brandt (2002); Cokayne 2003; Gutsfeld and Schmitz (2003); Amerise (2008).
11- Shaw (1984); Saller and Shaw (1984), Shaw (1987) and (1996); Saller (1987) and (1994) Hansen (1986); Bagnall and Frier (2006)
12- Parkin (2003).
13- Pomeroy (1997); Cox (1998); Nevett (1999);
14- Rawson (1986) and (1991); Kertzer and Saller (1991); Dixon (1988) and (1992); Garland (1990); Treggiari (1991); Bradley (1991); Corbier (1991); Gardner (1998); Rawson and Weaver (1997); Severy (2003); Rawson (2003); George (2005).
15- See in order of relevance, Bagnall and Frier (2006); Bagnall and Cribiore (2006); Rowlandson (1998); Montserrat (2000); Perdue *et al* (1997); Verhoogt and Vleeming, (1998); Vandorpe (2002); Huebner (2009).
16- Jackson (1987) 32.

17- Tacoma (2006) 168.

18- Papyrological sources accounting for the population of Alexandria, the capital Alexandria, which was the largest city in the Roman Empire after Rome, are extremely scarce, almost non-existent, due to the challenging weathering condition and the dreadful state of preservation that the capital city encountered throughout its history; for a discussion about the population size of Alexandria see Tacoma (2006) 30-1.

19- Figures are stated as per Bagnall and Frier (2006) 55-6.

20- Bagnall and Frier (2006) 12-3.

21- Bagnall and Frier (2006) 22-5.

22- Bagnall and Frier (2006) 53. It is important to note that lineages changed frequently, seeing that their associations and structures may have been subject to the growth of their constituting members, which was, to be certain, affected by several factors and occurrences, such as marriage, divorce, births and deaths and suchlike circumstances. Heubner's comment with respect to this matter is just convincing, as he makes a note of the fact that the census returns catch only one specific moment in time unable to record, for most cases, a historic progress through time, counter-productive for the study of family dynamics and family as a social organism for which we need to fall back on additional sources such as private letters; Heubner (2010)

23- Huebner (2010)

24- refer here to one's own family, i.e. spouse and children, or people who lived with their sons and daughters and in-laws and grandchildren.

25- Bagnall and Frier (2006) 126-7.

26- Herod. 2.35.4. Indeed, there are a few recorded cases of disobedience on the children's side, as may be exemplified by the case of Kophaëna, a widowed mother from later Roman Egypt, who sent to her son who lived far-off, complaining from a lack of interest that he had shown for his natal home and his mother, as she says:"I want you to know what the steward told you, that 'Your mother, your mother Kophaëna, is ill," look, for thirteen months and you have not even tried to write me a letter, because you know that I have treated you better than (my other son?), and you have not even tried, hearing that I am ill, you have not tried to send anything to me, not even something short."; Heubner (2010)

27- This means that daughters were also considered as provision for ageing. In fact there appear some cases where people do not seem to have wanted their daughters to marry and leave the natal family house, fearing that they would lose their support. This may be, tentatively, explained by a grouse letter sent by an old lady in later Roman Egypt who lived in Philadelphia, named Haynchis, to a high social figure, possibly a prefect or a distinguished administrator,

named Zenon, complaining that her daughter fled from the family house to live with, marry, a man called Demetrios. As Haunchys asks Zenon to help her retrieving her daughter, she notes in her complaint that her daughter was her support in old age, adding that she helped her running her business, and that without her daughter's support, she, i.e. the mother Haunchys, would not be able to earn her living; *P.Lond.* 7.1976, ca. 253 BC; Rowlandson (1998) 209; Bagnall and Cribiore (2006) 102.

28- *P.Mich.* 3.203 (=*SB* 7356) from 114-6 AD; Winter (1933) 50-2; Rowlandson (1998) 74.

29- Note where Saturnilos expresses gratitude for his mother for sending him a basket loaded with olives every month, and a regular stipend, and he also refers to his brothers and in-laws, and communicates with his mother on very interesting family details; *.Mich.* 3.203 (=*SB* 7356) from 114-6 AD; Rowlandson (1998) 74; Winter (1933) 50-2.

30- 117-Ar-5.

31- 201-Ar-9.

32- 173-Pr-14.

33- Winter (1933) 49.

34- Winter (1933) 49. On the other hand, there exist several communications revealing a parent's dependence on their children's support, as is the case of an elderly mother who wrote a letter to praise her son for learning Demotic, and wishes he could get a position as a teacher, or a scribe, so that he could support himself and 'her' when she grows old, noting: "I rejoiced on both your account and my own"; *P Lond.* 1.43.

35- 187-Ar-30.

36- 215-Hm-3.

37- 47-Ox-1; Winter (1933) 23; Johnson (1936) 243-8, no. 140.

38- 173-Pr-8.

39- 215-He-1.

40- Jackson (1987) 32.

41- Richter (1955) 39.

42- Richter (1955)

43- Richter (1955) 40.

44- Rizzo (1947), 3ff; Vessberg (1941) 46ff.

45- Pollitt (1986) 59ff; Richter (1955) 40.

46- Smith (1981) and (1988).

47- For an account of Hellenistic art and its characteristic stylistic approaches, see Pollitt (1986) and Smith (1991).

48- Richter (1955) 44-6.

49- Richter (1955) 44-6.

50- Richter (1955) 46.
51- Hinks (1934); Jackson (1987) 32.
52- Jackson (1987) 32.
53- Vessberg (1941), 115ff. What further supports the view of Greek school of artists working out Roman ancestral 'aged' figures is, as noted by Toynbee, we have no knowledge of any school of specifically Roman portrait-sculptors of this period, whereas from Greek islands and territories, such as Delos and Athens, there exists a rich body of evidence confirming that native Greek portraitists from the eastern Mediterranean were frequently hired to create portraits of Roman officials and other contemporary individuals precisely at this time, i.e. ca. second century BC; Toynbee (1957) 2-3. See also Boardman *et al* (1988) 55, 57.
54- Jackson (1987) 33.
55- Vessberg (1941) 40ff; Scweitzer (1947) 19ff; Richter (1955) 40.
56- Vessberg (1941) 40ff; Scweitzer (1947) 19ff; Richter (1955) 40.
57- Kleiner (2009) 242.
58- Richter (1955) 46.
59- Jackson (1987) 34.
60- Jackson (1987) 34.
61- Jackson (1987) 34.
62- A.N. Zadoks-Josephus Jitta (1932) 27; Jackson (1987) 35.
63- Jackson (1987) 34.
64- Jackson (1987) 44.
65- Jackson (1987) 35-40.
66- Toynbee (1957) 3.
67- Jackson (1987) 45.
68- Kleiner (2009), 242. On the structure of Roman society and status of aristocracy, see Shelton (1998) 4-9.
69- Jackson (1987) 45.
70- Kleiner (2009) 242.
71- Kleiner (2009) 242.
72- Kleiner (2009) 242.
73- Gessii Funerary relief, provenance uncertain, probably Rome? Italy, ca. 30 BC; material: marble, courtesy of the Museum of Fine Arts, Boston; Kleiner (2009) 243.
74- It was customary throughout the history of Roman slavery to find freed-slaves bearing the names of their patrons as is exemplified in the extant paradigm. It is not specifically clear, however, whether the two freed slaves, Gessius Primus and Gessius Fausta, constituted a couple, or were they a brother and a sister; Kleiner (2009) 243.

75- Kleiner comments on the occurrence of such instances by noting that Roman freedmen often placed reliefs depicting themselves and their former owners on the façade of their tombs, hence those portraits were designed to celebrate their freedom and new legal standing as citizens; Kleiner (2009) 243.

76- This thought may be further indicated by the order issued in 158 BC, which Pliny notes, that regulates some policies for the placement of Roman statuary, ordering the removal of all statues of magistrates which had not been formally authorized *populi aut sanatus sentential statutae*; Toynbee (1957) Nos. 1 and 2

77- Pryce *et* al (1998) *Oxford Reference Online*; 4 January 2010 <http://www.oxfordreference.com/views/ENTRY.html?subview=Main&entry =t133.e510>

78- Tanner (2000) 19; Giuliani (1986) 190-191; Smith (1981) 115-30.

79- Admittedly, however, it seems rather problematic to speak of art as a concrete interpretative political tool, even if this is readily appreciated and acknowledged. So far hardly any thorough studies have been made to narrow the links between art and historical and social context, since, as Tanner rightly points out, there is no account of works of art or their particular visual components as active elements in the articulation of the mobilization of cultural ideals, social relationships, and the material transformation of associations of might and unity. So, whilst art is explored as an indication of historical processes, most scholars are inclined to associate art and society or art and culture as reciprocally constitutive; those scholars, however, do not ascertain the process through which art makes one contribution or another to the reproduction and transformation of the complex systems of social and cultural relationships; Tanner (2000) 19. Scholarly initiative concerning the notions of art in connection to society vary though most place prime emphasis on solely iconography and iconology; some, like for instance Zanker, ascertain art as a propaganda tool and an immediate reflection of societal norms. Zanker argues that visual imagery reflects a society's inner life, and views artistic styles as truthful reflections of social and political settings; Zanker (1988) 1-31. The issue, however, is not straightforward, since, as noted by Tanner, the absence of stylistic patterns reflects the inquisitive modes of Roman politics, and accordingly stylistic contradiction and dissolution. Smith, on the other hand, sees art as a symbol of self-perception, ideologies and identity; Smith (1988), *Hellenistic Royal Portraits*,

80- Kleiner (2009) 244.

81- Kleiner (2009) 244.

82- Toynbee (1957) 3-4.

83- Kleiner (2009), 254.

84- The variance in the chronology of the statues of Augustus, and several other Hellenistic and Roman prominent persons, may be attributed to the fact that many of such portraits were replicas of original and official figures, which were either reproduced by local sculptors or imported to Roman provenances and towns. This custom was adopted for statues of chief leaders as well as for their family members, like for instance the several reproduction of the portraits of Livia and several imperial women being assimilated with goddesses or as embodiments of feminine rites; Kleiner (2009) 254.

85- The *pax Romana* ideology perceived in Augustan images and later imperial statuary connotes the peaceful times that the Roman Empire, under the reign of Augustus and fellow emperors, enjoyed. During their reigns those emperors had the peace of mind and energy to commission great numbers of magnificent achievements, particularly architectural structure and related elements. The tradition of producing statues and monuments narrating the rulers' deeds and power, hence presenting a glossy image of the emperor, not necessarily a factual one, to mold the public opinion; Kleiner (2009) 254-5. On the *Pax Roman*, see also Lewis and Reinhold (eds.) (1990), 1ff; Hadas (1965) 65-76.

86- Kleiner (2009) 255.

87- Kleiner (2009) 255. It is important to note that Augustus did not personally claim that mysticism charisma, but he rather promoted himself as a son/heir of a god, and he was, surely, not the first Roman leader to claim that status, considering that deification had been primarily granted to Julius Caesar after his death. Yet, Augustus is the first Roman ruler to acquire this position during his life time, and as Kleiner highlights, his portraits were designed to present the image of a godlike leader who miraculously never aged. Interestingly, his images maintain a youthful striking appearance until the end of his life (although Augustus is known to have lived until he was in his seventh decade, ca. 14 AD).

88- Note for instance the portrait bust of a lady, ca. 90 AD, attributed to the Flavian phase and sculpted in Italy (Musei Capitolini, Rome), showing soft treatment of the details with great delicacy.

89- Kleiner (2009) 261.

90- Tanner (2000) 31.

91- Tanner (2000) 31.

92- An additional potential force for the change in the form and context of Roman imagines from the honorific stone types to other forms, e.g. mummy panels and relief representations, was possibly the lack of suitable sculpting material in Egypt mainland, which is, in this case, the marble.

93- One must note that portrait sculptures displaying aged people; those discovered in Egypt and datable to the Ptolemaic and Roman periods, represent by no

means a dictated artistic convention, for there also exist multiple figures that adopt the stated Egyptian 'idealized' conventions, both in royal and private figures, most of such 'ideal' representations followed the stylistic canon dominant in traditional Egyptian production centers, notably those in Upper Egypt.

94- Bianchi (1988) and (1988a), Bothmer (1980), (1988) and (1996) and Richter (1955).

95- Smith (1981).

96- For a comprehensive study of Greek and Roman stelae from Egypt, see Abdalla (1992)

97- Wall paintings in tombs datable to Roman Egypt represent a unique instance of pro-Egyptian iconography, which may compromise their reliability as an unbiased or actual evidence for Roman artistic context; note for example the tomb of the Tigrane Pasha St. and indeed the main tomb at Com el-Shouqafa Catacomb; Venit (1997) and (2002); see also Riggs (2002) and (2005).

98- Several mummy portraits datable to the early phases of Roman rule in Egypt, first century AD, show male subjects clean-shaven, which accords well with the tradition dominating the Julio-Claudian emperors and their successors, who were mostly represented beardless; Pryce *et al*, Oxford Reference online.

99- A mummy portrait of a priest of Sarapis, from Hawara (the Fayum), Egypt, ca. 140-160 AD, British Museum (London); Kleiner (2009) 275. See also the portrait of a man (Berlin, Inv. 31161/6) and a mask of a man, AD. 220-230 (Louvre, Inv. AF 6507); Parlasca and Seemann (1999) nos. 50 and 218 respectively.

100- See for instance the painted portrait of Septimius Severus and his family, from Egypt, ca. 200 AD, revealing Severus' old age as shown by his grey hair; Kleiner (2009) 276. One must emphasize the complexities of establishing a firm chronology for mummy portraits, including those from the Fayum, considering that many have unknown or uncertain provenance, whereas dating them on purely stylistic grounds has potential identifying quandaries. On the dating of the Fayum portraits, see Edgar (1905).

References:

- Abdalla (1992), *Graeco-Roman Funerary Stelae from Upper Egypt*, Liverpool.
- M. Amerise (2008), *Girolamo e la Senectus: età della vita e morte nell'epistolario,* Studia ephemeridis Augustinianum 109,Rome.
- R. S. Bagnall and R. Cribiore (2006), *Women's Letters from Ancient Egypt 300 BC-AD 800.* Ann Arbor.
- R. S. Bagnall and B. W. Frier (2006), *The Demography of Roman Egypt.* 2nd ed, Cambridge.
- R.S. Bianchi (1988), "Pharaonic Art in Ptolemaic Egypt." In *Cleopatra's Egypt: Age of the Ptolemies*, Exhibition Catalogue, New York, 55-80.
- R.S. Bianchi (1988a), "Ptolemaic Egypt and Rome. An Overview." In *Cleopatra's Egypt: Age of the Ptolemies*, Exhibition Catalogue, New York, 13-20.
- Boardman *et al*, J. Boardman, J. Griffin and O. Murray, (1988), *The Roman World*, Oxford, New York.
- B.V.B. Bothmer (1988), "Egyptian Antecedents of Roman Republican Verism." In *Ritratto Ufficiale et Ritratto Privato. Atti II Confrenzo Internationale sulRitratto Romano= Quaderni di la Ricerca scientifica* n. 116, Rome, 47-65.
- B.V.B. Bothmer (1980) "Revealing man's fate in man's face." In *ARTnews* 79, no. 6.
- B.V.B. Bothmer (1996), "Hellenistic Elements in Egyptian Sculpture of the Ptolemaic Period." In *Alexandria and Alexandrianism*, papers delivered at a symposium organized by the J. Paul Getty Museum and the Getty Center for the History of Art and the Humanities and held at the Museum, April 22-25, 1993, Malibu, California, 215-29.
- H. Brandt (2002), *Wird auch silbern mein Haar. Eine Geschichte des Alters in der Antike*, Munich.
- R. Brilliant (1974) *Roman Art from the Republic to Constantine*, London
- K. Cokayne (2003), *Experiencing Old Age in Ancient Rome*, London.
- Cox (1998), *Household Interests. Property, Marriage Strategies, and*

Family Dynamics in Ancient Athens, Princeton.

- S. Dixon (1992), *The* Roman *Family,* Baltimore.
- S. Dixon (1988) *The Roman Mother,* London.
- Edgar (1905) "On the Dating of the Fayum Portraits", *The Journal of the Hellenic Studies,* Vol. 25, pp. 225-233.
- M. I. Finley (1981) "The Elderly in Classical Antiquity", *Greece & Rome, second Series,* Vol. 28, No. 2, 156-171.
- W. Frier (2000), "Demography," in A. K. Bowman *et al, The Cambridge Ancient History XI.* 2nd ed. Cambridge: 787-816.
- R. Garland (1990), *The Greek Way of Life: From Conception to Old Age,* London.
- M. George (2005) The Roman Family in the Empire: Rome, Italy, and Beyond. Oxford.
- L. Giuliani (1986), *Bildnis und Botschaft: hermeneutische Untersuchungen zur Bildniskunst der römischen Republik,* Frankfurt.
- Gutsfeld and W. Schmitz (eds.) (2003) *Am schlimmen Rand des Lebens?* Cologne.
- M. Haddas (1965), *Imperial Rome,* New York.
- M. H. Hansen (1986), *Demography and Democracy: The Number of Athenian Citizens in the Fourth Century B.C.* Herning.
- R. Hinks (1934) in *Journal of Roman Studies* 54, title uncertain.
- S. R. Huebner (2010), "Household and Family in the Roman East and West," in B. Rawson (ed.) *The Ancient Family,* Oxford, forthcoming.
- S. R. Huebner (2009), "Callirhoe's Dilemma: Remarriage and Stepfathers in the Graeco-Roman East", in: Huebner, S.R.; Ratzan, D.M. eds. *Growing up Fatherless in Antiquity*; Cambridge: 61-82.
- Johnson (1936), *Roman Egypt,* Baltimore.
- Kertzer and P. Laslett (eds.) (1995), *Aging in the Past. Demography, Society, and Old Age.* Berkeley, Los Angeles, and Oxford.
- Kertzer, D. I. and R. P. Saller (eds.) (1991), *The Family in Italy from Antiquity to the Present,* New Haven.
- Kleiner (2009), *Gardener's Art through the Ages,* Thomson Wadsworth.

- N. Lewis and M. Reinhold (1990), *Roman civilization: selected readings,* Columbia University Press.
- M. Livi-Bacci (1992), *A concise* history *of world population. Oxford.*
- Maddison (2001), *The World Economy: A Millennial Perspective.* Paris.
- U. Mattioli, ed. (1995) *Senectus: La vecchiaia nel mondo classico.* Bologna.
- Montserrat (2000), *Sex and Society in Graeco-Roman Egypt,* London and New York.
- L. C. Nevett (1999), *House and Society in the Ancient Greek World,* Cambridge and New York.
- T. G. Parkin (2003) *Old Age in the Roman World: A Cultural and Social History* (Ancient Society and History). Baltimore.
- T. G. Parkin (1992) *Demography and Roman Society,* Baltimore and London.
- J. J. Pollitt (1986), *Art in the Hellenistic* Age, Cambridge.
- S. B. Pomeroy (1997), *Families in Classical and Hellenistic Greece: Representations and Realities.* Oxford and New York.
- Pryce *et* al; Frederick Norman Pryce, J. M. C. Toynbee, S. Walker "portraiture, Roman" *The Oxford Companion to Classical Civilization.* Ed. S. Hornblower and A. Spawforth. Oxford University Press, 1998. *Oxford Reference Online*; Oxford University Press. 4 January 2010 <http://www.oxfordreference.com/views/ENTRY.html?subview=Main &entry=t133.e510>
- Rawson (2003) "The Roman Family' in Recent Research: State of the Question," *Biblical Interpretation: A Journal of Contemporary Approaches* 11: 119-138.
- Rawson and P. R. C. Weaver (eds.) (1997), *The Roman Family in Italy: Status, Sentiment, Space,* Canberra, New York, and Oxford.
- Rawson (ed.) (1991), *Marriage, Divorce, and Children in Ancient Rome,* Oxford.
- Rawson (ed.) (1986) *The Family in Ancient Rome: New Perspectives,* Ithaca, New York.
- M. A. Richter (1955), "Verism in Roman portraiture", *Journal of Roman*

Studies, Vol. 45, 39-46.

- Riggs (2005), *The Beautiful Burial in Roman Egypt: Art, Identity, and Funerary Religion (Oxford Studies in Ancient*, Oxford University Press
- Riggs (2002), "Facing the Dead: Recent Research on the Funerary Art of Ptolemaic and Roman Egypt", *American Journal of Archaeology*, pp. 85-101.
- J. Rowlandson (1998), *Women and Society in Greek and Roman Egypt: A Sourcebook*, Cambridge.
- R. P. Saller (1994), *Patriarchy, Property and Death in the Roman Family*, Cambridge.
- R. P. Saller (1987), "Men's age at marriage and its consequences in the Roman family," *Classical Philology* 82: 21-34.
- R. P. Saller and B. D. Shaw (1984), "Tombstones and Roman family relations in the Principate: soldiers, civilians and slaves," *Journal of Roman Studies* 74: 124–56.
- W. Scheidel (2007), "Roman funerary commemoration and the age at first marriage," Classical philology; *CPh* 102: 389-402.
- W. Scheidel (2001a), "Roman age structure: evidence and models," *Journal of Roman Studies* 91: 1-26.
- W. Scheidel (2001b), *Death on the Nile: disease and the demography of Roman Egypt*. Leiden.
- Schweitzer (1947), *Die Bildniskunst der römischen Republik*, Leipzig.
- B. Severy (2003), *Augustus and the Family at the Birth of the Roman Empire*, New York.
- Shaw (1996), "Seasons of death: aspects of mortality in Imperial Rome," *Journal of Roman Studies* 86: 100-38.
- B. D. Shaw (1987) "The age of Roman girls at marriage: Some reconsiderations," *Journal of Roman Studies* 77: 30-46.
- B. D. Shaw (1984) "Latin funerary epigraphy and family life in the later Roman empire," *Historia* 33: 457-97.
- J-A. Shelton (1998), *As The Romans Did: A Sourcebook in Roman Social History*, Oxfor University Press.
- R.R.R. Smith (1991), *Hellenistic Sculpture: A Handbook*, London.

- R.R.R. Smith (1988), *Hellenistic Royal Portraits*, Oxford.
- R.R.R. Smith (1981), "Greeks, Foreigners, and Roman Republican Portraits." *JRS* 71, 24-38.
- P. N. Stearns (1982), *Old Age in Preindustrial Society*, New York.
- L. E. Tacoma (2005), *Fragile Hierarchies: The Urban Elites of Third-Century Roman Egypt,* Leiden.
- J. Tanner (2000), "Portraits, Power, and Patronage in the late Roman Republic", *Journal of Roman Studies* 90: 18-50.
- J. M. Toynbee (1957) "Portraits of Julius Caesar", *Greece and Rome, second series*, vol. 4, No. 1, 2.
- S. Treggiari (1991), *Roman Marriage*. Iusti Coniuges *from the Time of Cicero to the time of Ulpian*, Oxford.
- K. Vandorpe (2002) *The Bilingual Family Archive of Dryton, His Wife Apollonia, and their Daughter Senmouthis*, Collectanea Hellenistica 4: Brussels.
- S. M. Venit (1997) "The Tomb from Tigrane Pasha Street and the Iconography of Death in Roman Alexandria", *American Journal of Archaeology* 101, No. 4, pp. 701-729).
- S. M. Venit (2002), *Monumental Tombs of Ancient Alexandria*, Cambridge University Press.
- M. F. W. Verhoogt and S. P. Vleeming, (eds.) 1998 *The Two Faces of Graeco-Roman Egypt: Greek and Demotic and Greek-Demotic Texts and Studies Presented to P.W. Pestman* (*P.Lug.Bat.* 30). Leiden, Boston and Cologne.
- O. Vessberg (1941), *Studien zur Kunstgeschicht der römischen Republik*, Lund 1941.
- J. G. Winter (1933), *Life and letters in the Papyri*, Ann Arbor.
- P. Zanker (1989), *The Power of Images in the Age of Augustus*, University of Michigan Press.



fig. 1: Head of old man in a mantle; marble. Mid-1st century B.C. Rome, Courtesy: Vatican Museums. Source: Wikipedia common



fig. 2: Julius Caesar's aged face on Roman minted coins; *source*: CNG coins (http://www.cngcoins.com)



fig. 3: Marble Bust of Augustus with the Civic Crown, period of his reign; Courtesy Glyptothek_Munich_317, Source: Wikipedia common



fig. 3a: Statue of Augustus dressed like a warrior: Courtesy Museo Chiaramonti, Vatican, Rome. Source: Wikipedia common



fig. 4 : Head of an aged man from Tebtunis, Tell Um el-Berigat (the Fayum); Courtesy the Egyptian Museum, Cairo



fig. 5: Mummy painted portrait panel (the Fayum; Hawara?; Courtesy: the British Museum. Source: Wikipedia common



fig. 6: Portrait of an aged individual; Fayum; current location unknown. Source: Wikipedia common



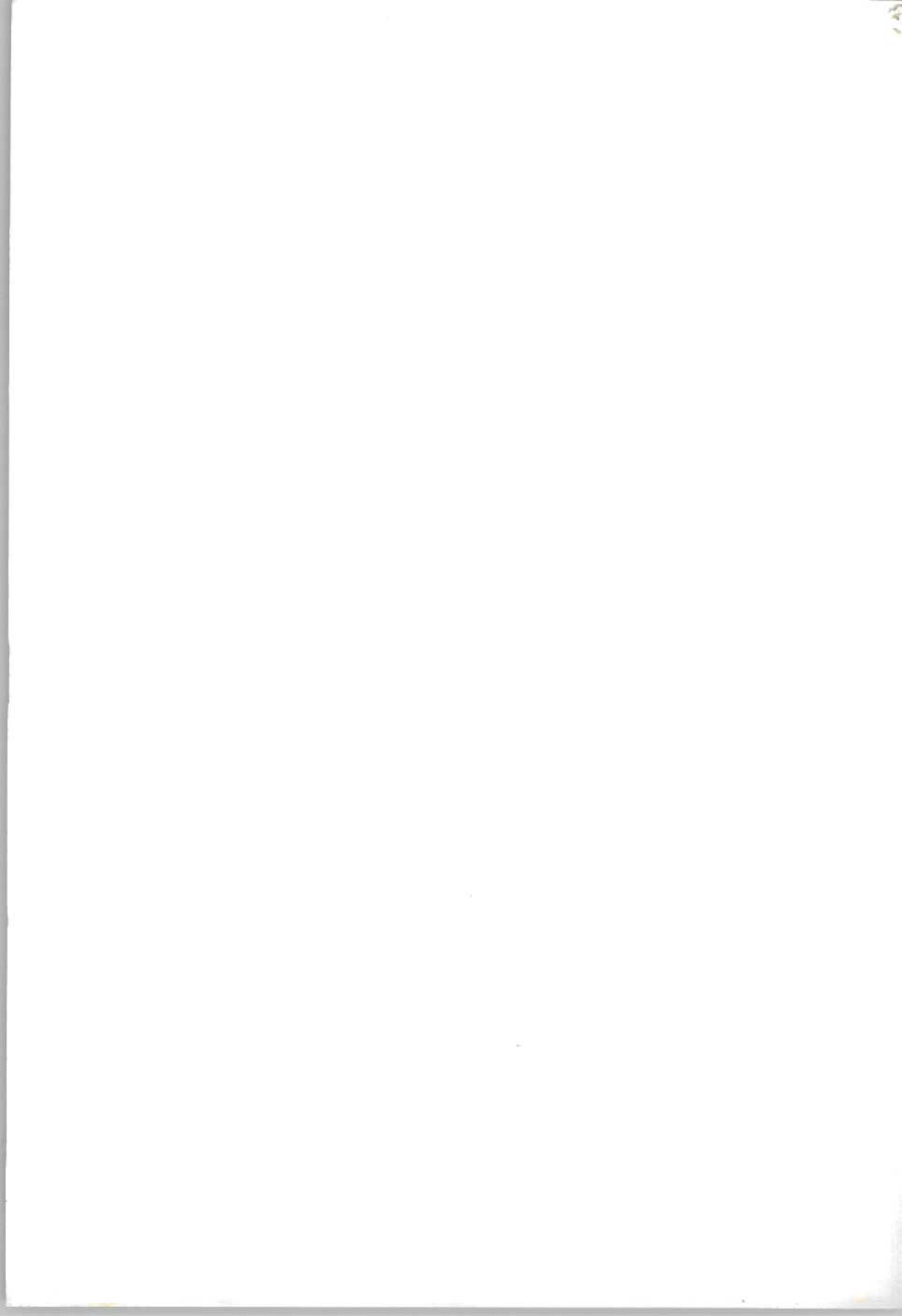
Fig. 6a: Elderly Man on a mummy painted panel (the Fayum); Courtesy Metropolitan Museum of Fine Arts, New York. Source: Wikipedia common



fig. 7: Mummy portrait of a priest of Sarapis, ca. A.D. 140–60, from Hawara (the Fayum); Courtesy: the British Museum (London), Source: Wikipedia common



Fig. 8: Tondo with images of Septimius Severus from Egypt; ca. 200 AD; Courtesy Staatliche Museen, Berlin, Source: Wikipedia common





Journal Egyptian Historian



Studies & Researches In History & Civilization



Issued by the Department of History
Faculty of Arts - Cairo University

Volume 35 **July 2009**